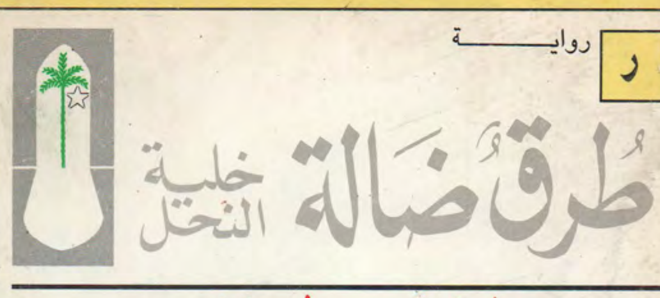
رواية

ر



طُرقُ ضَالة

كاميلو خوسيه ثيلا

نوبل ١٩٨٩

حلمي التوني

ترجمة وتقديم: سليمان العطار

روايـــــــــة

طُرقُ ضَالة خلية النحل

كاميلو خوسيه ثيــلا

ترجمة وتقديم: سليمان العطار



دار سعاد الصباح
ص . ب : ٢٧٢٨٠
الصفاة ١٣١٣٣ - الكويت
ص . ب . ١٣ المقطم - القاهرة
فاكس : ٥٠٦١٠٣٠
٣٥ ش محى الدين أبو العز
ت ٣٤٩٧٧٧٩ - ٣٤٩١٧٢٧

رقم الايداع ٧٤٦٨ / ١٩٩٢
I.S.B.N 977 - 5344 - 11 - 5

الطبعة الأولى
١٩٩٢

الاشراف الفنى : حلمى التونى

مقدمة المترجم

«تقرير عن سيرة رواية»

- ١ -

نفتتح التقرير بأهم تقرير نقدى كتب عنها : قد يأخذ القارىء هذا الوصف «أهم تقرير نقدى» بشىء من الاستهانة عندما يعرف من كتبه . إنه ب . أندريس لوكاس دى كاسلا ! . إنه ممثل الرقابة على المصنفات الأدبية فى الأربعينات ، حيث البدايات الأولى لديكتاتورية فرانكو . وكما أن للنقد أصولاً يرجع إليها فإن تقرير الرقيب النقدى ليس إلا إجابة على أسئلة فى نموذج مكرر ملزم لكل رقيب . ومن خصائص الديكتاتورية آلية القولبة وقدرية النماذج التى يدخلها الجميع : الإنسان والأشياء دون تفرقه ، النموذج الرقابى يطرح الأسئلة الآتية ، والرقيب يلقى بالإجابات التى تليها بعد قراءته للعمل :

س/١ : هل تهاجم (الرواية) العقيدة أو الأخلاق ؟

جـ/١ : نعم .

س/٢ : هل تهاجم (الرواية) مؤسسات النظام ؟

جـ/٢ : لا .

س/٣ : هل تحتوى على قيم أدبية أو تسجيلية ؟

جـ/٣ : بشكل نادر .

س/٤ : أية ملاحظات عارضة أو ظرفية تؤدى إلى هذا القرار (رفض نشر العمل) أو ذاك (قبول نشره) ؟

جـ/٤ : تحتوى الرواية على صور قصيرة عن الحياة «الحالية» فى مدريد بنيت على حوارات بين شخوص لا يربط بينها إلا روابط واهية ، لكن لا يوجد فى هذا «الشىء» المسمى «خطأ» رواية أية قضية أو جدل جاد ، فقط يدور الجدل لإضاءة إنحرافات أو عيوب «حالية» ، ولا سيما من النمط المرتبط بالحياة الجنسية . الأسلوب واقعى جداً على أساس حوار مبتذل ، ورذاذ من العبارات الخشنة ، لا يتمتع بأية جدارة أدبية ، والعمل (الرواية) غير أخلاقى بشكل صريح بل إنه أحياناً يتحول إلى لوحات جنسية مكشوفة وأحياناً أخرى يتحول إلى مجرد وقاحات .

* * *

إن النموذج الذى يجيب عليه الرقيب من وضع نقاد أدبيين ويمثل تصوراً لما ينبغى أن يكون عليه الأدب فى مرحلة ما من تاريخ بلد ما . وهذا النموذج – وإن كانت تنفذه السلطة – مشتق من مثُل قاعدة شعبية – إتسعت أو ضاقت – تساند السلطة

وتشاركها فى سلم القيم بما فيها القيم الجمالية التى تمتزج بغيرها من القيم إمتزاجاً يحرم الجمال من جماليته . إن الرقابة سواء أكانت من طرف الحكومة أو أى مؤسسات إجتماعية تمثل مدخلاً منسياً لمعرفة سر إنتشار أنظمة من النقد والإبداع فى آن .

إن المفاجأة التى قد تدهش القارىء أن «كاميلو خوسيه ثيلا» مؤلف هذه الرواية كان رقيباً زميلاً للسيد «أندريس لوكاس» الذى كتب عنه التقرير السابق. لقد كان من أنصار فرانكو المتحمسين ، فرغم إعلان عدم لياقته بسبب معاناته من السل انضم للجيش الوطنى الفرانكيستا . وهو نفسه كان كفيلاً بكتابة تقرير مماثل أمام مسئوليته كرقيب . ومن ثم ، فيما يبدو أن الناقد «ينقد» بوعى محكوم بأيديولوچية أو بإنتماء ، بينما المبدع «يبدع» وقد استسلم لوعى آخر هو الوعى الجمالى . وقد افترق الناقد والمبدع فى «ثيلا» : الناقد يرفض الإبداع والمبدع يطلق الرصاص على الناقد وما ينتسب إليه من نظام يرى فى الناقد «رقيباً» وفى الرقيب «ناقداً» .

إن تقرير الرقيب سيكون مادة هامة فى تحليل الرواية لكنه أيضاً أكثر أهمية فى سيرتها التى سوف تضىء أى تحليل لها . كيف تدخّل فى سيرة الرواية بل والروائى فى آن ؟

يجيب ثيلا على ذلك فى كلمات قليلة قدم بها العمل :

«هذا الكتاب حظى بشباب لم يكن قليل النحس . هناك مخلوقات – يمكن الشك فيها عندما تُرى متوثبة حتى أنها تولد مع قلب قلق منسوج بأذناب السحالى ، وأنها بدلاً من جريان دم فى عروقها – يبدو لنا – كما لو كان يجرى فى تلك العروق دمعة «هرابة» من الزئبق ، من الأفضل – مع مثل هذه المخلوقات – هجرها ، وإنتظار أن تولد وحدها مستسلمة للتعب ، ولمرِّ الزمان

وفى هذه اللحظة مع هذه السنوات التى مرت ، وبإستعادة التصرفات الأولى الغريبة ، يبدو لى أن هذا الكتاب يمضى مستقراً فى ذروة ، وفى الحقيقة ، فإن الأمور تتجه نحو أن تحين تلك الساعة لأن يحدث هذا ، لأنه فى صباه لم يفعل أكثر من إهداء تعاسات لأبيه ، الذى هو أنا ، فعندما يخرج الأبناء مليئين بالشقاوة والطيش ، فإننا – الآباء – نميل ربما بغريزة الدفاع إلى إلقاء الذنب على قرين السوء . ابنى طيب – هكذا نتجادل مع من يحسنون إلينا بسماع حديثنا – ؛ من المؤكد أنه قتل (بالشلاليت) وسلخ ثم رمى فى البئر تلكماً العجوزين اللتين كانتا ينسجان من الشمس جوارب لأرجلهما ، لكنه فى الأعماق طيب . ومن أفسده ليس إلا قرناء السوء ، فالشبان – الفارغ وقتهم ممن يستهلكون المشروبات الكحولية ، يذهبون إلى حفلات تنفيذ الإعدام وإلى حفلات العربدة ، ويكثرون من زيارة البيوت السرية ويلعبون

البلياردو فى عصبة وقبل أن يلتحق بقرناء السوء عندما كان فى الثالثة أو الرابعة كان غير قادر على قتل ذبابة .

بالنسبة لخلية النحل ، لولا قرناء السوء لطوقتها بالغار بالرغم من إمكانية إحتمال حرمانى من تقديم قصة بمثل هذه الدرجة من الإثارة والتسلية ومن السوداوية والعاطفية . إن الذى لا يتعزى ، ليس إلا لأنه يفضل إدمان نبات الصبر اللذيذ للحزن .

لقد بدأت كتابة هذا الكتاب عام ١٩٤٥ ، وأنهيته فى قرية «ثربروس» فى صيف ١٩٤٨ . ومن الواضح أننى عدت بعد ذلك إليه (ومن هنا فتاريخه من ١٩٤٥ - ١٩٥٠) مصححاً ومجلياً ومُشكلاً ، حاذفاً شيئاً هنا ، مضيفا شيئاً هناك ، معانياً على الدوام ، لكن الرواية كان من الممكن خلال تلك الأعوام أن تكون مطروحة للتداول ، وهذا ما أشير إليه ، فقبل ذلك ،. وفى عام ١٩٤٦ ، بدأ نضالى مع الرقابة ، فى حرب خسرت كل معاركها ما عدا المعركة الأخيرة (معركته مع رقابة الأرچنتين) .

وفيما يتعلق بنسبية ذاتية «الفيتو» أتحدث قليلاً عن بيوت لى فى قرية «ثربروس - . . . - وأيضاً عن تحرير «خلية النحل» وعن المائدة التى كتبتها عليها ، وحتى لا أكرر ما قيل ، فإننى اقتصر على بعض التفاصيل ، التى تركتها دون تسجيل - حينذاك- وأسوق خبراً هاماً لتعلقه بمشاعرى (الخبر طويل -

وعلى طرافته – نختصره فى الآتى :

يصف ثيلا الظروف بالغة البؤس التى كتب فى ظلها الرواية ، وقصة الخبر تدور حول مائدة مقهى هرمة . إن البيوت التى تقلب فيها أثناء الكتابة كانت تعبق برفاهية البؤس ، مثلاً تخلو من دورات المياه ، ولا تزيد عفونتها عن عفونة البيوت المجاورة ، وآخر بيت منها مثلاً كان يتميز بأنه يقى الكاتب من المطر ، وكان به مطبخ يجلس فيه للكتابة ، إضافة لهذه الظروف البهيجة فإن كثرة جلوسه للكتابة هاجمته بشتى الأمراض الطريفة ، هل هذا جو يمكن الكتابة فيه ؟

اكتشف أن مسرحة الكتابة بتصور جو حالم ملىء بالزهور والجمال لا معنى له ، كل المطلوب : مائدة وأوراق وقلم وشىء يكتب ، وهذا بالضبط ما توافر لكتابة دون كيشوت والكوميديا الإلهية ، أما إنتظار جو سحرى للكتابة . . نعم قد يتوافر ويتوافر معه كل المطلوب ، لكن الشىء الذى يكتب يختفى لأنه لا يظهر فى كل الأوقات . من ثم جلس يكتب فوق مائدة هرمة هى بالضبط مائدة المقهى الهرمة التى أقرضها له – بعد إصلاحها قليلاً – صاحب المقهى حتى يجد ما يكتب عليه . وعند إنتهاء العمل أعادها للرجل الذى أغلق المقهى ، وباع كل أثاثه . لكن بعد بروز «خلية النحل» وعلو مكانتها أدرك صاحب المقهى المغلق

القيمة التاريخية للمائدة ، فمضى ينتقل من مدينة إلى مدينة ومن قرية إلى قرية بعد خمسة عشر عاماً يبحث عن المائدة حتى وجدها بعد عناء حقيقى ، وأهداها إلى ثيلا ، الذى يحتفظ بها الآن ، وبين الحين والحين يربت عليها فى حنان وكأنها أثر قديم خالد !. ثم يواصل ثيلا قص سيرة الرواية :

وفى شتاء ١٩٥٠ - ربما فى يناير - وبدون شك فى مدريد . جربت فى أن أجرى قراءة كاملة «لخلية النحل» من فوق لتحت ، وبالحواس الخمس ، لقد كنت مسمماً بهذا الكتاب حتى أننى حفظته عن ظهر قلب أو كدت ، ورد فعلى فى مواجهة ما كنت ماضيا فى قراءته لم يكن إحدى منتجات النصفة ، هذا بكل تأكيد ، أحياناً كنت أظن أننى كتبت عملاً «عمدة» وعلى العكس ، فى أحيان أخرى ، كنت أرى أن ذلك لم يكن إلا عملاً منحطاً لا قيمة له ولا معنى (نفس رأى الرقيب) ، وقد أحاطنى ذلك بمشاعر أليمة ، كما أن موقف الرقابة الذى لم يسمح حتى بمناقشة الموضوع ساهم أكثر فى تدمير روحى المعنوية . وخرجت مندفعاً مفكراً فى أمرين : فى إسبانيا من يقاوم يكسب ، وأننى لم يبق لى حل آخر غير أن استخلص من ضعفى قوة كى أواصل المقاومة .

وفى أحد الأيام (من المسلم به أننى كنت أكثر إحباطاً وقهراً

مما اعتدت عليه من ذلك) التقطت هذه الحفيظة مع أوراق (الرواية) مع نفسى ، وألقيت الكراس الضخم لأصول الرواية فى نار المدفأة . زوجتى التى كانت تحيك فى مقعد مواجه لى قفزت إلى النار وأنقذت الأوراق من هذه المحرقة التفتيشية لأوراقى الملحدة التى لم يشأ القدر إنطفاء جذوتها بفضل تدخل زوجتى . وزوجتى ليست - كما يحلو لنا القول - عظيمة البطولة ، لكنها لديها القيمة المطلوبة بالضبط فى مواجهة ما تعرضه اللحظة فذلك وحده - على ـ ما يبدو لى - يجعلها جديرة بكل تقدير ؛ أحياناً أكن لها العرفان .

الرواية - فى نسختها الأولى - غير المزوقة ولا الحامضة تم تقديمها إلى الرقابة فى ٧ يناير ١٩٤٦ ، التقارير - كما سيرد إلى الذهن - كانت سيئة ، وروايتى - منطقياً - ممنوعة من النشر .

وفى ٢٧ فبراير طلب الناشر الإذن اللازم لطرح طبعة مميزة فاخرة وقليلة عدد النسخ ، ورفض الطلب أيضاً رسمياً فى ٩ مارس .

وبمضى الزمن - وعندما بدأ فى إسبانيا ظهور حس واهن بالواقع ، على الأقل فى هذا المجال - لم تظهر خلية النحل فقط فى إسبانيا بل فى أربع عشرة دولة غير إسبانيا .

سكون التاريخ مؤقت ، وفى الآخر المياه تعود لمجاريها ، من يذكر اليوم الرقباء الذى تعقبوا فى مطاردة خانقة حتى فراى لويس (راهب شاعر متصوف عاش فى القرن السابع عشر)(*) .

أما الرقابة الأرچنتينية (تذكّر أن أول نشر للكتاب كان فى الأرچنتين وفى عصر الچنرال بيرون) حاصرتنى بما فيه الكفاية ، لكن على الأقل أمكن نشر الكتاب طبعة صحيحة إلى حد يرضى . «إنهم فى كل مكان يطبخون فول مدمس» ؛ لكن الحاصل أن هناك فولاً ، سواء أكان أسوأ أو أفضل ، يمكن هضمه ، وفولاً آخر مثل الحصى لا يوجد من يستطيع مضغه بأسنانه . وأما الانتقادات الأرچنتينية فقد قسمتها إلى ثلاث مجموعات : ما يمكن قبوله دون إضرار بالكتاب بل يؤدى إلى تنظيفه من مجاوزات لغوية أو جدلية ، وما لا يمكن قبوله بأى حال من الأحوال ، وما يمكن قبوله بتحفظات ، سعيت لأن أكون موضوعياً . وأن أنظر للأمر بشىء من البرود ، والإعتبار الهادئ للوقائع . وهكذا ولدت نسخة رضيت عنها تماماً ، وهى ما أقدمها الآن . ومن أجل المتذاكين ؛ أحب أن أترك الأمور واضحة : هذه

(*) يتحدث عن مصادرة أعمال تراثية بعد أكثر من ثلاثة قرون ، بسبب تشنج يصيب كل نواحى الحياة فى ظل التطرف . فقد ظهرت فى إسبانيا حركة تشدد دينى ضد كل النزعات المعتدلة والمجتهدة فى تاريخ المسيحية فى إسبانيا .

النسخة ليس بها كلمة واحدة تنقص عن طبعه بوينوس أيرس (ربما بعض الكلمات المضافة ؛ نعم) . لقد مضى زمن زائد عن الحد يعصمنى من أخطاء فى المنظور (*) .

لقد أعطتنى خلية النحل بعض النقود (دار النشر الأمريكية التى طبعتها فى بوينوس أيرس طرحت سبعين ألف نسخة مقابل ٣٥ سنتا للنسخة) ما يكفى لكى أواصل العيش بعد أن طردت من رابطة الصحافة بمدريد ووضع اسمى فى القائمة السوداء بصحف إسبانيا . كم هو بعيد كل ذلك ! والحقيقة أن الأوضاع الزائفة تهرم بسرعة فائقة .

* * *

إن ما سبق يوضح أن الرقابة بين إسبانيا والأرچنتين تدخلت بشكل أو بأخر فى الشكل النهائى لهذا العمل . الرقابة – وأحياناً لا تكون موجودة رسمياً – مؤسسة إجتماعية تقف حياتها من أجل إنمائها وتنميتها كل القوى المحافظة المعادية للتقدم والتى

(*) الرواية نشرت فى أسبانيا فى عهد فرانكو ، بعد بزوغ حس بالواقع عند النظام وإتساع أفقه عن سنواته الأولى والكاتب يلمح أنه ينشرها دون شروط جديدة من الرقابة الإسبانية . هذه المقدمة للطبعة الإسبانية الثالثة ، مؤرخة فى عام ١٩٦٥ (يوم الموتى / ٣٠ يونيو) . وتأريخ هذا التقديم هكذا يعنى أن الكاتب يهدى روايته لروح الموتى من الجوع والظروف السيئة التى عاشها أبطال روايته .

ترفع كل الأسلحة دفاعاً عن الماضى - وهو ليس أكثر من ميت محنط - فى حرب لا هوادة فيها تستخدم فيها كل ما تملك من سلطان ضد كل إبداع ، الرقابة ليست إلا أيديولوچية مقنعة وراء عدد من المؤسسات الإجتماعية تنسج لنفسها منها مؤسسة تطل برأسها تارة فى شكل جهاز بوليسى تملكه الدولة أو مؤسسة أخلاقية تتنكر تحت أسماء الأخلاق والدين والتقاليد وحب الوطن . . . إلخ ؛ وهى فى جميع الأحوال تشكل جانباً من جوانب النقد الكلاسيكى الذى يقوم على الحكم والتقييم ويوجد فى كل زمان ومكان .

ولهذا فكل مبدع ، بشكل أو بآخر ، فى البلاد التى تشتد فيها مؤسسة الرقابة ، لا يملك إلا أن يضعها فى إعتباره ، وهذا ما فعله «ثيلا» فى صياغته لرواية «خلية النحل» . ومع ذلك ففى الرقابة بعض الخير ، فما ترفض الرقابة عملاً حتى ينال صاحبه الشهرة . فإن كان هذا العمل متميزاً بالأصالة ، فقد انفتح أمامه باب الوصول بأصالته إلى كل الناس . إن دار النشر الأمريكية التى نشرت هذا العمل بالأرچنتين استهواها تقرير الرقابة الإسبانية عن الرواية . لو كان إعلاناً تجارياً لكتاب لحقق أكبر إنجاز فى مجال الإعلان ، لكن دار النشر ليست قارئاً عادياً ، وهى لا تؤخذ بالإعلانات التجارية فهى من صناعها . إنما تحليلها للتقرير يؤدى

إلى قراءة «الرواية المرفوضة» من الرقابة بعناية فتأخذ هكذا فرصتها الكبرى للنشر فى دار نشر كبرى .

إن التقرير يؤكد أن الكاتب لم يهاجم موسسات النظام . فلَمَ يرفض النظام نشر روايته ؟ لعل الإجابة على السؤال رقم / ١ هى السبب . انها تهاجم العقيدة والأخلاق . وإسبانيا فى تلك الأيام تخلو من الأخلاق ، أما العقيدة فهى تطرف يثبت عقم الإيمان . فالعمل إذن ضد ما هو سائد من خلل أخلاقى وعقيدى ، وهذا أدعى لتقديره مبدئياً لأن العمل الفنى أخلاقى بالضرورة ، لكن الأخلاق ليست موضوعاً له ، يشير إليها لكن لا يلمسها . ولدار النشر الأمريكية أن تتوقع رواية - بناء على تقرير الرقيب - تشير للجرائم الأخلاقية وسطحية وعقم التطرف الدينى مثل شاهد أخرس لكنه بأصابعه يدفعنا لأن نرى كل شىء .

لكن إجابة السؤال الثالث أكثر طرافة وإفادة «الرواية تحتوى على قيم أدبية أو تسجيلية بشكل نادر» إن الإجابة لا تفرق بين ما هو أدبى أو تسجيلى لكنها تفيد إحتواء الرواية على الأمرين معاً لكن بشكل نادر . وهى إجابة تتفق مع رأى ثيلا نفسه فى العمل بل إن الرقيب يفسر ذلك فى إجابة السؤال / ٤ ، ولعله أفضل تحليل موضوعى للرواية يمكن أن يجعل دار نشر كبرى

تقبل على نشر الرواية مغمضة العينين .

يؤكد (ثيلا) فى مقدمة الطبعة الأولى لخلية النحل طابع شاهد العيان الذى تتسم به الرواية : «روايتى» خلية النحل .. ليست أكثر من إنعكاس شاحب ، ومن ظل متواضع للواقع اليومى ، الخشن ، الحميم ، الأليم» (هذه صياغة أخرى لتقرير الرقيب) .

يكذب من يرغب فى وضع القناع المجنون للأدب على وجه الحياة . هذا السوء الذى يفت من عضد الروح ؛ هذا السوء الذى يحمل أسماء كثيرة بقدر ما نحب من أسماء(*) ، لا يمكن مكافحته بكمّادات التوافق أو بلبخة البلاغة والبيوطيقا .

إن هذه الرواية لا تتطلع – لأكثر أو أقل – وبكل تأكيد – من أن تكون قطعة من الحياة تقص خطوة فخطوة ، دون إسقاط شىء ، دون تراچيديا ، دون رحمة ، كما تجرى الحياة ، بالضبط كما تجرى الحياة ..

إن الرقيب الموضوعى الدقيق أمام عمل أدبى ليست فيه بلاغة ولا بيوطيقا مألوفه . فالقيم الأدبية فيه نادرة ، أما القيم التسجيلية فنادرة أيضاً ، فبالنسبة له التسجيلية الوحيدة هى تسجيل أمجاد

(*) يقصد به الواقع الإسبانى فى الأربعينات .

الزعيم چنرال الچنرالات ، أما تسجيل حياة عامة الناس فلا يخطر بباله أبدا انها قيم تسجيلية ، فهو يقول انها تحتوى على [صور قصيرة من الحياة «الحالية» ، شخوص الروابط بينهم واهية ، تقوم بينهم حوارات لا تطرح أى جدل أو قضية جادة فقط ، الجدل لإضاءة إنحرافات أو عيوب «حالية»] . وتلك قيم تسجيلية لا يدركها الرقيب ، كما أنه لا يدرك أنه يقدم خدمة جليلة لمؤلف الرواية.

إن ما يقوله «ثيلا» فى مقدمة الطبعة الأولى يجزم الرقيب بصحته . الرواية تقص (أثر) شعب مدريد بأسره ، والعلاقات بين كل أفراده واهية ، ولا يجرى فى مدريد الأربعينات شىء جاد بل لا ترى العيون إلا إنحرافات وعيوباً ، لم يصفها الكاتب قط بهذا الوصف . إنه يقدم الحياة بالضبط كما تجرى ، والقارىء (حتى لو كان الرقيب) لا يملك إلا أن يرى «هذا السوء» كما يقول ثيلا الذى يحتمل كل الأسماء ومن بينها التقييم الأخلاقى للرقيب الذى يعد إدانة منه لنفسه ولمن يمثلهم . إن مُثُل الرقيب (كممثل للنظام) الأدبية لم تعد تنتمى لمثُل زميله المغضوب عليه مولف رواية «خلية النحل» والتى طردته من جنة النظام الجحيمية إلى جحيم الإبداع الفردوسى ، والتناقض بين مثل الرقيب ورؤيته للرواية أوقعه فى لغة متناقضة التقرير يحمل إدانة النظام

والرواية ولا يمكن أن يعبر التفكير المحافظ عن نفسه إلا بلغة متناقضة المدلول أو بالأضداد (لو استعملنا المصطلح اللغوى العربى) .

كان ما مضى أحد فصول سيرة الرواية ، والروائى فى مجال هام من مجالات تولد العمل الأدبى فى بيئة يسيطر عليها القهر الذى قد يشارك فى صنعة القاهر والمقهور ، ومعطيات تاريخية تعطى القاهر كل الحق وتسلب المقهور حتى حق الصمت والاستسلام ، خلال حركة فى متتاليات سيمفونية التاريخ .

– ٢ –

من الطريف أن ثيلا ونجيب محفوظ بينهما أعوام مشتركة تقريباً فى بداية الطريق ونهايته ، وأول ظهور أدبى لثيلا كان فى الأعوام ١٩٣٥ – ١٩٣٦ ، تماماً مثل كاتبنا نجيب محفوظ ، وهذا نال نوبل ٨٨ والآخر ٨٩ . أى أنهما نال الجائزة بعد عمر كامل من الكتابة (أكثر من نصف قرن) .

وأول ظهور لمؤلف خلية النحل لم يكن ينبىء بما إنتهى إليه ، فقد عرف أول ما عرف بالشعر ، لكنه بعد ذلك لم يترك مجالاً للكتابة دون أن يطرقه ، فهو روائى وقصاص ، أيضاً مؤرخ

للتاريخ العام والأدبى ، لغوى كبير ، من كتاب الرحلة الممتازين ، فهو يفترض أننا شاركناه فى رحلته ، لكن فاتنا أن نرى أهم الأشياء ، فيأتى لنا بصور لها بديعة ، ولعل هذه الخصوصية عامة فى سلوكه الكتابتى والعلمى معاً ، فمثلاً يضع «المعجم السرى للغة الإسبانية» يهتم بالكلمات والعبارات المطاردة والمدانة قيمياً ، لكنها تمثل جانباً هاماً من حياة الناس وتاريخهم اللغوى والسلوكى . ويشجع تلامذته على إتباع نفس الطريق .

ومع هذه الخصوصية ، فهو إمتداد إبداعى للتراث الإسبانى . لم يخرق نواميس الطبيعة الوطنية ولا ينبغى له . إنها السبيل الوحيد نحو الأفق الإنسانى العام . إن الإستفادة بمنجزات السابقين – من بنى جلدته – فى إكتشاف إسبانيا «المتغيرة» ، هو فى النهاية إكتشاف القانون المتغير عند «الإنسان فى أى مكان» داخل خصوصية إسبانية تضع هذا الإنسان أمام منظور مختلف (لإختلاف ظروف التاريخ والمكان) ، أما عين القارىء التى تدرك أن للإنسان ألف وجه ووجه كلما اختلف المنظور ظهر أحد الوجوه . وهذا الإختلاف لا ينتهى إلى تميزات عنصرية ، إنما فقط هى وجه لإنسان واحد تختلف صورته مع سنوات العمر ، وتوالى الإنفعالات والمواقف .

إن رواية «خلية النحل» كما يؤكد نقاد ثيلا ليست إلا إمتداداً

لروايات الشطار بعد مرورها بين يدى أستاذه المباشر «بيوباروخا» ، وبعد مرور «ثيلا» ب «ثيلا» نفسه يجرب ويحفر مجرى طريقه ليحول مصب نهر الإبداع الروائى الإسبانى ويكتشف منابع جديدة له ، لقد كتب ثيلا ثلاث روايات قبل خلية النحل أولاها رواية تم نشرها بالعربية ، وهى «عائلة باسكوال دوارتى» . يولد الروائى بنشر هذه الرواية عام ١٩٤٢ .

هذه الروايات الثلاثة تصبح أهم روايات الأربعينات فى إسبانيا ويحاكيها الكتاب الاخرون لكنها فى رأى النقاد ليست إلا رواية واحدة تمثل المحاولة الأولى لكاتب ينتظر منه الكثير ، فهل يكتب الرواية الثانية ؟ إنهم يتنبأون بأن يفعل وينتظرون . ولعمرى ، فإن الموقف متكرر ، فكل مبتدىء يعرض إنتاجه يواجه بمثل هذا القول . هذا ظاهر الأمر لكن الحالة مختلفة هنا ، فالروايات الثلاثة ليست عملا مبتدئا بالمعنى المعتاد بدليل إحتلالها المركز الوحيد فى الأربعينات وصيرورتها مثلاً يحاكى . إن أعمال ثيلا الثلاث - كما يكرر النقاد - تكاد تقول شيئاً «عظيماً» ، لكنها لا تفعل ، إذن هذا الشىء موجود فعلاً عند الكاتب ، والنقد ينتظره .

بالضبط ما يحسه ثيلا ليس إلا تكراراً لقول النقاد ، إنه يكتب «خلية النحل» فى أسوأ ظروف ، لكنه لن ينتظر الظروف الطيبة

حتى يكتبها ما دام الشىء الذى يكتب موجوداً ، فقط ينقص القلم والورق ومائدة ، وقد حصل على ذلك ، إنى أتصور أن النقد قد دفع ثيلا إلى التفتيش عما ينتظره النقاد ، وقد وجده بالفعل بين الشك واليقين ، فمضى يكتب ويعيد النظر فيما يكتب مستمراً فى العمل من الفجر إلى الفجر حتى يثق مما وجد ، ولم يحدث قط أن حظى بهذه الثقة إلا بعد نشر الرواية .

وتلقى الرواية ترحيباً حاراً جماعياً لأسباب متعددة ، أحياناً تبدو وكأنها مجرد الاستطراف ، وأحياناً أخرى تتعقد تلك الأسباب وتتفلسف وتقدم الحجة تلو الحجة ، لكننا لا نرى هجوماً أو إنتقاصاً ، الإجماع على أنها أهم رواية إسبانية منذ الأربعينات حتى الستينات ، وأنها تقود خطى الرواية الأسبانية نحو مرحلة قادمة ، ثم بالضبط تعد أول رواية إسبانية حقيقية بعد الحرب الأهلية .. أى أنها جبّت ما قبلها حتى روايات ثيلا نفسه السابقة عليها .

ومن الأسباب التى تدخل فى باب الاستطراف عند من رحبوا بالرواية عدد الشخوص ، فالكاتب نفسه يتحدث عن علاقته بالمائة وستين شخصاً الذين يغلون – ولا يجرون – داخل الرواية خلال سنوات كتابتها الطويلة وكيف حملوه إلى طريق المرارة ، دون أن يدرى هل أصاب معهم أم أخطأ ، إن إشارة الكاتب إلى عدد

الشخوص فى مقدمة الطبعة الأولى أثار إنتباه النقاد والقراء معاً ، فتمادوا فى إحصاء الشخصيات واختلفوا ، فهناك من يقدم إحصاء أخر ، إنه الناقد خوسيه مانويل بونالد : ٢٩٠ شخصية أساسية ، وشخصيات ثانوية : ٩ شخصيات وهمية وخمسون شخصية حقيقية ، فيصير المجموع ٣٤٦ شخصية ، بل يمكن الحديث عن عشرات أخرى من الشخصيات وإن قلت أهميتها .

إن مجرد إحتواء عمل روائى على عدد بهذه الضخامة من الشخوص يعد أمراً غير مألوف لابد أن يلفت الأنظار ويثير الجدل ولا سيما أن كل إحصاء يخرج بعدد مخالف يزيد أو ينقص ، وهذا هو مربط الفرس والأمر الجاد الأول من وراء الاستطراف ، تعدد الإحصاءات يعنى أن الرواية قد ألغت تصوراً مطروحاً عمن هو شخصية روائية ، فكل إحصائية تعنى تصوراً جديداً مختلفاً لمفهوم الشخصية فى الرواية .

لقد أنقلبت الشخصيات فى الرواية لمجرد أدوات تقنية لحماية الوجود الواقعى لهذه الشخصيات من ماكياج البيوطيقا ومسوخها ولتحويل «الجمع» فى اللغة وفى الواقع إلى عمل أدبى يواجه «المفرد» فى اللغة وفى الواقع الذى سيطر على مسار القص فى كثير من الأعمال الأدبية . إنها محاولة لاستنقاذ جزء من الواقع فى معمار يضمن له الخلود ، ويشير إلى كل واقع

إنسانى يرى من نفس المنظور بالمفهوم الذى أوضحناه للمنظور منذ قليل .

أما الأسباب التى تتعقد وتتفلسف ، فهى الأسباب التى تصل دور الرواية بأدوار للرواية سابقة عليها ، وما قدمته من جديد ، ثم الإنجاز الفردى الذى يحققه العمل فى حد ذاته ، إن كاتب الرواية خبير بكل تراثه إلى حد القدرة على تجاوزه ، وهو خبير بواقعه إلى حد القدرة إلى تجاوز العجز عن التعبير عنه ، إى إمتلاكه تمهيداً للسيطرة عليه وتغييره ، والخبرة تساوى الوعى والقدرة على ممارسته ، وتجاوز التراث والواقع معاً هو إبداع أصيل . فى ظل هذين الوعيين تمادى النقاد فى تحليل العمل وتقييمه ، لكن أضيف إليهما وعى ثالث كان حصاده الرواية . إنه الوعى التجريبى الذى قد يحمل إلى أبعد الآفاق .

ومن هذه الأسباب التى تجمع بين الاستطراف والجدية تعدد الأصوات فى الرواية ؛ تقريباً بعدد الشخصيات ، إن ثراء اللهجات فى الرواية مستطرف ومدهش ، لكن كل صوت ليس إلا نغمة فى سيمفونية مضفرة الألحان تضفير اللهجات فى الواقع الحى ، إنها تقنية جادة لكنها طريقة مثيرة فى أحيان كثيرة للإبتسام . وسبب آخر يجمع بين الأمرين يكاد يكون أهم معالم الرواية : السخرية . والسخرية تصل آلى حد الإضحاك فى

أشـــد المواقف بؤساً . والكاتب لا يحاول إضحاكنا ، ولكن تلك هى الحياة .

- ٣ -

لقد تحدثنا عن سيرة الرواية : كيف ولدت وكيف واجهت الأخطار عند ميلادها ! ثم كيف تنبأ النقاد بولادتها وكيف جاءت مصداقاً لنبوءتهم ! لقد توافرت فى سيرتها كل عناصر البطولة للبطل الملحمى فى السيرة العربية الشعبية . فالبطل يولد مسبوقاً بنبوءة ثم يواجه أخطاراً حاسمة عند ميلاده ، كما تحدثنا عن سيرة كاتبها فيما يعنينا سواء على لسانه أو تطوعاً منا أو من النقاد الذين كتبوا عنه .

والآن جاء الدور للحديث عن خصائص الرواية ، فلا تكتمل سيرة البطل دون الحديث عن خصائصه التى هى من سمات البطولة من ناحية ، لكنها السمات التى ابتدعها واختلف فيها عمن يشاركونه البطولة .

لن أحاول أن أفسد على القارىء متعته بالدخول فى تفاصيل حول الرواية نفسها . ومن ثم سأقدم مفاتيح تعينه على قراءة أفضل للراوية فيما أعرضه من خصائص ، مستعيناً بما سبق

طرحه من معلومات فى البندين ١ ، ٢ من هذا التقرير السريع .

لقد تحدثنا عن عدد غفير من الشخوص فى الرواية . ونبدأ بأول عنصر نعتقد بأنه إضافة حقيقية لهذه الرواية فيما يتصل بالشخوص ، إن كل شخصية لها اسم . وقد استغل الكاتب هذه المساحة من الحرية المتاحة لكاتب يريد أن ينقل قطعة من الحياة إلى عالم الرواية ، أنه حر تماماً فى اختيار أسماء الشخوص ، لكنها ليست حرية مطلقة كما قد يخال القارىء . فهو لا يريد أن يرن الاسم رنيناً يخالف واقع الأسماء فى إسبانيا . إذن فهذا قيد أساسى . ومع ذلك فهو يرجو أن يرن الاسم رنيناً آخر يستثير القارىء داخل المألوف ، وهو أمر وارد فى الواقع بمحض الصدفة ، لكنه لا يرد فى الرواية إلا عن وعى تتمثل فيه هذه الحرية التقنية .

والهدف الأول من ذلك شحن الأسماء بالرمزية والتناقض ومعاونة القارىء على تصور الشخوص بأكبر قدر ممكن من الوضوح ، ثم إستخدام كل التقنيات الأدبية السابقة إستخداماً خاطفاً . ثم أخيراً السخرية على مستويات متعددة منها السخرية من الأسماء الإسبانية نفسها التى تحمل ألقابا وأمجاداً وتخلد أسم عائلات منقرضة لا وجود لها ، ثم فى أحيان أخرى ممارسة نفس السخرية بأسلوب مضاد بأن يجرد الشخصية من ألقابها ومن

اسمها الضخم ليختصر حقيقتها فى اسم لا معنى لـه على الإطلاق ، يستفيد الكاتب جداً من أن عدداً غفيراً من الأسماء الإسبانية هى أسماء لها معنى «موروث» يحقق تخليد أحد الأساليب فى إسبانيا ذات الجذور العربية .

* دونيا روزا صاحبة المقهى . روزا تعنى «وردة» وهى مثال للقبح والتضخم والترهل والجشع والالية كيف نجد وردة فى هذا الكائن القبيح .

* ماسح الأحذية اسمه «سيقوندو سيقورو اللبمبيا» وسيقوندو سيقورو تعنى «الثانى تأكيداً» ، والثانى صفة تضاف لأسماء الملوك ، فهو إذن ملك بلا إسم ولا مملكة . هذا أمر أكيد ، ولذا لو كان مثقفاً لقرأ لمفكر متعصب للملكية(*) . أما الشىء الأكيد أيضاً : أنه «الليمبيا» ، أى المنظف (للأحذية) .

* ثلستينو : صاحب البار تلميذ نيتشة والاسم معناه قواد !.

* الفلورنتينو دى مارى نوستروم : اسم لاتينى ضخم يقلل من ضخامته – وإن زاد فى إمتداده –– التصغير فى الاسم الأول ، ومعناه «المزدهر بحرناً» كل هذا الاسم لفنان

(*) حسب قول الكاتب فى الرواية .

مغمور فاشل يعيش بأوهام العمل فى مسرح كبير .

* فيكتوريا : وتعنى نصر . تتحرك نحو الهزيمة بقرار منها لا سبيل أمامها غيره .

هذه أمثلة سريعة لا تريد أن تفض سر الإستعمال الرمزى للأسماء كما أنها لا تبالغ لأن الترجمة لم تستطع أن تنقل الأسماء الإسبانية إلى العربية إلا بشكل مخفف حتى لا تفسد نكهة النص وحتى لا تعربه وتفقده إتصاله بالأصل ، وقد تم ذلك جزئياً فأحدهم لقبه «الغنام» وجدنا لا بأس من ترجمته والآخر اسمه الأول «ثالوث» والثالث اسمه قريب من عبد الله والرابع إبراهيم . سيجد القارىء بعض المعاونة فى ذلك لكن لن يصل إلى ما يمكن أن يصل إليه القارىء الإسبانى ؛ وهذا قدر الترجمة وقارئها .

والاستخدام الآخر للأسماء هو استخدام إيقاعى سحرى يغلّب الجملة الإسمية على الجملة الفعلية ، الرواية من فقرات قصيرة تصف «صوراً قصيرة» كما قال الرقيب ، وكل فقرة أشبه بجملة قصصية تقدم صورة لشخص أول ما يطل منه علينا اسمه ، فيحل إيقاع الاسم محل الصورة البصرية التى تتشكل تدريجياً حتى نهاية الفقرة . هكذا تصبح الإسماء حدوداً إيقاعية منتظمة بين الفقرات ، وعنصراً من عناصر وصف الشخصيات .

ولكن لكثرة الشخصيات وقلة تكرارية الأسماء ، فكثير من الأسماء يظهر مرة واحدة ويختفى ، والأغلب الأعم منها – لو شاء حظه أن يتكرر – يعود للإختفاء كلما تقدمت الفصول . إننا أمام عالم يتلاشى . فالأسماء تدعم عناصر التلاشى فى الرواية وهى عناصر تتعدد وتتراكم عمودياً حافرة مقبرة كبرى لسكان عالم الرواية .

ثم أخيراً رغم هذا التلاشى ، فإن الأسماء تشكل دائرة غير مستمرة حركة المحيط ، فكل اسم يحملنا لكل الأسماء الأخرى لكن فى بيروقراطية فلابد من المرور بأسماء مركزية جيئة وذهاباً حتى يتم رسم الدائرة ، وهى أيضاً دائرة للتلاشى ، فالاسم يحملنا إلى آخر وهذا إلى تاليه وهكذا (مع بعض الجيئة والذهاب) لكن الاسم بمجرد أداء هذه الوظيفة يختفى فى زحمة عالم الرواية .

* * *

والشخصيات قد تظهر مثل ثانى شخصية فى الرواية ، مجرد الاسم : «القس الأب نافاراتى ، والذى كان صديقاً للچنرال ميغيل بريمو دى ريفيرا توجه لزيارة الچنرال وركع بين يديه ، وخاطبه فى تضرع :چنرالى اعف عن ولدى محبة فى الله . دون ميغيل بريمو دى ريفيرا . رغم أنه يحمل قلباً من ذهب فقد أجابه

: أيها الصديق نافاراتى يستحيل على ذلك ، فلابد أن يتطهر ابنكم من أخطائه بأن يقرع بالعصا» .

لكن الكاتب بهذا قدم لنا لقطة من الحياة مليئة بالوقائع التى تحفل بها الحياة ، القس يركع بين يدى الچنرال ويتضرع ويخاطبه : چنرالى ، إن هذا أسلوب لا ينبغى أن يكون إلا بين يدى الله ، ثم كيف يكون للقس ابن ؟ لقد تمرد القسس الإسبان وبدأوا يتزوجون وينجبون وكأنهم طلقوا الزواج المقدس ، ثم أخيراً إن مثول القس بين يدى الچنرال فى هذه الواقعة الصغيرة من وقائع الحياة لا تحتاج صفة للقس تميزه عن أى قس سوى صداقته للچنرال ، وإن لم يكن الأمر كذلك لما استطاع الوصول للچنرال لأنه كان سيعاقب بجريرة ابنه ، ثم إن أى قس لا يصل إلى الچنرال ، أما الچنرال فيسعى لتطهير الابن وكأنه قس !

إن ظهور هذه الشخصية فى وصف المقهى فى مطلع الرواية تكاد تمثل حشواً لا معنى له فإن الأب نافاراتى ليس من رواد المقهى ، ولا نفهم مبرراً لإيراد هذه الفقرة الثالثة فى أول صفحة من الرواية إلا إذا فهمنا أنها ثرثرة تنطلق فى جو المقهى . وإذا أعدنا النظر فى قراءتها جيداً وجدنا الخصائص الأسلوبية للغة الثرثرة «وكان صديقاً للچنرال ميغيل بريمو دى ريفيرا . ذهب لزيارة الچنرال ..» . ويؤكد ذلك مطلع الفقرة التالية : «أى خلق

لله أولئك وأولئك – هكذا تفكر . . . دونيا روزا» .

فدونيا روزا تفكر وتعلق على ما تسمع فى المقهى أثناء مرورها بين الموائد . ثم يتأكد الأمر أكثر من أن الچنرال بريمو شخصية تاريخية فعلية من جبهة فرانكو ، ولا يستبعد أن يكون القس كذلك . فالمثرثرون باسمهما يعرفونهما ولا يحتاجون لذكرهما أكثر مما قيل ، ثم إن تفكير دونيا روزا يقدم اثنين من «أولئك» الأولى منهما لرواد المقهى والثانية لمن هم موضوع ثرثرتهم لغة بالغة الدقة وعلى مقاس كل ما يرد فى الرواية ويصبح اسم نافاراتى والچنرال بريمو دخاناً يعبق جو المقهى فى خيال المتلقى .

ما سبق هو الحد الأدنى لظهور الشخصية ، وفى هذه الحالة أمامنا نوع ثالث من الشخصيات – إذا أخذنا بالتقسيم الشائع للشخصيات بين رئيسية وثانوية – يمكن أن نطلق عليه الشخصيات الأثيرية ، أى التى يشار إليها دون أن تظهر بالفعل داخل مكان وزمان الرواية ، إنها الشخصيات التى تنطلق فيما يمكن أن نسميه أثير عالم الرواية كأصوات من فم الأشخاص الرئيسيين والثانويين . وهى متعددة فى هذه الرواية مثل باكيتا ابنة دونيا أسونثيون والتى نعرف عنها بعض المعلومات عن فم أمها وصديقة لهذه الأم : عجوزين شريرتين بمفهوم ما للشر ،

ومثل باكيتا نسمع من ماتيلدى صديقة الأم شيئاً عن الفلورنتينو دى مارى نوستروم ابنها . وأطرف الشخصيات الأثيرية هو بطل إحدى النكات الطويلة التى يحكيها دون روبرتو زوج فيلو (أخت مارتين ماركو) ، إنه الرجل السمين الذى قال له الرجل النحيف إن له رائحة البصل . . تطول النكتة فى درامية إلى حد الإنتهاء بالإنتحار.

أهمية الشخصيات الأثيرية الوظيفية داخل النص بالغة الأهمية – على الأقل من وجهة نظر الكاتب ؛ فهو يعاملها نفس معاملة الشخصيات الرئيسية ، أيضاً لا يفرق بين الشخصيات الرئيسية والثانوية . ومع ذلك تتعدد وظائف كل نوع ، فوظائف الشخصيات الأثيرية هى خلق جو حياة حقيقية (داخل عالم يريد أن ينزع عنه الكاتب ما لصق به من فانتازية وهو عالم الرواية) بجانب سلة من الوظائف العاطفية الآلية .

والظهور فى الحد الأدنى لا يقتصر على الشخصيات الأثيرية ، بل هو قدر غالبية الشخصيات الثانوية التى تشارك الشخصيات الرئيسية فى وظيفة لم شتات الجماهير التى غصت بها الرواية ، أما الظهور فى الحد الأعلى فانفردت به الشخصيات الرئيسية والتى تضيف للوظيفة المشتركة مع الشخصيات الثانوية وظيفة كبرى وهى لم شتات الزمان والمكان أى أنها مثل دودة القز

حركتها تصنع شرنقة اسمها الرواية ، مع العلم أن الشرنقة ليست هى دودة القز ولكنها حركتها الدورية الاتجاه المتخثرة والمتماسكة بسبب جفاف إفرازات تصاحب تلك الحركة .

وأكثر الشخصيات ظهوراً شخصيتان هما دونيا روزا (٢١مرة) ومارتين ماركو (٣١مرة) . ويتم تقديم هذه الشخصيات تدريجياً .

ودائماً يقدمها فى حركة : ونضرب مثلاً بدونيا روزا :

* دونيا روزا تذهب وتجىء بين موائد المقهى تاركة أردافها المهولة تتعثر بالزبائن . لا تتوقف عن النقيق قائلة : لقد طفح بنا الكيل . . . .

* دونيا روزا لها وجه ملىء بالبقع ، وفيما يبدو فإنها تغير جلدها مثل سحلية ، وعندما تقع فى تأملاتها ، تذهل عن وعيها فتستخرج من وجهها نشارة مثل شرائط مكرمشة من الكريشة ، ومن ثم تعود لوعيها فتتنزه مرة أخرى هنا وهناك مبتسمة عن أسنانها الصغيرة السوداء فى وجه الزبائن الذين تكن لهم الكراهية فى أعماقها .

* حدثت مشادة . . . عندئذ وضعت دونيا روزا عازف الفيولين فى الشارع .

* دونيا روزا يتدفق منها العرق فوق شاربها وجبهتها .

* تدق دونيا روزا عيونها الصغيرة الفأرية ، ظهرت عيون دونيا روزا الصغيرة من خلف الزجاج السميك مثل العيون اللامبالية لطائر محنط .

* ترج دونيا روزا كرشها وتعود من جديد . . . .

* رفعت دونيا روزا رأسها وتنفست بعمق . إهتزت شعيرات شاربها فى لمحة تحد ، لمحة غاضبة ، وقورة مثل لمحة قرنى الاستشعار «لفرقع لوز» عاشق وتياه .

* دونيا روزا تتكىء على مائدة وتبتسم .

– ماذا لديك من حواديت البيريتا .

لا يسعنا إيراد أمثله أكثر ، تستمر حركة دوينا روزا فى استمرارية للأمثلة السابقة على هيئة حوار لها مع غيرها أو تفكير بصوت منخفض .

ويناقض الحركة السابقة صور أخرى لدونيا روزا على لسان الآخرين ، وهى صور مثبتة ، فمن يصفها بأنها «دابة محتالة» أو «حيوان برمائى» قذر حدادى .

ومع الحركة نكتشف دونيا روزا تدريجياً ، ففى النصوص السابقة أول ما نرى أردافها المهولة وصوتها الشبيه بالنقيق ، ثم

نرى وجهها القبيح المقزز ثم نرى عنفها مع عازف الفيولين ثم نرى جبهتها وشاربها ثم عيونها الصغيرة ثم نرى شعيرات فى شاربها ثم كرشها ، الحركة تشكل صورة حسية لدونيا روزا ، أما الثبات فيشكل صورة نفسية وتتدعم هذه الصورة لكلماتها التى تطلقها فى حواراتها ، والصورتان الحسية المتحركة والنفسية الثابتة يتواقفان فى صنع صورة من الحياة . دونيا روزا بعد قراءة الرواية : قد تخوننا الذاكرة ونظنها إنساناً من لحم ودم قد رأيناه وتعاملنا معه فى جو مسمم الأثير عميق البؤس .

وما يمكن أن يقال عن مارتين ماركو يمكن ألا يخرج عما قلناه عن دونيا روزا ، وإن كانت صورته الحسية خلال الحركة دائماً مهزوزة بسبب إختلاطها بصورته النفسية ، لأنه تقريباً يكاد يهذى طول الوقت ويغيب عن الوعى داخلاً فى أعماق لا شعوره .

ويمكن تصور مارتين كبطل للعمل ودونيا روزا كبطل مقابل ، والسبب فى ذلك المبالغة النسبية فى رسم صورتين متقابلتين لهما فمارتين / دونيا روزا = (نحافة مفرطة / سمنة مفرطة ، فقر معدم / ثراء فاحش ، رجل عاطفى جداً / إمرأة باردة جداً) الشىء الوحيد المشترك بينهما هو الهذيان ، والسبب فى ذلك عند مارتين هو الفقر والجوع أكثر من المحتمل وبدون

سبب مفهوم ، أما عند دونيا روزا فهو الثراء والشبع أكثر من اللازم وبدون سبب مفهوم . أيضاً ثقافة الأول المحترمة تتحول إلى عقوبة قاسية وجهل الثانية إلى مكافأة بلا حدود .

والمبالغة تنقل الشخصيتين إلى وظيفة الرمز بجانب وظائفهما العلائقية فى ربط ونسج عالم الرواية . إن مارتين صورة لكل مثقف عاجز عن أصول اللعبة الحياتية فى مجتمع بائس يحكمه الجوع والجنس والتلاعب بالأسعار والفساد والقهر أى أنه مجتمع ينقسم إلى كائنات تسعى دون جدوى لتحقيق إحتياجاتها البيولوچية (أغلبية مطلقة) وكائنات أخرى تسعى للسلطة والمال ، ولا سبب نستطيع به شرح أو فهم هذا التقسيم الحاسم . إن دونيا روزا تمثل الطرف الثانى (السلطة والمال) ضمن أقلية مطلقة (داخل الرواية والواقع) .. وننوه قبل ختام حديثنا عن الشخصيات الرئيسية ، أن المبالغة فى حدود الممكن ولا تدخل فى الفانتازى ولا تجعل من مارتين أو دونيا روزا نماذج عليا ، فقط تضمنهما قيمة رمزية وظيفية داخل العمل الذى يتخلص فى دقة ووعى من البطولة الفردية فى العمل الروائى لتتحول بجدارة إلى بطولة جماعية للناس الذين يمكن أن يخرجوا من الرواية إلى الشارع فيعرفون إلى أين يتوجهون داخل المدينة الواسعة ، إو أن يدخلوا من الشارع إلى الرواية فيتحولون إلى سطور تتفرق على

أجزائها أسرع من حركة ظهور السطور على شاشة الكمبيوتر ، فالوظيفة الرمزية لا تدخل الشخوص في أنماط وإنما فى معترك الحياة داخل أحد جانبيها : جانب الفقر بدرجاته ، وبمدى تحمل كل إنسان للدرجة التى ألبسها له الواقع ، ثم جانب الغنى (والسلطة) بدرجاته ومدى التصرف بالثروة نحو زيادتها أو حتى تبديدها .

وبين الشخصيات الأثيرية (والتى هكذا أسميناها) والشخصيات الرئيسية تتعدد طرق تقديم الشخصيات الثانوية لكنها تتراوح ما بين الأسلوبين .

فمثلاً الآنسة البيرا يتم تقديمها بالتدريج :

* آنسة تقترب من الشيخوخة تنادى على بائع السجائر .

– باديا .

– حاضر يا آنسة البيرا .

– علبة تريتون [نوع رخيص جداً من السجائر) .

المرأة تفتش بالحاح في حقيبتها المليئة بخطابات عتيقة رقيقة وخارجة عن الشرف . ثم تضع على المائدة خمسة وثلاثين سنتاً .

– شكراً .

- لك الشكر يا آنسة.

تشعل سيجارة وتنفث حزمة طويلة من الدخان مع نظرة تائهة . وبعد وهلة قصيرة تعود الآنسة للنداء .

- باديا .

- حاضر يا آنسة .

- ماذا قال لك .

- لا شىء . لم يكن بالبيت . وطمأنتنى الخادمة بأنها ستسلمه الرسالة عند العشاء دون تقصير .

تصمت الآنسة البيرا وتواصل التدخين . اليوم لم يكن الجو معتدلاً . وتشعر بقشعريرة وتلاحظ أن كل جزء فيها تراه يرقص منها شيئاً فشيئاً . الآنسة البيرا تحيا حياة ضالة . حياة - مع التروى فى النظر إليها - لاتساوى حتى أن تعاش ، لاتصنع شيئاً ، هذا حق ، لكن - ولأنها لا تصنع شيئاً - فإنها حتى الطعام لاتتناوله . تقرأ روايات ، تذهب إلى المقهى . وتدخن علبة سجائر تريتون بعد أخرى وتمضى الأمور كما تقع - والحقيقة أن كل مايقع اعتاد أن يكون أعياداً للموتى . ومن أجل هذا كان دائماً تعيساً ومسوداً ومعيباً .

* تتأخر الآنسة البيرا بعض الهنيهات قبل أن تجيب .

– ياله من شاب مسكين ! على الأرجح أنه لم يأكل طوال اليوم يا دونيا روزا .

– أنت الأخرى تعزفين على وتر الرومانسية .

البيريتا لا تعرف كيف تجيب . المسكينة ألقى بها إلى الحياة حتى لا تموت من الجوع ، على الأقل ، بأسرع من اللازم .

* * *

هذا النص الأخير عن البيرا يستمر مقدماً فيه الكاتب سيرة حياتها فى سطور قليلة . هكذا يفعل مع معظم الشخصيات . لكنها سيرة مركزة ورغم سياقها القصصى إلا أنها لقطات كاميرا تطوف بالماضى بسرعة خارقة لرسم الخطوط التى نراها الآن من جديد فى خيال القارىء ، فمؤلف الرواية يحتفل بالقارىء ويتوجه إليه في كل حركة وسكنة فى الرواية . فهو يعمد إلى اللحظة الراهنة فنراها تحدث ، أى نراها حياة . ويكثر الكاتب من أسلوب السيرة الحياتية للشخص بالنسبة للأشخاص الذين لا يظهرون أكثر من ثلاث مرات (٤٩ شخصية) . كذلك يكثر هذا مع الأشخاص الذين يظهرون حوالى خمس مرات على الأقل (٢٧ شخصية) . أما الذين يظهرون أكثر من ذلك فأمامه فرصة لتقديم هذه السيرة بأسلوب التدريج (أعداد الشخوص هنا

حسب إحصاء لويس أركير فى كتابه : الشخصية والبنية القصصية فى خلية النحل ، وهو يتجاهل الشخصيات الأثيرية والعابرة فيقدم الأعداد الآتية فى كل فصل حسب توالى الفصول الستة ٢٨ ، ١٧ ، ٢١ ، ١٠ ، ١٣ ، ٣ ، ١ . فالمجموع إذن ٩٣ شخصية ولا يظهر فى الخاتمة سوى شخصية جديدة واحدة هو حارس مقبرة يجلس فى مدخل المقبرة) .

* * *

وطبقاً لإحصاء أركير فظهور شخصيات جديدة يتناقص تدريجياٍ مثلما يحدث فى الحياة التى تمضى فى تعثرها أو إنطلاقها مظهرة أسماء ومخفية أخرى لكن ما تخفى كان أعظم .

* * *

ومغزى ظهور الأشخاص فى حركة هو لإتاحة نقل الحياة من الواقع إلى كلمات الرواية ولإتاحة الفرصة لإختفائها فالأجسام المتحركة تبعد عن أنظارنا حتى لا نراها رغم وجودها فى مكان ما ولو كان اسماً على شاهد مقبرة فى مقبرة حقيقية أو فى مقبرة الحياة بشوارع المدينة وأماكن الوجود فيها الخاصة (بيوت الناس) أو العامة (محل عمل أو مقهى أو غيره) ، فنحن نجد رخام الموائد فى مقهى دونيا روزا وقد سجلت فى أسفله أسماء

الموتى فهو منتزع من المقابر إلى الموائد . إنها حياة تلتهم كل شيء حتى الموت والموتى .

وكون الشخوص تحاول أن تخلق مظاهرة من البشر داخل الرواية ، فإن المظاهرة ليست تجمعاً فى إلتحام مظاهرة فى أحد شوارع المدينة ، وإنما هى مظاهرة يحدث فيها التجمع لهؤلاء البشر عبر « نظّارة » يمنحها الراوى للقارىء ، فيرى المدينة كلها تقريباً ، ويرى الناس جميعاً : كلاً منهم يفعل شيئاً ما . وبالتالى فكما اختفت البطولة الفردية فى الرواية ، وإنتقلت إلى البطولة الجماعية ، أيضاً اختفت الأحداث الفردية بمفهومها الذاتى وانتقلت إلى وقائع جماعية ، لقد أصبحت الشخصية واقعة ما تصدر من فلان ما فى لحظة ما مثلما يمكن أن تصدر من أى فلان فى نفس اللحظة لكن فى مكان آخر. فحركة الأشخاص مليئة بوقائع تصدر منهم أو غيرهم . لا أحداث كبرى ولا حدث مستمر طوال الرواية بل لا سياق سوى حدث هام واحد موجود فى الرواية وفى خارجها ، إنه حدث الحياة والموت . تكرار وسأم يستسلم لهما الجميع فى حزن لم يعودوا يشعرون به . كل ذلك داخل حاضر تاريخى راهن ومحدد .

هذا الحدث الكبير مغطى بسياق ماهر خفى يدفعنا بحكم العادة فى الإستمرار فى القراءة لنعرف ماذا حدث بعد ، وماذا

يمكن أن يحدث لفلان أو علان من أفراد الرواية ، فلا تقع على شيء من ذلك .

توقعاتنا تتراكم وتتجدد لكن كل شيء يترك معلقاً لأن لاشيء يحدث غير وقائع الحياة والموت ، إنهما عالم واحد هو عالم مدريد أو إسبانيا ذلك العصر : عالم لا يحدث فيه شيء وإذا كان لاشيء يحدث ، فلم نقرأ الرواية ؟ هذا هو السؤال الظاهر والذى يخفى سؤالاً آخر أوضح من شمس الظهيرة فى خفائه : فلم نعيش ؟ هل هناك إجابة للسؤال الأخير ؟ لا بأس أن توجد أو لا توجد ، فالسأم يلتهم الإجابات والرواية تمضى نحو خاتمتها ، وكذلك الحياة . ويسأل سائل : فماذا تحقق الرواية من مغزى جمالى . إنه مغزى كبير : أن ترى الحياة والموت ، كلَّ الحياة والموت فى لحظة راهنة من التاريخ فى مكان ما يمكن أن تتكرر فى أى مكان آخر .

* * *

وإذا رأينا الحياة والموت : ياللعار ويا للسخرية ! لاشيء أكثر أو أقل

أغنيتان يتم أداؤهما بألحان مختلفة : الحالة الأولى : « البيريتا .. المسكينة ألقى بها إلى الحياة حتى لاتموت من الجوع ،

على الأقل ، بأسرع من اللازم .. » والحالة الثانية : « بالنسبة لهذه الشمطاء الساحرة الشريرة (دونيا روزا) ، كل ما يهمها أن يحفر لها نهر من النقود ..» . كان هذا رأى الأولى نحو الثانية ، أما الحالة الثانية فرأيها أن كل أفراد الحالة الأولى أوغاد يريدون سرقتها حتى زبائن المقهى ، فكم تكرههم جميعاً . ودائماً بين الحالتين مراسيل أو حالات ترقص على السلم . مثل « دون خايمى » أمين أكثر ما تكون الأمانة . رجل شريف وسيىء الحظ وله قدم نحس فى كل ما يرتبط بالنقود . شديد الإجتهاد : لا ، للحق ليس كذلك . لكن أيضاً لم يملك شيئاً من الحظ . آخرون من علية الصعاليك (ربما أكثر منه صعلكة) بضربتين للحظ راحوا ببضعة آلاف من الدورات ، ودفعوا كمبيالاتهم ، وها هم أولاء يسعون هناك مدخنين أجود السجائر ، وطوال اليوم فى تاكسى يتحركون . لم يحدث هذا لدون خايمى أرثى . لقد حدث له العكس تماماً . والآن يسعى إلى مصير يستقر عليه ولا مصير - إنه مستعد لأن يلقى بنفسه فى أى عمل ، الأول الذى يخرج له ، لكن لم يخرج له شىء ذو بال . ويمضى الوقت فى المقهى والرأس مستند على مسند الكرسى ناظراً إلى الديكور المذهب للسقف . وأحياناً كان يغنى بصوت خفيض مقطوعة أو أخرى من أوبريتات الثارثويلا ، بينما يحافظ على إيقاع الغناء بدقات القدم .

لم يتعود دون خايمى التفكير فى تعاسته ، وفى الواقع ، لم يتعود التفكير فى أى شىء ، كان ينظر فى المرايا ويقول لنفسه : من اخترع المرايا ؟ ومن ثم يعيد النظر نحو أى شخص كان ، فى تحديق يكاد يجانب الحياء : هل لهذه المرأة أبناء ؟ لربما كانت عجوزاً عاقراً . كم حالة سل من المحتمل أن توجد بهذة القهوة ؟ دون خايمى يبرم سيجارة أو قطعة قش ويشعلها . هناك من هو فنان يبرى الأقلام حتى يستخرج لها سنا نافذاً مثل ابرة ، دون أن تتعرض تلك السن للتلف بين يديه ، كم هو غامض ذلك السر! تس ، تس ، تس ، تس ، تس ، سعال دائم نهاراً وليلاً ، شتاءً وصيفاً : القلب ! » .

* * *

إن هذه (الشخوص / الوقائع) لم تحرم الشخوص من تميزها رغم وجود الشىء المشترك بينها والذى يرتبط بالحاضر التاريخى ، ومن بين هذا المشترك أنها نقاط مرجعية تتساوق وتتحايث كأمر لا مناص منه أمام كاتب له تراث طويل فى قص يسعى لإحلال البطولة الجماعية فى الرواية محل البطولة الفردية . وهو يضطر أن ينمى بعض هذه النقاط أكثر من الأخرى إلتزاماً فرضته ضرورة أخرى وهى الزمن المحدود : (٢٤) ساعة وشطر يوم يسبقها ثم شطر يوم يلحقها ، والمكان

المحدود : بؤرة أساسية هى مقهى دونيا روزا مع بعض البؤر الأخرى مثل بار ثلستينو وما حوله من شوارع تؤدى إلى مطبعة المستقبل وشارع الخشب فى مدريد الشاسعة . فهناك إذن – إذا صح التعبير – جدل مستمر بين (الشخوص / الوقائع) المنماة خاصة وبين الفراغ الزماني والمكانى . وهذا الجدل يؤدى إلى ثالث جديد هو فصول الرواية الستة والخاتمة . إن فصول الرواية (السبعة إذا اعتبرنا الخاتمة فصلاً) تختصر الزمان وتتسع بالمكان و (الشخوص / الوقائع) تختصر المكان وتتسع بالزمان . إن هذه اللعبة الفنية المعقدة أدت إلى تحول كل فصل إلى لحظة . لأن الكاتب يطارد الشخوص طوال الفصل فى حركتهم (الوقائع) فى لحظة محددة . ولكن كثرة الوقائع (حركة الشخوص) خلال تلك اللحظة المحددة يجعلنا نشعر بأن اللحظة لا تريد أن تنتهى ، فتتسع اللحظة سيكولوچياً عند القارىء ، ومع ذلك فكل واقعة بل وعدد كبير منها فى مكان (بؤرة) فيضيق المكان .

تتحول الـ (٢٤ ساعة) بلواحقها – إذن – إلى سبع لحظات . منتهى الضيق للزمان ، لكننا رأينا الحياة فى مدريد كلها أو ربما فى إسبانيا كلها فيتسع المكان أيمّا إتساع ، تقنية بارعة أمسك الكاتب بخيوطها فصنع حدثا روائياً هائلاً لم يظهر فى سواد كلمات الرواية قط ، وإنما هو الحياة والموت يتصوران فى خفقان وقوة وبشكل ملموس فى ذهن القارىء – إننا أمام عمل بالغ

الكمال لأنه بالغ النقص . ولا يتحقق كماله إلا بنقصه على متن صفحات الرواية يكتمل ويتلاشى بعملية خلاقة يحفز إليها القارىء . لقد اختفى الراوى الواعظ وحل محله الفنان الذى يتحول داخل العمل (وليس خارجه طبقاً لنظرية المعادل الموضوعى لا لبوت) إلى عامل كيماوى مساعد يحفز التفاعل الخلاق بين العمل الناقص وبين خيال القارىء المكمل للنقص .

* * *

ومادام القارىء يقوم بالدور الرئيسى فى العمل ، فإنه لابد أن يقوم به فى شىء غير قليل من الحزن البهيج . إن حياة مدريد فى الأربعينات محزنة ، لكنها الحياة على أية حال . والكاتب عليه أن يصورها بكاميرا بارعة قادرة على التركيز وإنتقاء العينات الممثلة بدقة للبانوراما الكلية ولقطات الكاميرا تنقل الحياة بوقائعها . ووقائع الحياة ليست طبيعة ميتة أو حية ، ولكنها الإنسان ! والإنسان عندما يفعل اللافعل ، أى تصاب حركته بالعقم وتفقد الهدف فى طرق ضالة يصير منبعاً لا ينضب من السخرية ، ولو استطاعت الكاميرا (هى الكاتب فى هذه الحالة) أن تضحك لضحكت ملء فمها مما ترى حتى لو إمتلأ قلبها بالحزن ، هذا ما يتدفق طوال الوقت فى الرواية : السخرية تطرحها الحياة والقارىء يضحك ملء قلبه حزناً إننا قلما نعثر فى الأدب

العالمى على عمل يموج بالسخرية العميقة مثل هذا العمل . كل سطر مشحون بها كما شحنت بها الحياة بالضبط . ربما أقل قليلاً فى الرواية عما يحدث فى الحياة لكن التوازن سيحدث عبر القارىء بين الرواية التى تختفى تدريجياً وبين الحياة التى تنتصب فى خياله تدريجياً أيضاً لكن ، كلما كبرت صورة الحياة عند القارىء اقتربت الرواية من النهاية . قد ننسى أسماء ووقائع لكننا لن ننسى ما أنشأنا فى أنفسنا من صورة شاملة لتلك الحياة التى أقمناها من داخل الرواية .

إذا بحثنا عن هذه السخرية الفكهة التى ستغمر القارىء بالبهجة ، التى تحول حزنه إلى حزن جمالى نبيل (الحزن البهيج) ، سنجدها فى كل مكان وزمان من عالم الرواية المسطور . إن الرواية تبدأ بالسخرية من نفسها بشكل ما . فهى تسخر من أدب الأربعينات الإسبانى الغارق فى مشاكل الفن للفن والحداثة مولياً ظهره للحياة . إن مارتين ماركو عندما يعلن أنه لازال يقول الشعر يشعر بخجل . وصورة الشاعر فى مقهى دونيا روزا بل وشعره ومعاناته مشكلة كبرى حول عنوان القصيدة (التى تشبه نكتة) هل تكون : المصير أو مصير . إنه يموت من الجوع والسأم مثل جميع أهل بلده وتشغله مسألة يجعلها كونية : المصير أو مصير . إن السخرية من أدب العصر

دعوة من الكاتب أن يعطى الأدب نفسه للحياة فتعطيه نفسها بدلاً من الدوران فى الصراعات المذهبية الأدبية .

هناك مصدر آخر أشرنا إليه من قبل هو أسماء الأشخاص ونفس الأمر على أسماء الأشياء فمصلح ، الأحذية يطلق اسم « العيادة » على ورشته . وصاحب المكتبة يسميها « غذِ روحك يا سيد » . ومصدر ثالث معتقدات أشخاصه : ثلستينو تابع نيتشه يحلم حلماً من أحلام القوة ويرى نفسه سوبرمان وفى « عز » الحلم تفاجئه الضرورة فتنفض الحرب العظمى ليضع نفسه فوق القصرية . يردد ثلستينو عبارات نيتشه على مسمع من حرس الشرطة فيقول «السعادة تعطينا .. الهواء والنور وحرية الإنطلاق فيضحك الحرس فى قهقهة» .

– وماء الشرب .

– وتدفئة مركزية .

التناقضات الهائلة داخل مارتين ماركو التى تجعله يهذى نافضاً عن هذه التناقضات مثل تصوراته حول محل أدوات صحيه حتى أنه انتهى به الأمر أن يرتب مكتبة لكبار الشعراء (المتناقضين) على التندة خلف قصرية الحمام . ومثل خوفه ممن يتعرفون عليه من أصدقاء قدامى أو غيرهم خشية أن

يضحكوا عليه .

ومن المصادر التى لا تحصى وصم شخوص الرواية جميعاً بالحيوانات أو « حيونة الإنسان » ، ثم إن الحيوانات التى تقوم بأدوار مخجلة تجعل وجوه العذارى تتضرج بالدماء حتى إن إحدى السيدات خوفاً على بناتها بعد أن كبرن فى السن تريد أن تقدم بلاغاً للشرطة ضد ببغاء الجيران .

الوقائع نفسها فى كثير من الأحيان تنفث سموم السخرية من بؤس ذلك الكائن الذى اسمه الإنسان ، نحو الحوار بين سيدتين تؤمنان بمعجزات أحد القساوسة ، ويقمن بإدخال الصينيين فى المسيحية ، ويتخيلن المصير المحزن لأبنائهن لو ولدوا فى الصين ! دخول النار مثل مئات الملايين من أهل الصين البؤساء الذين سيدخلون النار .

* * *

السخرية تقودنا إلى اللغة المحكمة إلى حد يثير الدهشة . إن الكلمات والعبارات والجمل عنده لا يمكن أن تكون قد صدرت عن كاتب واحد . إن تعدد الأصوات عنده كاد يوازى تعددها الحقيقى فى الحياة . إن كل شخص داخل الرواية يتحدث بنفس اللغة (المهنية والحياتية) التى يستخدمها نظيره فى الواقع . إن عمل

ثيلا كعالم لغة ورحالة ومؤلف المعاجم السرية قد أعانه على تحقيق هذا الإنجاز النادر، الذى تكتمل ندرته بدقة وجود كل صوت داخل ما يمكن أن نسميه السياق اللغـوى الأدبى فى الرواية ، بمعنى أن القارئ غير المدقق لن يحس بتعدد الأصوات . فقط سيحس بألفتها ، وبأن الشحص الذى يتكلم ما كان يمكنه أن يتكلم بلغة أخرى ، هل يمكن أن نستخدم هنا مصطلحاً بلاغيا عربياً قديماً وهو مصطلح « حسن التخلص » . أظن أنه أفضل المصطلحات لإيضاح هذه الحالة اللغوية بعد تعديل قليل فى مفهوم المصطلح بنقله من مجال الشعر العربى إلى مجال الرواية فيصبح « حسن إنتقال الكاتب الروائى من صوت إلى صوت مما يؤدى إلى إدماج الأصوات فى سياق صوتى ونحوى ودلالى نامٍ للرواية ، دون أن يفقدكل صوت هويته ودون أن يؤدى إلى هلهلة البنية اللغوية للرواية وتنافرها ، وإفقاد القارئ إحساسه بإستمرار تدفقها .

* * *

بقيت كلمة أخيرة هى أن ظهور هذه الرواية فى الأرچنتين كان من حسن حظ « الروائيين » الجنوب أمريكيين ، لقد تحولت إلى مدرسة ، حتى أننى أرى تأثيرها الكبير فى روايات هذه القارة القصاصة . لقد سبق لى ترجمة رواية مائة عام من العزلة ، وهى

ابنة شرعية ، بمفهوم ما للبنوة الأدبية الخلاقة – لرواية خلية النحل . وكما انتقل ثيلا بأدب بيو باروخا أستاذه المعلم دون جدال إلى مرحلة جديدة ، فكذلك فعل ماركيز فى روايته « مائة عام من العزلة » لقد نقل ثيلا إلى مرحلة أبعد كثيراً ، ولكنه هدم « خلية النحل » وصنع من حطامها رواية « عمدة » أخرى تعد أهم عمل بالإسبانية يظهر بعد « خلية النحل » . ما بين ١٩٥١ (ظهور رواية ثيلا) و ١٩٦٧ (ظهور رواية ماركيز) قفز الفن الروائى الاسبانى إلى قمة لازال يتربع فوقها . فالرواية بين يدى القارئ علامة فى الأدب الاسبانى والعالمى فى أن ، وتستحق قراءة خلاقة لأنها بدأت عملاً لا يكمله إلا قارئ جاد مثل العمل نفسه .

* * *

خليـــة النحـــل

تأليف : كاميلو خوسيه ثيلا
« الحائز على جائزة نوبل للأدب لعام ١٩٨٩»
ترجمة : د. سليمان العطار

الفصل الأول

علينـا ألا نفقد زاوية النـظر ، لقد سئمت من تكرار ذلك القول . انه الشئ الوحيد الذى يستحق الاهتمام .

« دونيا روزا » تذهب وتجئ بين موائد المقهى تاركة اردافها المهولة تتعثر بالزسبائن . لا تتوقف عن النقيق قائلة : « لقد طفح بنا الكيل ! ما أجمل الحياة ! » . بالنسبة لدونيا روزا العالم هو مقهاها ، وما حول مقهاها هو كل ما هنالك . ثمة من يقول ان العيون الضيقة لدونيا روزا تلمع عندما يأتى الربيع ، وتبدأ الصبايا فى الخروج بثيابهن القصيرة والسافرة . وبالنسبة لى شخصيا فأنا اعتقد ان كل ذلك مجرد كلام فارغ إن دونيا روزا ما كانت لتطلق سراح فلس واحد من فضة من اجل عيون اى شئ فى هذا العالم . لا فى الربيع . ولا فى غير الربيع ، فهى تهوى فحسب جمع القطع النقدية من بين الموائد دون تفريط أو تراخ . اما إذا اختلت بنفسها . فهى تدخن سجائر « التسعين » . وتحتسى مشروب الأوخين [1] ، وذلك منذ استيقاظها حتى يحين رقادها . ثم تسعل وتبتسم ، وعندما يصفو منها المزاج تجلس فى

---

(١) سجائر التسعين نوع من التبغ تباع منه العلبة بتسعين سنتا أسبانيا . وقد حمل اسمه من ثمنه الرخيص ، اما الاوخين فهو كوكتيل من سكر مذاب فى مشروب كحولى قوى (أقواردينتى) مع مشروب أخر حلو وضعيف هو الانيس . وقد ساد نلك التبغ ومعه المسروب شعبيا قبل الحرب الأهلية الاسبانية .

المطبخ ، وتقرأ روايات وقصص المغامرات ، التى تكون أفضل كلما كانت دموية ، وفى كل غذاء . ومن ثم تهوى مداعبة الآخرين بأن تقص عليهم بعض الجرائم مثل جريمة شارع الطرازين أو جريمة قطار الاندلس السريع(١) .

القس الاب دى نافاراتى ، والذى كان صديقا للچنرال ميغيل بريمو دى ريفيرا (٢) ، توجه لزيارة الچنرال ، وركع بين يديه ، وخاطبه فى تضرع جنرالى : أعف عن ولدى محبة فى الله . دون ميغيل بريمو دى ريفيرا ، رغم انه يحمل قلبا من ذهب ، فقد اجابه :أيها الصديق نافاراتى يستحيل على ذلك ، فلا بد ان يتطهر ابنكم من أخطائه بأن يقرع بالعصا .

أى خلق الله أولئك ، وأولئك – هكذا تفكر – لابد من امتلاك كليتين . دونيا روزا لها وجه ملئ بالبقع ، وفيما يبدو فانها تغير جلدها وكأنها سحلية . وعندما تقع فى تأملاتها ، تذهل عن وعيها فتستخرج من وجهها نشارة مثل شرائط مكرمشة من

---

(١) الجريمة الاولى لم تحدث إلا فى فيلم سينمائى اسبانى عنوانه « جريمة شارع الطرازين » ، والثانية عبارة عن حادث سطو دموى على القطار المذكور عام ١٩٢٤ .

(٢) شخصية تاريخية ، تولى مهام عسكرية فى جبهة فرانكو منذ انقلابه على الجمهورية عام ١٩٢٤ .

الكريشة . ومن ثم ، تعود لوعيها فتتنزه مرة أخرى هنا وهناك مبتسمة – عن اسنانها الصغيرة السوداء فى وجه الزبائن ، الذين تكن لهم كل الكراهية فى أعماقها .

دون ليوناردو ميلندس مدين بستة آلاف دورو [١] ، أخذها من سيفوندو سيقورو الليمبيا . الليمبيا ، عبارة عن « أبو قردان » بل هو اشبه بكركى راكيت شديد التحمل . لقد ادخر خلال اكداس من الاعوام تلك الاموال . فقط كى يقرضها لدون ليوناردو وهذا يُحْسِن استخدام ما يتعثر به من اموال . دون ليوناردو رجل « يلعب بالبيضة والحجر » ، ويعيش من مال غيره ، ومن تخطيط مشاريع لا تخرج بعد تخطيطها أبدا الى النور . وليس ذلك لفشل فى التخطيط ، بل وببساطة لا تخرج ، لا فاشلة ولا ناجحة . دون ليوناردو .. يربط عنقه « بكرافتات » براقة فى اناقتها ويصفف شعره « بفازلين » . انه « فازلين » معطر جدا يطير اريجه على البعد معبقا الآنوف س. له هيئة رجل عظيم وفى سمته سكينة هائلة ، انها سكينة الرجل الذى خبر الحياة كثيرا . وبالنسبة لى – فيما أرى – أنه لم يخبر الحياة كثيرا أو قليلا ، ولكن سكناته ولمحاته توحى بهيئة رجل لم تعوزه حافظة نقوده قط الى نقود ، فهو فى وقار الأسد لان جيبه لا يخلو . وفيما

---

(١) الدورو قطعة نقدية معدنية اسبانية تساوى خمس بيزيتات .

يتعلق بدائنيه ، فلا يعطيهم الا « بالشلوت » والدائنون خلال ذلك يبتسمون. ويرمقونه فى تقدير ، على الاقل ، هذا هو ظاهرهم .

لم يعدم وجود من يفكر فى مقاضاته وتقديمه للمحاكمة . وتوريطه فى شر أعماله ، لكن الذى حدث أن احدا لم يفتح النار حتى هذه اللحظة . اما دون ليوناردو فكل غرامه ان يردد شيئين : بضع كليمات بالفرنسية مثل : caravata , rue , Madame (سيدة ، شارع ، رباط عنق) ، ثم التشدق بقوله : نحن آل ميلندس ، فدون ليوناردو رجل مثقف ، رجل تلحظ فيه معرفة اشياء كثيرة . وهو يلعب يوميا « عشرتين كوتشينه » ، ولا يشرب ابدا أكثر من القهوة بالحليب ، واولئك الجالسون على الموائد القريبة من مائدته ، والذين يراهم يدخنون السجائر الغالية غير السوداء ، يقول لأحدهم فى رقة متناهية : هل لك ان تمنحنى ورقة لف سجائر ؟ فكم ارغب فى لف سيجارة من تبغى الأسود ولكننى اجدنى بغير ورق لف ! عندئذ يثق الآخر فيما يسمع : لا ، لا تتعب نفسك ، اذا احببت أن تدخن سيجارة ماكينة... دون ليوناردو يحرك رأسه حركة غامضة ، وينتظر ثوانى قبل ان يجيب : لا بأس ندخن سجائر غير سوداء للتنويع ، فانا لا يعجبنى كثيرا – وارجو أن تصدقنى – التبغ الذى تعد منه

السجائر غير السوداء . احيانا يستدير له الآخر ويقول له كلمتين لا أكثر : لا ، ورق لف ؟ ليس لدى ، آسف لعدم اجابة طلبكم ... ، ومن ثم ، يبقى دون ليوناردو دون تدخين .

متكئون على الذى شاخ من رخام غال للموائد ، ذات الرِّجْل الواحدة ، يرى الزبائن المالكة تمر دون ان ينظروا اليها ، فهم فى ذلك الحين سارحون فى تهويم غامض فى هذه الدنيا ، أف لها ، فلم تكن ما كان من الممكن أن تكون عليه .. فى هذه الدنيا التى مضى كل امر فيها الى الفشل شيئا فشيئا ، دون ان يملك احد لذلك تفسيراً ، ... لعله سبب بالغ التفاهة . كثير من رخام الموائد كان شواهد قبور ، وعلى بعضه تبقى كتابة الشواهد حتى ان الأعمى يستطيع القراءة متحسساً بأطراف أصابعه الجانب الأسفل : هنا ترقد رفات الآنسة « أمل مستدير » ماتت فى زهرة الشباب ، وربما يمكن قراءة : ر. ى. ب. فخامة سنيور دون « راميرو لويس قنطرة » نائب وزير التنمية .

زبائن القهوة أناس يعتقدون ان الاشياء تمر ، لانه هكذا كان ، لا جدوى من مداواة اى شئ ، وفيما يخص دونيا روزا من دنيا ، الجميع يدخنون ، والاكثرية يتأملون فى تلك الاشياء المسكينة الرقيقة الحميمة ، التى تملأ أو تفرغ حياتهم بكاملها . وهناك من يلون صمته بهيئة الحلم حول تذكارات متلاشية

الصورة ، وهناك ايضا من يجتر الذكرى بوجه عابس ، وفى ذلك الوجه المطلى لمحات الخراب الوحشى لدابة متعبة ، مليئة بالتوسلات ، اليد تمسك بالجبهة ، والنظرة مفعمة بالمرارة مثل بحر تمت تهدئته .

وتجئ امسيات تموت فيها الاحاديث من مائدة الى مائدة ، تلك الاحاديث حول قطط فى المخاض ، أو حول بطاقات التموين ، او حول ذلك الطفل الميت - الذى لا يتذكره احد .. حول ذلك الطفل الميت الذى ، الا تتذكر حضرتك ؟ كانت شعيرات رأسه شقراء ، وكان شديد الظرف أو بالاحرى رشيقا فى نحافته ، يرتدى - كان - دائما « شرز » مشغول ، لونه « بيج » وكان يحمل هيئة الخامسة من العمر . فى تلك الامسيات يدق قلب المقهى كقلب مريض فقد الايقاع ، ويصير الهواء كما لو كان كثيفا واكثر رمادية ، مع أنه بين الفينة والفينة كانت تعبره مثل البرق نسمة أكثر فتورا ، لا احد يعرف من اين تهب ، انها نسمة مليئة بالامل الذى يفتح - لثوان - كوة فى كل روح .

فيما يتعلق « بدون خايمى أرثى » - وله هيئة محترمة على الرغم من كل شئ - لا يقرضونه الا كمبيالات . وفى المقهى يظهر ان كل شئ لا يعرف . دون خايمى طلب قرضا من بنك ، اعطوه ووقع بعض الكمبيالات بعد ذلك جاء ما جاء ، حشر نفسه

فى مشروع حيث خدعوه ولم يبق معه ريال واحد ، وقدموا له الكمبيالات لقبض قيمتها فقال انه غير قادر على دفعها ..

دون خايمى أمين اكثر ما تكون الأمانة ، رجل شريف وسيئ الحظ وله قدم نحس فى كل ما يرتبط بالنقود . شديد الاجتهاد .. لا ، للحق ليس كذلك لكن أيضا لم يملك شيئا من الحظ . آخرون من عليه الصعاليك (ربما أكثرمنه صعلكة) بضربتين للحظ راحو ببضعة آلاف من الدوروات ودفعوا كمبيالاتهم ، وها هم أولاء يسعون هناك مدخنين أجود السجائر ، وطوال اليوم فى تاكسى يتحركون . لم يحدث هذا لدون خايمى ارثى . لقد حدث له العكس تماما . والآن يسعى باحثا عن مصير يستقر عليه ، ولا مصير - انه مستعد لان يلقى بنفسه فى اى عمل ، الأول الذى يخرج له ، لكن لم يخرج له شئ ذو بال ، ويمضى اليوم فى المقهى ، والرأس مستندة على مسند الكرسى ناظرا الى الديكور المذهب للسقف . واحيانا كان يغنى بصوت خفيض مقطوعة أو أخرى من اوبريتات الثارثويلا ، بينما يحافظ على ايقاع الغناء بدقات القدم . لم يتعود دون خايمى التفكير فى تعاسته ، وفى الواقع ، هو لم يتعود التفكير فى اى شئ . كان ينظر فى المرايا ويقول لنفسه : من اخترع المرايا ؟ ومن ثم يعيد النظر نحو اى شخص كان ، فى تحديق يكاد يجانب الحياء : هل لهذه المرأة أبناء ؟ لربما

كانت عجوزا عاقرا . كم حالة سل من المحتمل ان توجد بهذه القهوة ؟

دون خايمى يبرم سيجارة او قطعة قش ويشعلها . هناك من هو فنان يبرى الاقلام حتى يستخرج لها سنا نافذة مثل ابرة ، دون ان تتعرض أبدا تلك السن للتلف بين يديه . كم هو غامض ذلك السر ! « تس ، تس ، تس ، تس ، تس » سعال دائم ، نهارا وليلا ، شتاء وصيفا : القلب .

سيدة صموت ، من عادتها الجلوس فى مؤخرة المقهى تتصالح مع نفسها بارتقاء سلم صالة « البلياردو » . لقد مات لها ابن منذ أقل من شهر . الشاب الراحل كان اسمه « باكو » ، وكان يستعد للعمل فى البريد ، فى الاول قالو انه مريض بالشلل . فيما بعد رؤى انه مريض بالالتهاب السحائى ، دام المرض قليلا لكنه كان قد فقد الوعى فى اول لحظة منه . لقد شاع ان كل القرى فى ليون وقشتاله القديمة الجديدة ونواح من بلنسية (كاستيون والمنتصف من اليكانتى)[1] ، قد اصابها الم عميق لموته . باكو عاش دائما نصف مريض منذ ان اصابه دور حمى فى شتاء من

---

(١) هذه مساحات شاسعة تشمل ثلث أسبانيا ، والكاتب يريد تصوير ضخامة الحدث بالنسبة للام ، مع لهجة سخرية تريد ان تشير الى ان من يجد فى ذلك الوقت عملا ، ولا سيما فى البريد الذى انفرد بالاعلان عن عدد من الوظائف فى ذلك الزمان ، فانه يصير مشهوراً .

سنوات طفولته . بموته صارت امه وحيدة ، فأخوه الاكبر راح يتجول عبر العالم . لا يدرى احد اين . عند المساء ، كانت تروح الى المقهى الذى تملكه دونيا روزا ، تجلس على حافة سلم البلياردوا . هناك تحيا الساعات الميتة مستقبلة حرارة الجو . ولقد غدت دونيا روزا شديدة الحنو عليها منذ مات ابنها . هناك من الأشخاص من يحلو لهم العناية بمن يمرون بفترات الحداد . انها فرصة سانحة لاسداء النصائح أو طلب التنازلات أو رفع الروح المعنوية أو قضاء وقت ممتع . وحتى تقوم دونيا روزا بالتسرية عن أم باكو تقول لها : لو بقى لصار أبله ككل من يصاب بهذا المرض ، فكان أفضل أن أخذه الله . الام كانت تنظر اليها بابتسامة موافقة ، وترد عليها : من يتروى يصل ، الحق معك فيما تقولين . كانت ام باكو تحمل اسم ايزابيل ، ايزابيل مونتيز ، ارملة سانث ، انها سيدة ذات طلعة بهية خاصة ، وترتدى ثوبا فيه شئ من التبرج[١]. ولها مظهر « بنت ناس » اعتادوا فى المقهى احترام صمتها .

فقط ، ما بين مساء ومساء آخر بعيد ، يظهر أحد الاشخاص المعروفين فى المقهى : مثلا ، امرأة عائدة من المغسل تتكئ على

---

(١) الكلمة الاسبانية تحتل ايضا (شيئا من التواضع) وقد اخترت (.. التبرج) لعلاقتها بالسياق الذى يحمل شيئا من السخرية .

مائدتها لتسألها : أيه ... ؟ هذه الروح تنتعش يوما بعد يوم . دونيا ايزابيل تبتسم ولا تجيب - تقريبا - ابدا ، ولكنها عندما تصل الى ارتفاع فى روحها المعنوية تنظر نحو الصديقة وتقول : كم أنت يا فلانة ذات روح حلوة ! ولكن الشئ الاكثر حدوثا انها لا تقول شيئا أبدا . لمحة باليد عند مغادرتها والسلام . دونيا ايزابيل تعرف انها من طبقة اخرى ولها طريقة اخرى مختلفة لكينونتها ، ذلك على اقل تقدير .

* * *

آنسة تقترب من الشيخوخة تنادى بائع السجائر :

- باديا

- حاضر يا آنسة البيرا

- علبة تريتون (١)

المرأة تفتش بإلحاح فى حقيبتها المليئة بخطابات عتيقة رقيقة وخارجة عن حدود الشرف ، ثم تضع على المائدة خمسة وثلاثين سنتا ..

- شكراً

---

(١) سجائر وطنية غير سوداء طرحت ١٩٤١ لمنافسة السجائر الاجنبية المثيلة فى جودة الصناعة والدخان .

– لك الشكر يا آنسة

تشعل السيجارة وتنفث حزمة طويلة من الدخان مع نظرة تائهة ، وبعد وهلة قصيرة تعود الآنسة للنداء :

– باديا

– حاضر يا آنسة البيرا .

– هل أعطيت الخطاب الى ذاك .

– نعم يا آنسة .

– ماذا قال لك

– لا شئ . لم يكن بالبيت وطمأنتنى الخادمة بأنها ستسلمه الرسالة عند العشاء دون تقصير .

تصمت الآنسة البيرا وتواصل التدخين . اليوم لم يكن الجو معتدلا وتشعر بقشعريرة وتلاحظ ان كل جزء فيها – تراه يرقص منها شيئا فشيئا . الآنسة البيرا تحيا حياة ضالة . حياة – مع التروى فى النظر اليها – لا تساوى حتى ان تعاش ، لا تصنع شيئا ، هذا حق ، لكن ولأنها لا تصنع شيئا فأنها حتى الطعام لا تتناوله تقرأ روايات ، وتذهب الى المقهى . وتدخن علبة سجائر تريتون بعد أخرى وتمضى الأمور كما تقع – والحقيقة ان كل ما يقع اعتاد ان يكون اعيادا للموتى ، ومن أجل هذا كان دائما تعيسا

ومسـودا ومعيبا .

دون رود ريجوس دى مدريد كسب جائزة اليانصيب فى آخر سـحب لـها .. يقول له الأصدقاء :

– لقد كان هناك حَظَ .. يْظ ، أيه ؟

ويجيب دون خوسيه دائما بنفس الاجابة كما لو كان قد درسـها جيدا :

– بهَ ! إنها بضـعة مـلاليم !

– لا يا رجـل ! لا تفسيرات فنحن لن ندهب الى مطالبتك بشـئ . دون خوسيه كاتب النيابة ، وفيما يبدو أن له شيئا من المدخرات اخفاها عن العيون .. وأيضـا يقولون أنه تزوج بأمرأة غنية ، صبية ضعيفة البنية ، ماتت وشيكا ، تاركة كل شئ لدون خوسيه وقد عجل فى إحكام ببيع الأربع عنبات وشـجرتى الزيتون تلكم التى تركت لأنه كان يؤكد ان أجواء الريف تضر مسالكه التنفسية وأن أهم شئ فى الوجود هو أن يعتنى الإنسان بنفسه .

كان دون خوسيه – فى مقهى دونيا روزا – يطلب دائما شرابا فلم يكن مقترا ولا من أصحاب القهوة باللبن . والمالكة تنظر اليه بتعاطف ، بسبب مزاج الاوخين المشترك بينهما .. الأوخين أفضل شئ فى العالم ، فهو هاضم ومدر للبول

ومنشـط ،ويتحول فى الحال الى دم ويبعد شبح العجز الجنسى .

دون خوسيه يتحدث فى المقهى بكثير من السلطة . فمنذ عامين ، وقبل انتهاء الحرب الاهلية بقليل حدثت مشادة بينه وبين عازف الفيولين ، فنادى دون خوسيه على المالكة وقال لها : أما ان تلقى بهذا الاحمر(١) الخسيس الوقح فى الشارع واما فلن أطأ هذا المحل . عندئذ وضعت دونيا روزا العازف فى الشارع ولم يعد يعرف عنه شئ بعد ذلك . الزبائن الذين وقفوا من قبل فى صف العازف بدأوا يغيرون من رأيهم . وفى النهاية كانوا يقولون إن دونيا روزا قد أحسنت الصنع ، فأنه ينبغى الضرب بيد من حديد ، ووضع المسئ فى مكانه ، وبهذا الاسلوب ، سيعرف كل واحد ، كائنا من كان ، الحد الذى يتوقف عنده ! والزبائن عند قولهم ذلك كانوا يأخذون هيئة جادة ومتصلبة ومنعدمة الحياء . إذا لم يكن هناك نظام ، فلن توجد طريقة لاحسان شىء ، شئ يستحق الجدارة . هكذا كانت تتناثر الكلمات بين الموائد .

* * *

رجل ضارب فى الاعوام ، يسير نحو منتصف القرن ، يحكى

---

(١) أحمر : كلمة استخدمها نظام فرانكو ضد كل اعدائه الجمهوريين ثم ضد كل المعارضين ، حتى فقدت مدلولها بالاشارة الى الشيوعى وصارت نوعا من السباب للاستهزاء .

صاخبا المزحة التى حدثت له مع مدام « فلفلة » .

– ظنت الحمقاء المسرفة فى الحمق انها ستفوز علىّ وتصرعنى فى الشراب . نعم ، نعم ! كانت ماهرة ! دعوتها لبعض الشراب . وعند خروجها مزقت وجهها لاصطدامها بالباب .. ها ، ها .. تدفق منها الدم مثل ثور جريح فى الحلبة . كانت تقول : اوه ، لا ، لا .. أو ، لا لا ... ومضت تقذف بمعدتها إلى الخارج . يا للمسكينة تمضى دائما سكرانة ، ولو قلنا الحق ، فانها تبعث على الضحك .

بعض الوجوه ، من الموائد القريبة ، ينظرون اليه ـ تقريبا ـ بحسد ، انها وجوه الناس الذين يبتسمون فى سلام وطمأنينة ، عند تلك اللحظات التى يصلون فيها الى التفكير فى لا شىء تقريبا ، دون ان ينتبهوا لذلك . والناس يتظرفون بحمق ويبتسمون أحيانا مع انهم فى أعماق نفوسهم يحسون استنكارا هائلا ، استنكارا يكادون لا يحتملونه. وكى تعمل من نفسك الظريف يمكن ان تصل حتى الى الاغتيال ، بالتأكيد فقد جرت اكثر من جريمة من أجل أن تقضى وقتا طيبا فى مزحة ضد أحدهم .

ـ كل هؤلاء المدعين يجب معاملتهم هكذا . نحن ـ الاشخاص

المهذبين ـ لن نسمح لأحد أن يلعب بنا .. لقد كان ابى يكرر ذلك ! هل تريد العنب ؟ حسنا فلنذق العنب ! ها ، ها ! خائبة الامل لم تعد تظهر هناك !

يجرى بين الموائد قط سمين ، لامع ، قط ملىء بالصحة وعليه مظهر النعمة ، قط شرس ومتوجس . يحشر نفسه بين ساقى سيدة ، وتقفز السيدة :

ـ يا أبن الشيطان ! اذهب من هنا ايها القط .

الرجل صاحب القصة الصاخبة يبتسم فى تلذذ :

ـ لكن ، يا سيدتى ! مسكين ذلك القط ! اى شر ألحقه بك ؟

* * *

شاب فى شرخ شبابه ذو عذار ينظم اشعارا بين ارجاء هذا الصخب . أنه سارح فى ملك الله لا يلتفت الى شىء ، انها الطريقة الوحيدة لنظم أشعار جميلة . فلو نظر حوله لهرب منه الوحى . وما أمر الوحى إلا مثل فراشة صغيرة عمياء وصماء لكنها مضيئة جداً وأن لم يكن كذلك فسنعدم التفسير لاشياء كثيرة .

الشاعر الشباب ينظم قصيدة طويلة أسمها المصير . وقد

ساورته الشكوك حول وضع كلمة « المصير » وعما اذا كان ينبغى وضعها فى النهاية وبعد استشارة شعراء تجاوزوه فى الخبرة توصل الى ان الافضل هو عنونة القصيدة بـ « مصير » . هكذا بكل بساطة . فهذا ابسط واكثر .. ايحاء وغموضا . بالاضافة إلى أن تسميتها « مصير » مفجر للدلالات واكثر .. كيف نقول ذلك .. اكثر انعداما للدقة ، اكثر شاعرية . بهذه الطريقة لن يعرف احد عما اذا كان قد اريد « المصير » أو مصير ما أو مصير غير معين او مصير محتوم او مصير ازرق او مصير بنفسجى . المصير (باداة التعريف) يقيد اكثر ويترك افقا متناقصا لتحليق الخيال فى حرية متحررا من كل فخ (١) .

الشاب الشاعر مضت عليه الشهور العديدة وهو يعمل فى القصيدة . وقد انجز بالفعل ثلاثمائة ونيفا من الابيات ، و « ماكيتا » مرسوما بعناية لنشرها مستقبلا ، وقائمة بمشتركين محتملين لشرائها ، وهو بصدد ارسال نشرة اليهم عما اذا كانوا يرغبون فى تغطية تكاليف نشرها . ايضا كان قد

---

(١) رغم نغمة السخرية فالكاتب يشير الى لون من الفن الشعرى نشأ بعد الحرب الاهلية يحمل شيئا من هذه الخصائص ، ويرتبط بمرحلة متصلة بالحداثة الاوربية التى كانت قد بدأت فى الاحتضار .

سبق له اختيار حروف الطبع ، (نمط بسيط ، واضح ، كلاسيكى ، نمط تتم قراءته بهدوء ، بعبارة أخرى ، نريد القول الحروف التى صممها ذلك المخترع الطليانى بودونى) ، كما قام بتحرير مبررات النشر . ومع ذلك فهناك محظوران من الشك لا زالا يعصفان بالشاب الشاعر : ذكر اسم الله عند وضع تاريخ النشر واسم المؤلف ، وتحرير النبذة حول سيرة المؤلف على ظهر الغلاف بنفسه شخصيا او ان يترك ذلك لشخص أخر .

دونيا روزا لم تكن من ذلك الطراز الذى تعود الناس على وصفه بالحساسية .

– والذى أقوله لك أنت تعرفه .. فبالنسبة لاولئك المزهوين بانفسهم يكفينى منهم زوج اختى . فهو يعتمد على غيره كثيرا! وأنت – حتى الآن – لازلت رجلا اخضر . هل تفهمنى ؟ اخضر جدا . هل رأيت رجلا بلا ثقافة ولا مبادىء يتسكع هناك ، وشاقا الارض مرحا كما لو كان ابن ناس ، اقسم لك اننى لم ار مثل ذلك ..!

دونيا روزا يتدفق منها العرق فوق شاربها وجبهتها .

– وأنت مباهيا تمضى حاملا الجريدة ! لم يعد يوجد احترام ولا تهذيب . هذا هو الامر . وهنا انا اقول لك فى وجهك انك هكذا

سيصل بك الامر فى احد الايام الى ان تغازلنى ..!

تدق دونيا روزا عيونها الصغيرة الفأرية فى وجه « بيبى » ، الجرسون العجوز الذى جاء منذ اربعين أو خمسة واربعين عاما من قرية « موندينييدو ».

ظهرت عيون دونيا روزا الصغيرة – من خلف الزجاج السميك – مثل العيون اللامبالية لطائر محنط .

– فيم تحدق ؟ فيم تحدق ؟ ابله ! انك لم تختلف عن يوم وصولك الى مدريد . اليس عندكم رب يخلع عنكم ثياب البلاهة ! تحرك حتى ننهى الحفلة فى سلام ، آه لو كنت اكثر رجولة لألقيت بك فى الشارع .. هل تفهمنى ؟ لقد طفح بنا الكيل !

ترج دوتيا روزا كرشها وتعود من جديد الى الحديث اليه ولكن .. باحترام :

– هيا ، هيا ! كل يؤدى واجبه .. علينا نحن الاثنين الانفقد زاوية النظر . ما اطيب ذلك ! كل شىء محتمل إلا فقدان الاحترام . هل تفهمنى ؟ .. إلا فقدان الاحترام .

رفعت دونيا روزا رأسها وتنفست بعمق . اهتزت شعيرات شاربها فى لمحة تحد ، لمحة غاضبة وقورة مثل لمحة قرنى الاستشعار « لفرقع لوز » عاشق وتياه .

تطفو فى الهواء كثقل يمضى منغرزا فى القلوب ، القلوب لاتتألم ففى قدرتها التحمل ساعة وراء ساعة ، على امتداد حياة كاملة ودون أن يتنبه أحد منا بشكل وافر اليقين لما يجرى .

سيد ذو لحية بيضاء يقدم قطعة كعك سويسرى مغموسة فى قهوة بحليب لطفل اسمر يجلس على حجره ، السيد إسمة دون ثالوث غارثيا سوبرينو ، وهو مراب . دون ثالوث عاش شبابه الاول متعكرا ، مليئا بالتعقيدات والعسر ، لكن بمجرد موت أبيه ، قال لنفسه : من الآن فصاعدا ينبغى التزام الحذر وإلا فانك ستلوث ثالوثك « يا ثالوث » وتفرغ للاعمال التجارية والصرامة فى النظام فانتهى امره الى الغنى . وحلم حياته كلها هو الوصول الى مجلس النواب ، فقد فكر فى : انه لو صار واحدا بين خمسمائة اختيروا من خمسة وعشرين مليونا ، ليس بالامر السيىء على الاطلاق . من ثم ، مضى « دون ثالوث » يغازل - لسنوات عديدة - بعض الرؤوس الكبيرة من رجال الصف الثالث فى حزب « جيل روبلس » (١) ليرى عما اذا كان من الممكن تخصيص مقعد نيابى له ، عن اية دائرة ، لا يهم ، فكل الدوائر تتساوى عنده ولا افضلية لاحداها على الأخرى . تكلف

---

(١) حزب يمينى تأسس ١٩٣١ ونال شعبية كبيرة وانضم بغير شروط لتمرد فرانكو عام ١٩٣٦ . المؤسس اسمه « جيل روبلس » .

الكثير فى الولائم ، وضحى بنقوده من اجل الدعاية وسمع وعودا معسولة .. وفى النهاية لم يظهر ترشيحه فى اية دائرة ولا حتى قدم الى مجالس سمر رئيس الحزب . دون ثالوث مر بلحظات عصيبة ، وبأزمة خطيرة لانخفاض روحه المعنوية ، وفى النهاية تحول الى تابع خلف « لروكس » مؤسس الحزب الراديكالى ، وفى هذا الحزب يبدو ان اموره تسير سيرا طيبا بدرجة كافية ، ولكن الحرب جاءت ومعها نهاية مصيره السياسى الذى مر غير براق كثيرا ، وغير ممتد طويلا والآن ، دون ثالوث نحّى الحياة العامة جانبا كما قال دون اليخاندرو [١] فى يوم مشهود ، واكتفى بأنهم تركوه يعيش هادئا دون ان يذكروه بالازمان الخوالى ، بينما تفرغ الى الضرورات المتدنية للاقراض والفوائد .

فى الامسيات كان يتردد مع حفيده الى مقهى دونيا روزا حيث يقدم له وجبة الساعة الخامسة ويبقى صامتا ، مستمعا الى الموسيقى او قارئا الجريدة دون ان يختلط بأحد .

دونيا روزا تتكىء على مائدة وتبتسم :

– ماذا لديك من حواديت البيبريتا [٢]

---

(١) اليخاندرو لروكس مؤسس الحزب الراديكالى .
(٢) البيريتا تصغير البيرا ، وستكثر اضافة (يتا) الى الاسماء فى الرواية لعادة التصغير عند الاسبان .

– أقل من القليل كما ترين .

ترضع السيدة البيرا السيجارة مميلة رأسها قليلا . خداها ذابلان وجفناها حمراوان . لعله بسبب حساسيتهما الشديدة .

– أمورك تلك هل تعدلت ؟

– اى تلك ؟

تلك الخاصة بـ ..

– لم تكن سيئة . خرج معى ثلاثة ايام ، وبعدها اهدانى حقًّا من « الفازلين » .

تبتسم الآنسة البيرا . بينما تغير دونيا روزا نظرتها فتمتلىء بالغيظ .

المسألة ، أن هناك – يابنيتى – اناسا بلا ضمير .

– « بش » ! ماذا يعطينى اكثر ؟

تقترب منها دونيا روزا وتهمس فى أذنها .

– لماذا لا تصلحين امورك مع دون بابلو ؟

– لانى لا احب. الواحدة منا أيضا لها كبرياؤها ، يا دونيا روزا .

– كلنا معشر النساء لنا أشياؤنا . ولكن ما أقوله لك –

يا البيريتا - وانت تعرفين أننى أحب الافضل دائما لك - هو أن امورك كانت تجرى بامتياز مع دون بابلو .

- ليس كثيرا . انه طراز كثير الطلبات .. بالاضافة الى انه عاشق أحمق .. ماذا تريدين منى . لقد سبب لى حتى الاشمئزاز. تتقمص دونيا روزا النغمة الحلوة ، النغمة الاغرائية للنصائح .

-عليك أن تتحلى بالصبر اكثر . فانت - ياالبيريتا - لا زلت طفلة

- هل تظنين ذلك ؟

الآنسة البيريتا تبصق تحت المائدة وتجفف فمها بطرف منديلها

* * *

صاحب دار نشر ثرى يسمى « بيقا» ، (دون ماريو دى لا بيقا) ، يدخن سيجارا غير عادى ، سيجارا يبدو وكانه اعلان وذلك الجالس الى المائدة الجانبية يحاول ان ينال تعاطفه .

- أنه سيجار ممتاز ، ذلك الذى تدخن يا صديقى ..

يجيبه بوقار دون أن ينظر اليه :

- إذا لم يكن سيئا ، فقد كلفنى « دورو» كاملا من مالى .

الجالس على المائدة الجانبية - وهو رجل لعوب - كان يود قول شيء يكاد يكون مثل : ومن مثلك ولكنه لم يجرؤ ، فلحسن الحظ خجل من قوله فى الوقت المناسب .. نظر نحو الناشر وعاد الى الابتسام بتواضع ، وقال له :

- دورو » فحسب ؟ اظن انه يساوى سبع بيزيتات على الاقل

- فلتعلم انه ليس كذلك ، دورو فقط وثلاثون سنتا « بقشيش » وانا راض بذلك .

- ممكن ؟ ياسلام !

- يارجل ! لا اظن انه ينقصنى ان اصير « كونت » حتى ادخن السيجار..

- كونت ، لا ، لكن ترى - حضرتكم - اننى لا استطيع ان ادخن هذا السيجار ، وعلى شاكلتى معظم من هم حولنا

- هل تحب - حضرتك - أن تدخن واحدا ؟

- معقول !

يبتسم بيقا ثم يقول : « اذن اشتغل - حضرتك - مثلما اشتغل انا » وأطلق الناشر قهقهة عنيفة غير مالوفة . فهجر الرجل الجالس الى المائدة الجانبية الابتسام واحمر وجهه واحس نارا تحرق اذنيه وبدأت عيناه تلتهبان . تجنب النظر فيما حوله

حتى لا يرى من فى المقهى وهم ينظرون اليه أو على الاقل هكذا خيل له .

* * *

بينما كان دون بابلو – وهو بائس يرى الأشياء معكوسة – يبتسم وهو يقص حكاية مدام «فلفلة» ، ترمى البيرا السيجارة وتطأها . الآنسة البيرا – من وقت لآخر – تأخذ ملامح أميرة حقيقية .

– أى شر كان قد سبب لك هذا القط المليح ؟

(ينادى على القط) . .

وينظر دون بابلو إلى السيدة :

– ينبغى ان نتنبه : كم هى ذكية تلك القطط . تنسل إلى اماكن لا يحسنها بعض الرجال . انها حيوانات تفهم كل شىء .

القط يبتعد دون ان ينظر إلى الوراء ويضع نفسه فى المطبخ .

– عندى صديق ، رجل ذو اموال وجاه ونفوذ حتى لا تظنى انه من اسافل الناس – وله قط فارسى يرعاه رعاية السلاطين ، فيما يشبه المعجزة .

– صحيح ؟

– هذا ما اعتقده . فهو يقول له : سلطان تعال ! ويأتى القط هازا ذيله الجميل الذى يبدو وكانه حزمة من الريش ويقول له : سلطان اذهب ! وهناك يذهب سلطان مثل فارس ملئ بالجدارة . له جولات مشهودة وشعر مثل الحرير لا أظن بوجود قطط كثيرة بهذا الشبه . بين القطط مثل دوق البا بين الرجال . وصديقى يحبه كابن له . بالطبع فان القط يدفع الناس لحبه .

يجيل دون بابلو نظرته عبر المقهى وفى لحظة تتعثر النظرة بمائدة الآنسة البيرا . دون بابلو يطرف بعينه ويحول رأسه .

– وكم هى حنونة تلك القطط ! هل تأملت حضرتك – فى حنانها ؟ عندما تستقبل حنان شخص فهى لا تنسى ذلك طول الحياة .

يتجشأ دون بابلو قليلا ، ويعطى صوته صفة الجدية والاهمية :

– مثال ينبغى ان تحتذيه معظم الكائنات الانسانية .

– بالفعل .

يتنفس دون بابلو بعمق ، انه راض – فالحقيقة ان قوله «مثال ينبغى ان تحتذيه . . .» كان قد خرج بتوفيق مطرز .

بيبى ، الجرسون ، يعود إلى ركنه دون ان ينطق كلمة واحدة

. وعند وصوله إلى منطقة نفوذه يعتمد بيديه على صفحة إحدى الموائد ، وينظر إلى نفسه فى المرآة كما لو كان ينظر إلى شىء نادر جدا ، وغريب جدا ، وكان يرى نفسه من الخلف فى المرايا الخلفية ، كما كان يرى نفسه من الجانب فى مرايا النواصى

– بالنسبة لهذه الشمطاء ، الساحرة الشريرة . كل ما يهمها ان يحفر لها نهر من النقود . خنزيرة شمطاء . .

تعبر الاساءات حياة بيبى عبورا سريعا وينسى كل شىء ويكفيه ان يصب بعض اللعنات – بينه وبين نفسه – مما لم يجرؤ على قوله علنا .

– استغلالية ! طماعة ! انك تطعمين نفسك خبز الفقراء .

يحلو لبيبى ان يقول كلمات من بين شفتيه فى لحظات تعكر المزاج . ثم بعد ذلك يلهو عن الامر شيئا فشيئا لينتهى بنسيان كل شىء .

طفلان – ما بين اربع وخمس سنوات – يلعبان فى سأم وبدون حماس لعبة القطار فيما بين الموائد – وعندما يتجهان نحو عمق المقهى يعمل احدهما ماكينة والآخر عربة . وفى العودة نحو الباب يتبادلان الاماكن . لا احد يعيرهما انتباها ، ولكنهما يستمران فى لامبالاتهما ، سائران جيئة وذهابا بجدية هائلة ،

انهما طفلان منضبطان ، وبالتالى يسأمان مثل التينيا لانهما فكرا فى ان يتسليا ، وحتى يتسليا فكرا – وليكن ما يكون – فى ان يلعبا لعبة القطار طوال المساء . واذا لم تحدث التسلية ، فأى ذنب يقع عليهما ؟ انهما يبذلان كل ما فى وسعهما .

ينظر بيبى اليهما ويقول : – انكما على وشك السقوط . .

بيبى يتكلم القشتالية ترجمة مباشرة من الجليقيةعلى الرغم من انه عاش نصف قرن تقريبا فى قشتالة . الطفلان يجيبانه ، «لا يا سيد» ، ويواصلان لعبة القطار دون ايمان ، دون امل ، ايضا دون تعاطف كما لو كانا ينجزان اعمالا شاقة .

دونيا روزا تحمل نفسها إلى المطبخ .

– كم «أونسة» اضفت يا جابرييل ؟

– اثنتين يا أنسة .

– أرأيت ؟ هكذا تبدو الحياة مستحيلة ألم اقل لك الا تضع اكثر من أونسة ونصف ؟ تأمينات اجتماعية ! نعم ! «يا عذراء ! لا فائدة من مخاطبتكم بالاسبانية . فليس لديكم رغبة فى الفهم .

تتنفس دونيا روزا وتعود لإطلاق «مدفعيتها» . تتنفس «كماكينة» لاهثة ، مسرعة : كل الجسم يصعد ويهبط مع صفير شاخر فى الصدر . .

– نعم ، دون بابلو قد بدا له بوضوح شديد ان يتوجه مع زوجته إلى حيث يجد خدمة افضل . هكذا ستكون الامور رائعة ! أرأيت ؟ والذى لا يعرفه ذلك التعيس عديم الحياء ، هو ان الشىء الوحيد الزائد عن الحاجة هنا هم الزبائن . هل تدرك ؟ اذا لم يكن يعجبه فليذهب ، فهذا مكسب لنا . . زوجته ليست إلا افعى ، تتميز غيظا ضدى ، والتى تتميز غيظا من تلك دونيا بورا هى أنا !

يحذرها جابرييل ، كما يفعل كل يوم .

– انهم سيسمعونك يا أنسة !

– فليسمعوا اذا شاءوا ، فمن اجل هذا اتكلم فأنا ليس لى شعر فى لسانى ، والذى لا أعرفه كيف ان ذلك «الأبله» تجرأ على ان يهجر البيريتا ، والتى تتساوى مع ملاك ، والتى عاشت لا تفكر فى شىء غير ارضائه ، معانية من نتانة دونيا بورا ، الافعى التى تضحك دائما من وراء الظهر . فى النهاية – كما كانت تردد امى رحمها الله « من يعش ير أكثر» .

جابرييل يحاول ترتيب الطبيخ .

– هل تحبين ان اغرف كميات قليلة ؟

– انت تعرف ما ينبغى ان يعمل الرجل الشريف ، الرجل

الذى يرتفع الى القمة ، دون ان يصير لصا ، انت عندما تريد تدرك تماما ما يناسبك .

بائع السجائر «باديا» يتكلم مع زبون جديد قام بشراء علبة سجائر بأكملها منه .

– هل هى هكذا دائما ؟

– دائما ، ولكنها ليست شريرة . فقط روحها ضيقة لكن بعد ذلك ليست بشريرة .

– ولكنها نعتت ذلك «الجرسون» بالأبله . .

– لا عليك . . ! هـذا لا اهمية له فهى احيانا تنعتنا بالمأفونين و . . .

الزبون الجديد لا يستطيع ان يصدق ما يرى :

– وانتم – هكذا – هادئون لا يأكل الكلب لكم عجينا !

– نعم يا سيدى ، نحن – هكذا – هادئون .

يهز الزبون الجديد كتفيه :

– طيب ، طيب . .

يذهب بائع السجائر فى جولة إلى الصالون الزبون يبقى غارقا فى التفكير .

– انا لا أعرف من سيكون البائس ، هل هو ذلك الحيوان البرمائى القذر الحدادى ام هؤلاء البسطاء ؟ . . فلو امسكوها وضربوها على مشهد من الجميع فلربما عادت إلى عقلها . ولكنهم لا يجرأون . وهم من الداخل يلعنون اباها طول اليوم ومن الخارج فها نحن نرى ! أبله ، لص ، تعيس ، وهم فى غاية السعادة . . نعم يا سيدى نحن – هكذا – هادئون . بالطبع اعتقد ذلك . لنا الله مع هؤلاء الخلق . فهذا ما يحبون . . !

يواصل الزبون التدخين . اسمه ماوريسيو سيقوبيا ويعمل فى شركة التليفونات . اقول ما أقول عنه لانه من المحتمل ان يولى ظهره فيما بعد منصرفا . هو ما بين الثامنة والثلاثين والاربعين . شعره احمر ووجهه ملىء بالحبوب . يعيش فى حى بعيد : فى اتوتشا . جاء إلى هذا الحى بالصدفة . جاء يسعى وراء فتاة ، الفتاة انحرفت حول ناصية واختفت عند أول بوابة ، وكان ذلك قبل ان يقرر ماوريسيو ماذا يقول لها . .

* * *

سيقوندو الليمبيا مضى يدمدم :

– يا سيد ساورس ، يا سيد ساورس

السيد ساورس والذى لم يكن ايضا طبيعيا ، ينهض واقفا من

حيث يجلس ويتجه نحو التليفون ، سار يعرج ، يعرج من اعلاه وليس من قدمه يرتدى بدلة «على الموضة» ذات لون فاتح .، ويلبس عدسات مثل «هلب» . يأخذ مظهر من عنده الخمسون عاما ، ويبدو عليه انه طبيب اسنان أو حلاق ، ايضا بتأمله جيدا يبدو انه رحالة يبيع منتجات كيماوية .

السيد ساورس له كل ملامح الرجل المشغول جدا ، من الطراز الذى يقول فى نفس الوقت : القطار السريع ياليمبيا ، يا ولد احضر لى تاكسى . من هؤلاء السادة المشغولين إلى حد انهم عندما يذهبون إلى الحلاق يحلقون ذقنهم ويقصون شعرهم ويقلمون اظافرهم وينظفون احذيتهم ويقرأون الجريدة . وأحيانا عندما يودعون صديقا يعلنون له : من الساعة كذا إلى الساعة كذا سأكون فى المقهى ، بعد ذلك سألقى نظرة على المكتب . . وعند حلول المساء سأمر على بيت صهرى ، التليفون فى الدليل والآن انصرف فلا زال عندى الف شأن صغير فى حاجة إلى الحل . من هؤلاء الرجال الذين ندرك من اول وهلة انهم منتصرون ، ويشار اليهم بالبنان وان من عادتهم ان يصدروا الأوامر .

السيد ساورس يتحدث بالتليفون فى صوت خفيض ، فضفاض ، فيه بلاهة ، والى حد ما منمق ، وسترته قصيرة نسبيا والبنطلون ضيق . مثل بنطلون مصارع ثيران .

– هو أنت ؟

– . .

– متبجح ، متبجح ! أنت عديم الحياء !

– . .

– فهمت جيدا ولا يهمك فلن اتخلف .

– . .

– وداعا يا نمس .

– . . . . . .

– أنت دائما مشغول بحاجاتك وداعا يا عصفورى ! سآتى الآن لألتقطك .

يعود السيد ساورس إلى المائدة مبتسما ، وقد تحول عرجه إلى بعض ارتعاش واهتزاز . . يدفع ثمن قهوته ، ويطلب تاكسيا ، وعندما يحضر ينهض وينصرف . يتطلع بجبهته السامقة مثل مصارع استعراضى فى ايام الرومان ، يمضى مفعما بالرضى مشعا بالسرور .

يتابعه احدهم بنظرة حتى تبتلعه البوابة الدوارة . لا شك فى ان بعض الأشخاص يسترعون الانتباه اكثر من غيرهم .

ويعرفون بشىء يبرق مثل نجمة فى الجبهة .

المالكة تدور نصف دورة وتذهب إلى رخام «النصبة» حيث تخرج فناجين مليئة بالقهوة الاكسبريس دون توقف ، بينما ماكينة الخزنة العتيقة لا تتوقف عن الحركة واصدار أصواتها .

بعض الجرسونات بوجوه نحيلة محزونة صفراء ينتظرون مصلوبين ، وحوافى الصوانى تستقر على الرخام حتى يعطيهم المسؤول الطلبات .

المسؤول يعلق التليفون ويخطر الشخص المطلوب .

– لم تتحدث مرة اخرى ، كما لو كنت لا تملك عملا تعمله ؟

– اننى كنت اطلب مزيدا من اللبن .

– حقا ! لبن ! كم احضرتم فى هذا الصباح ؟

– ستين كالعادة .

– ولم تكف ؟

– يبدو لى انها لن تكفى .

– اذن يا ابنى – مع اننى لا أعرف الأمومة – وكم طلبت ؟

– عشرين ؟

– ألن يفيضوا ؟

لا اعتقد .

– كيف «لا اعتقد» ؟ اكاد اختنق ! واذا فاض ؟

– لا ، لن يفيض ، على الاقل هكذا اقول انا .

– نعم ، كالعادة «أقول انا» اليس هذا مريحا ؟

– سوف ترين لن يفيض شيء ، قولى لى ، كيف حال الصالون ؟

– نعم ، طبعا : كيف حال الصالون» حاله حال . ولاننى شريفة وادفع جيدا ، واذا لم تروا انهم يهجروننا جميعا ، الا ترون انكم بلا عقل .

– وانتم ، يبدو عليكم الابتهاج لانكم تحملون الصوانى مليئة بالقهوة . الا يعرف الزبائن ان لدينا كعكا وفطائر «وتورتة» ؟ لا ، نعم هذا أعرفه . نعم أعرف انكم غير قادرين على أن تقولوا لى شيئا . كل ما ترغبون فيه أن ترونى أرفل فى البؤس منطلقة فى الشوارع أبيع يا نصيب العميان ! لكن بعدا لكم فأنا اعرف اللعب بالبيضة والحجر ! هيا حركوا أرجلكم ، واطلبوا من القديسين ؛ اى منهم ، ان يغلى دمى .

الجرسونات كمن يسمع صوت المطر ينصرفون ومعهم

الطلبات بعيدا عن «النصبة» ، لا ينظر احدهم نحو دونيا روزا . . لا احد يعرف منهم ايضا أن يفكر فى دونيا روزا .

احد الرجال يضع مرفقه على المائدة – وانتم خير من يدرى – ويمسك جبهته الشاحبة بيده ، نظرته حزينة فيها انشغال وذهول يتكلم مع الجرسون يحاول ان يبتسم أحلى ابتسامة ، يبدو كأنه طفل مهجور من أهله يطلب كوب ماء من أحد المنازل فى الطريق ، الجرسون يحدث ايماءات بالرأس وينادى على كبير الجرسونات ، لويس كبير الجرسونات يقترب من المالكة .

– يا آنسة بيبى يقول أن ذلك السيد لا يريد ان يدفع . .

– حاول ان تستخرج منه النقود كيف كان ، هذا شأنك وان لم يحدث قل لهم ان يخلصوه من جيوبه الفارغة ودعه ينصرف بسلام . فليس فى وسعنا ابعد من هذا (المالكة تثبت عدساتها وتنظر . . .)

– ايهم ؟

– ذاك الذى هناك ، على عينيه نظارات حديدية الاطار .

– عجبا ! اى كائن ، نعم هذا فيه سماحة ! وبهذا الوجه ؟ !

اسمع : وعلى اى قانون سماوى يبرر عدم دفعه ؟

– يقول انه جاء بدون نقود فى جيبه .

– هذا ما كان ينقصنا ، إن الفائض الوحيد فى هذا البلد هم الصعاليك .

رئيس الجرسونات يتكلم دون ان ينظر إلى عينى روزا :

– يقول انه سيأتى ليدفع عندما يحصل على نقود .

عند خروج الكلمات من حنجرة روزا تتوالى فى دفعات مثل ضربات النبض .

– هذا ما يقولونه جميعا ، ثم بعد ذلك ، يعود واحد ومائة لا نسمع عنهم . واذا رأيتك . . . لا أتذكر . ولا كلمة ! قم بتربية الغربان وسوف ينزعون عينيك من محجرهما ، قل لبيبى – وهو يدرى – الى الشارع بنعومة .

وعندما يصبح على الرصيف ، بعض الكلمات . . . لقد بلغ السيل الزبى .

انصرف رئيس الجرسونات عندما عادت دونيا روزا لمحادثته :

– اسمع ، قل لبيبى ان يكون جاف اللهجة . .

– حاضر يا آنسة . .

بقيت دونيا روزا تشاهد العرض ، يصل لويس – وكالعادة

مع لباناته الى بيبى ويهمس فى اذنه .

– هذا كل مـا ستقول . من ناحيتى ، الله يعلم ما فى الصـــدور !

يقترب بيبى من الزبون ، بينما ينهض هذا ببطء . شاب منفوش الشعر ، شاحب ، مريض . . يغطى نفسه بجاكت متواضع وبنطلون مهلهل ،.

انه متوج بقبعة رمادية قاتمة يحيط بحافتها شريط ملىء بالزيوت ، ويحمل تحت ابطه ، كتابا داخل ورقة جريدة .

– اترك لك الكتاب اذا احببت !

– لا ، هيا إلى الشارع ولا توجع رأسى .

يتجه الشاب نحو الباب وبيبى من ورائه . الاثنان يدلفان إلى الخارج .

الدنيا برد والناس يمضون متسارعين ، الباعة ينادون على صحف المساء .

«ترام» يهبط إلى شارع فوين كرال حزينا مأساويا نافضا الاكتئاب .

الشاب ليس واحدا من الكثرة . ليس رجلاً عامياً ، ليس رجلا

من الغوغاء . ليس كائنا شائعا سائرا . فله وشم فى ذراعه الأيسر ، وعليه آثار جرح فى ملتقى الرقبة مع الجذع . انهى دراسته ويترجم الفرنسية . تابع الحركة الثقافية والأدبية فى جيئتها وذهابها ، ويستطيع ان يردد من الذاكرة بعض اصدارات الشمس (١) . وفى بداية صباه كانت له خطيبة سويسرية وكان يؤلف اشعارا طليعية .

اللمبيا يتحدث مع دون ليوناردو . دون ليوناردو يقول له :– نحن آل ميلندس عبارة عن فرع عريق متصل بأكثر العائلات القشتالية عراقة . كنا ملاكا لمزارع عنب واقطاعيات واليوم كما ترى : نحن فى قلب ال (rue) (٢) .

سيقوندو سيقورو يشعر بإعجاب نحو دون ليوناردو . فكون دون ليوناردو قد سرق مدخراته (على الارجح) جعله . . يمتلىء بالانبهار به والولاء له . اليوم دون ليوناردو يفتح له صدره ، وهو ينتهز الفرصة ، ويهش بذيله مثل كلب سعيد ومع ذلك فتأتى ايام يكون حظه اسوأ ، حيث يعامله دون ليوناردو

---

(١) الشمس جريدة اصدرها متفلسف اسبانيا ومفكرها العظيم «اورتيجا اى جاست» وساهم معه فى ادراتها اعظم شعراء وكتاب جيل ٩٨ ومنهم الشاعر غارسيا لوركا ونوبل : رامون خيمنس وغيرهما وكانت تخصص كل عدد لموضوع علمى : نقد أدبى ، تاريخ ، بيولوجى . . الخ .
(٢) الشارع – بالفرنسية .

بوقاحة واحتقار . فى أيام النحس هذه يقترب منه اللمبيا فى خضوع ، ويحدثه فى تواضع ومراعاة .

- ماذا تقول حضرتكم ؟

دون ليوناردو لا يجيبه . اللمبيا لا ينشغل ويعود فى اصرار .

- يوم برده شديد . .

- نعم .

هنا يبتسم اللمبيا . انه سعيد ، ولأنه تلقى اجابة كان مستعدا ان يعود لاعطائه بكل الرضا سته آلاف دورو اخرى .

- هل اشعل المدفاة قليلا ؟

يركع اللمبيا ، ومن عادة ، دون ليوناردو ألا يعيره اهتماما .

ولكن اليوم . لا اليوم دون ليوناردو فى حالة انشراح . بالتاكيد فانه يفكر فى خطة مشروع لانشاء شركة مساهمة .

- فى بعض الازمان mon dieu (١) ، عندما يطل احدنا على البورصة فإن الجميع يتوقفون عن البيع والشراء حتى يعرفوا ماذا هو صانع .

- ينبغى النظر ! ايه ؟

---

(١) يا الهس ! بالفرنسية .

دون ليوناردو يرسم بيده فى الهواء ارقاما غامضة .

– لدى حضرتك ورقة لف سجاير .

يخاطب زبون المائدة الجانبية . احب ان ادخن قليلا من تبغى الاسود وليس لدى «ورق لف» فى هذه اللحظة .

اللمبيا يسكت ويتنحى جانبا فهو يعلم ان هذا واجب عليه .

تقترب دونيا روزا من مائدة البيريتا ، التى كانت تراقب مشهد الجرسون والرجل الذى لم يدفع ثمن القهوة .

– هل رأيت البيريتا ؟

تتأخر الآنسة البيرا بعض الهنيهات قبل ان تجيب .

– يا له من شاب مسكين ! على الأرجح انه لم يأكل طوال اليوم ، يا دونيا روزا .

· انت الأخرى تعزفين على وتر الرومانسية . . ما هذا ؟ اقسم لك انه لا يفوقنى احد فى رقة القلب ، لكن ، مع هؤلاء المبتزين !

البيريتا لا تعرف كيف تجيب . المسكينة ، القى بها الى الحياة حتى لا تموت من الجوع ، على الأقل ، بأسرع من اللازم . فى حياتها لم تعرف اداء اى عمل ، فوق ذلك ليست جميلة أو ذات

شكل حسن . فى بيتها عندما كانت طفلة لم تر إلا الإحتقار والمصائب . البيريتا من « برقس » ، وهى ابنة لمخلوق ، شديد الحذر سمى – عندما كان حيا – فيدل ارناندس الذى قتل اودوسيا زوجته بسندال اسكافى وحكم عليه بالاعدام . وقد قام باعدامه جريجوريو مايورال ١٩٠٩ ، وقد كان يردد دائما انه لو قتلها بحساء مخلوط بالكبريتات لما علم أحد بالجريمة .

البيريتا ، وقد اصبحت يتيمة فيما بين الحادية عشرة والثانية عشرة من عمرها ، حملوها الى قرية «فيالون» للعيش مع جدة لها ، كانت مشرفة على صندوق الصدقات (من اجل توفير الخبز للفقراء) الذى يحمل اسم «القديس انتونيو» فى الأبرشية . العجوز المسكينة كانت تحيا حياة سيئة ، وعندما شنقوا ابنها بدأت تزوى ، ثم ما لبثت أن ماتت . وبالنسبة لالبيريتا فقد ظلت مادة للسخرية بين اطفال القرية الذين طفقوا يعلمونها لعبة عسكر وحرامية ثم يقولون لها فى نهاية اللعبة : فى مقصلة تشبه تلك المقصلة التى نصبها العسكر للحرامية تم شنق أبيك أيتها القذرة .

تمكنت البيريتا من الفرار من القرية مع بائع متجول من اقليم استوريا ، وذلك فى أحد الأيام عندما لم تستطع ان تتحمل اكثر مما تحملت . تجولت معه عامين ، ولكن بسبب ما كان

يتحفها به من علقة وراء علقة ، فانها تركته يذهب إلى الشيطان وألقت بنفسها ربيبة فى بيت «لابيلونا» فى شارع «دل بيلار» حيث تعرفت على ابنة السيدة «لامراكا» الحطابة فى مروج فرانسيلوس فى ريبادافيا ، والتى لديها اثنتا عشرة ابنة وكلهن محتالات ، ومنذ ذلك الحين صارت حياة البيريتا تجوالا وحياكة وغناء او شيئا اشبه بذلك .

المسكينة كان يعتصرها بعض المرارة . لكن ليس كثيرا ، وكانت طيبة الطوية ، ومع حيائها الا انها احتفظت بكبريائها حتى ذلك الحين .

«دون خايمى أرثى» يصيبه الملل من انه لا يعمل شيئا . ينظر إلى السقف ، ويفكر فى الفراغ ثم يرفع رأسه عن مسند الكرسى ويشرح للسيدة الصامتة ذات الابن الميت ، تلك السيدة التى ترى الحياة تمر من تحت سلم يصعد لصالون البلياردو :

– أشياء لا أساس لها . . تنظيم سيىء . . ايضا اخطاء ، شىء لا أنكره .

صدقينى لا شىء غير ما قلته . . البنوك تعمل فى أداء معيب ، والمحاسبون ، مع حيل المهنة والتسرع ينفضون ايديهم قبل الوقت المناسب ، وينظمون تلك الميزانيات والتوازنات غير

المتوازنة والتى فيما بعد لن يفهمها احد .

ثم يعلن استسلاما فى لمحاته الدنيوية :

– ثم ليحدث ما يحدث : الاحتجاجات ، الازمات ، التفاهة والقشور .

دون خايمى أرثى يتحدث ببطء ، وفى اعتدال ، ايضا بنوع معين من الوقار يراعى بدقة حركاته واشارته ويعتنى بأن يدع الكلمات تسقط من فيه بطيئة ، كما لو كانت تمضى لتقيس وتزن تأثيرها الذى تحدثه . وفى الاعماق ، لا يخلو من بعض الاخلاص . السيدة ذات الابن الميت ، على عكسه ، كانت كالبلهاء التى لا تنطق . تنصت وتفتح عينيها بطريقة غريبة . بطريقة تحول بينها وبين النوم وليس من اجل الفهم .

– هذا هو كل شىء يا سيدتى ، وغير ذلك . . ماذا اقول لك ؟ . . وغير ذلك ليس اكثر من فرقعات .

دون خايمى أسرثى رجل لبق الحديث إلى حد كبير ، مع انه فى وسط جملة تم الوقوف عندها ببراعة يقول كلمات مثل : التفاهة أو السفسطة وكلمات اخرى من نفس الطراز .

السيدة تنظر اليه ولا تقول شيئا ، انها تكتفى بتحريك الرأس منها مرة نحو الامام واخرى نحو الخلف فى لمحات ، ايضا ،

لا تعنى شيئا .

والآن ترين حضرتك فى افواه الناس ! ! اه ، لو رفعت امى المسكينة رأسها او فتحت فمها !

السيدة أرملة دى سانث ، دوينا ايزابيل مونتير ، عندما كان دون خايمى فى ثرثرته من امثال قوله : هل تدركين ما اقوله لك ؟ بدأت تفكر فى فقيدها ، عندما رأت صورته فى عامه الثالث والعشرين وجيها رشيقا ، شديد الاستقامة فى عوده ، بشارب «يقف عليه الصقر» . عبق رأسها ببخار من سعادة ، فابتسمت دونيا ايزابيل ابتسامة لم تدم اكثر من نصف ثانية بطريقة شديدة الخفاء . بعد ذلك تذكرت باكيتو المسكين بوجه بلا معالم ، اكتسبه بفضل الالتهاب السحائى ، ففاجأها الحزن وبقوة .

دون خايمى أرثى ، عندما فتح عينيه اللتين سبق له اقفالهما لكى يعطى نبرة قوية لـ (لو رفعت امى المسكينة رأسها او فتحت فمها !) حملق فى دونيا ايزابيل وقال لها مجاملا :

– هل تحسين بشىء يؤلمك ؟ انك شاحبة اللون قليلا .

– لا ، لا شىء ، شكرا لك . انها افكار تمر برأس الواحدة منا .

* * *

دون بابلو ينظر إلى الآنسة البيرا خفية ، كما لو كان يفعل

ذلك دون رغبة منه . ومع ان كل شيء بينهما انتهى الا انه لا يستطيع ان ينسى الوقت الذى قضياه معا . وهى - لو نظر اليها جيدا - لرآها طيبة ومهذبة . و«من وراء قلبه» كان دون بابلو يتكلف الاستهانة بها وكان يناديها بالعمة خنزيرة او العمة البغى ، ولكنه من الداخل كان كل شيء مختلفا . دون بابلو فى حالات الاشتياق يرق ويتحدث بصوت منخفض كما لو كان يفكر : لا ، انها مسائل تتعلق بالجنس لا ، انها أشياء القلب . ثم بعد ذلك ينساها ويتركها تموت من الجوع والبرص دون ان يتحرك له جفن ، هكذا كان دون بابلو .

- اسمع يا لويس ، ماذا يجرى لهذا الشاب ؟

- لا شيء - دون بابلو ، انه لم يكن لديه المزاج لدفع حساب القهوة التى شربها .

- ولم لم تبلغنى يا رجل ؟ لقد كان يبدو عليه إنه شاب مهذب . .

- لا تظن ذلك ، فالمظهر يغرى .

تتدخل دونيا بورا زوجة دون بابلو قائلة :

- طبعا ! كم من اناس تخدع مظاهرهم الناظر اليهم ! تلك هى الحقيقة . آه ، لم يمكن التمييز بين الصالح والطالح ، لكن

الذى ينبغى أن يفعله الجميع هو العمل كما يأمر الله . أليس كذلك يا لويس ؟

– من الممكن يا سيدتى !

– نعم ، هو ذاك . لا شك فى ذلك ، فمن يعمل ، يشرب قهوته . . ويمكنه ان يأكل معها كعكا سويسريا اذا شاء ، والذى لا يعمل . . الذى لا يعمل ليس جديرا بالاشفاق ، اننا نحن الآخرين لا نعيش فى الهواء.

دونيا بورا راضية جدا عما قالته ، وفى الحقيقة وفقت فيه كثيرا .

دون بابلو يلتفت مرة أخرى نحو السيدة التى ارعبها القط :

– مع هذا الطراز الذى لا يدفع حساب قهوته ، ينبغى التعامل بحذر ودقة . . اننا لا نعرف بمن تعثرت اقدامنا ، ان الذى انفضوا من الالقاء به فى الشارع ، قد يكون انسانا عبقريا ، مثل سرفانتس أو اسحق بيرال ، او يكون حقيرا ضائعا ؛ فى الحالين كنت سأدفع له قهوته . بالنسبة لى ماذا يعنى ان يزيد حسابى او ينقص ثمن فنجان قهوة ؟

– طبعا . .

ابتسم دون بابلو كمن وجد الحق معه فجأة فيما قال .

– لكن هذا التفكير لن تجدى له نظيرا بين الكائنات غير

العاقلة . فالكائنات غير العاقلة فيها شهامة ولا تخدع ابدا . قط نبيل مثل ذلك القط ، الذى ارعبك كثيرا ، انه مخلوق ملائكى ، لا يريد غير اللعب ، لا شىء اكثر من اللعب .

تعلو ابتسامة غبطة وجه دون بابلو ، مع اننا لو فتحنا صدره لوجدنا قلبه اسود ولزجا كالسمكة .

* * *

بيبى يعود للدخول خلال تلك اللحظات . صاحبة المقهى تضع يديها فى جيب مريلتها ، واكتافها إلى الخلف ، وتنادى عليه فى صوت جاف ، هرم ، صوت يبدو كقرقعة جرس فصلت عنه مطرقته :

– تعال هنا !

بيبى لا يكاد يجرؤ على النظر اليها . .

– ماذا تريدين ؟

– هل طردته مكرما باللكمات . . ؟

– نعم ، يا آنسة

– كم مرة ؟

– اثنتان .

تخترق صاحبة المقهى الزجاج بعينيها الضيقتين وتخرج يديها من جيبى مريلتها ، وتتحسس بهما وجهها حيث تنبت رؤوس شعيرات الذقن وقد غطتها نصف تغطية حبات غبار الأرز .

– وأين سددتها له ؟

– حيث استطعت فى رجليه .

– لقد احسنت الصنع ، حتى يتعلم ! هكذا لن يرغب مرة اخرى فى سرقة اموال الناس الشرفاء .

دونيا روزا ويداها المربربتان تسترخيان فوق بطنها المتورمة مثل قربة من الزيت ، تعد عين صورة ثور جيد التسمين ضد الجائع ، لا حياءً لديهم ! كلاب ! من اصابعهم التى تشبه اصابع السجق ، تنعكس جميلة ، وفخيمة تقريبا قطرات مصابيح النجف المقطرة .

بيبى ، بنظرات ذليلة ، يبتعد عن مالكة المقهى . فى اعماقه – وإن لم يع ذلك – يستقر ضميره مستريحا .

دون خوسيه رودريجوس دى مدريد يتحدث مع صديقين يلعبان الدومينو .

– انكما ثريان ، انها ثمانية قطع نقدية قيمة كل منها دورو ،

دورو انيق ، وبعدها كان على الناس ان ينطقوا ، يبتسم له احد اللاعبين :

– اقل قيمة من حجر فى الطريق .

– اقل من ذلك بقليل ماذا يصنع الواحد بثمانية دوروات ؟

– حقيقة – يا رجل – قليل ما يمكن صنعه بثمانية دوروات تلك هى الحقيقة ، لكن ، فى النهاية ، ما أقوله انا لكى يستريح الجميع ، انها ليست الا صفعة .

– نعم هذا صحيح فقد كسبتهم ، قبل وبعد كل شىء – بسهولة كافية .

بالنسبة لعازف الفيولين الذى القوا به فى الشارع لانه رفع صوته فى وجه دون خوسيه ، كان من الممكن ان يعيش ثمانية ايام بالثمانية دوروات ، كان سيأكل طعاما ردئيا وقليلا ، هذا صحيح ايضا ، كان سيدخن من سجائر الآخرين ، لكن كان يمكنه ان يطيل عمره ثمانية دوروات اسبوعا بتمامه . ومن المؤكد ان غيره كان من الممكن ان يعيش المدة نفسها بأقل من ذلك .

الآنسة البيرا تنادى على بائع السجائر :

– باديا

– حاضر يا أنسة البيرا !

– أعطنى ثلاث سجائر تريتون وسأدفع ثمنها لك غدا .

– طيب !

استخرج باديا السجائر الثلاث ووضعها على المائدة .

– هذه السيجارة الرابعة احتفظ بها لتدخينها فيما بعد ! انها السيجارة التى ادخنها بعد العشاء .

– حسنا ، انت تعرفين ان التعامل لدينا بالاجل !

ابتسم بائع السجائر فى مروءة الرجل الغزل . الآنسة البيرا ابتسمت له ايضا .

– اسمعى ! هل تحبين ارسال رسالة الى ماكاريو .

– نعم . قل له ليعزف مقطوعة لويزا فيرناندا الاوبريتية .

بائع السجائر يجر قدميه نحو منصة الفرقة الموسيقية . احد الزبائن ، وقد قضى برهة طويلة فى معاكسة صامتة بالنظرات والاشارات مع الآنسة البيرا ، قرر ان يذيب الجليد :

– انها جميلة ، الموسيقى الاوبريتية التى طلبتها . اليس كذلك يا أنسة ؟

الآنسة البيرا أجابت بهز رأسها . الزبون لم تنخفض روحه

المعنوية ، وانما اعتبر هز رأسها إشارة تعاطف .

– وايضا عاطفية جدا .

– الآنسة البيرا ادارت عينيها اليه تشجع الزبون اكثر :

– اتحبين – المسرح الغنائى . .

– نعم ، انه جيد . .

ضحك الزبون كما لو كان قد استمع إلى شىء فى غاية الطرافة ، وزحف قليلا ، وقدم نارا للآنسة البيرا ، واستمر :

– طبعا ، طبعا ، والسينما ، هل تعجبك السينما ؟

– احيانا . .

تكلف الزبون جهدا هائلا ، جهدا احمرّ له وجهه حتى طفر منه الدم . .

– ودور السينيما تلك المظلمة ! كيف ترينها ؟

الآنسة البيرا اظهرت احتراما للنفس وحذرا :

– انا اذهب للسينما لمشاهدة الفيلم فقط .

– طبعا ، طبعا ! وانا ايضا . . كنت اتكلم عن الشبان ، طبعا عن الشبان والشابات . كلنا كنا شبانا . اسمعى يا آنسة ، لقد لاحظت انك مدخنة ، بالنسبة لى ، حول تدخين النساء ، يبدو لى

شيئاً رائعا . قبل وبعد كل شيء : ماذا فيه من سوء ؟ احسن شيء ، ان يعيش كل واحد حياته . الا تتفقين معى ؟ اقول ذلك لانى . . علىّ الآن ان اذهب . فانا على عجل شديد . وسنلتقى فى يوم آخر كى نواصل حديثنا . لو سمحت لى ومنحتنى الشرف الكبير . . بأن اقدم لك علبة سجاير تريتون . .

الزبون يتحدث متسرعا مرتبكا . الآنسة البيرا اجابته بشيء من الاستهزاء . .

– حسنا ! ولم لا ؟ اذا كانت تلك نزوتك !

الزبون نادى بائع السجائر ، واشترى لها العلبة . سلمها لها مع أحلى ابتسامة ممكنة ، ثم ارتدى المعطف والتقط القبعة ، وانصرف . قبل ذلك قال للآنسة البيرا :

– حسنا يا آنسة ! لى الشرف الكبير . ليونثيومايسترى ، فى خدمة حضرتك . وكما اقول لك فاننا سنرى بعضنا فى يوم آخر . وربما نصبح صديقين ممتازين

* * *

المالكة تنادى على مدير المقهى – اسمه «كونسورثيو لوبث ، ومن ابناء توميوسو ، فى اقليم المدينة الملكية ، انها قرية كبيرة وجميلة ، وذات ثراء عريض . «لوبث» شاب وسيم ،

وايضا يتزين ، يداه كبيرتان وجبهته ضيقة . كسول قليلا ، ويدع «بذاءات» دونيا روزا تمر من بين رجليه . بالنسبة لهذه الحالة - تعود على القول - احسن شيء ان تدعها تتكلم ، وستتوقف وحدها ، كونسورثيو لوبث فيلسوف عملى والحقيقة ان فلسفته تعود عليه بأفضل النتائج ، ففى احدى المرات فى توميوسو ، وقبل مجيئه الى مدريد ، منذ عشرة او اثنى عشر عاما ، قال له شقيق خطيبة له ، لم يرغب فى تزوجها بعد ان انجب منها توأمين : «اما ان تتزوج من ماروخيتال أو أخصيك حيث وجدتك» . كونسورثيو ، كما انه لم يحب ان يتزوجها ولم يرغب كذلك فى ان يصير خصيا ، ركب القطار والقى بنفسه فى مدريد ، والامر تم نسيانه بالتدريج حيث انهم لم يطاردوه بعد ذلك . كونسورثيو يحمل فى حقيبة اوراقه دائما صورتين للتوأمين ، الأولى لهما عاريين فوق حشية ، والثانية عند اتمامهما اول «تعميد» وقد ارسلتهما اليه خطيبته ماروخيتا رانيرو ، والتى حملت حينذاك اسم زوجها : السيدة غيترز .

وكما نقول ، دونيا روزا نادت على المدير .

- لوبث !

- حاضر ، يا آنسة .

– كيف حال مشروب الفرموت ؟

– طيب ، على الأقل حتى الآن

– والأنيس ؟

– يتناقص

– إذن ، ماذا يشربون غيره ؟ الآن لست فى وضع من يستطيع الانفاق للشراء . ليس لى مزاج لذلك . تصرف فى الطلبات اسمع هل اشتريت ذلك ؟

– السكر ؟

– نعم /

– نعم . غدا سيحضرونه .

– على أربعة عشر وخمسين (١) .

– نعم ، كانوا يريدون خمسة عشر ، ولكن قسمنا البلد نصفين وخفضوا ريالين .

– حسنا ، أنت تعرف . ليس أكثر من كيس واحد ، ولا يخرج اكثر منه مهما كان السبب ؟

---

(١) فى ذلك الوقت كان السكر والزيت والملابس تدخل فى نظام تموينى وتباع فى السوق السوداء وتتم المساومة على الاسعار .

· تمام يا أنسة .

* * *

شاب الاشعار يجلس والقلم بين شفتيه ناظرا إلى السقف . فهو شاعر ينظم ابياتا ذات فكرة . فى هذا المساء انفكت اعاقته وجاءته الفكرة . الآن تنقصه فقط الحروف الصامتة . وفى الورقة ، قد انفض بالفعل من تسجيل بعضها . والآن يبحث عن شىء تتفق قافيته مع (نهر) على ألا يكون (صهر) او (نقر) او (قدر) .

يمر بباله الآن (شهر) [١] .

– احفظنى . . غبية تلك القشرة الصدفية . . صدفة رجل عامى . الفتاة ذات العيون الزرقاء . . أراد – مع ذلك – ان يصير قويا ، قويا جدا ، ذات عيون زرقاء وجميلة . . اما أن يغتال العمل ، او يغتال العمل الانسان . . تلك ذات الشعر الاشقر . موت ، موت ، دائما . . ويترك كتابا سريعا من القصائد . كم

---

(١) الكاتب يسخر من نظام القوافى والكلمات الاسبانية لا تحقق غرضه ومع ذلك اضعها حسب توالى الاقواس فى ترجمتنا (نهر ، عم ، تويج ، الاختيار (ضد الجبر) ، الصيف) .
وهذه الكلمات بالاسبانية لها نفس النهايات وتصلح قافية ، ما عدا كلمة تويج فلا تصلح الا بالتصحيف .

هى جميلة ! كم هى جميلة تلك . .

الشاب الشاعر أبيض ، أبيض جدا ، ويضع فى عروتيه وردتين من نسيج أحمر ، وردتين صغيرتين .

– الفتاة ذات العيون الزرقاء . . نهر ، نهر ، نهر . ذات عيون زرقاء وجميلة ، صهر ، قصر ، صهر . ذات الشعر الاشقر . القدر استعاد حالا قدره . . الفتاة ذات العيون الزرقاء . . يهتز فى متعة قدره . ذات عيون زرقاء وجميلة . . يريق قدره دفعة واحدة . الفتاة ذات العيون الزرقاء . . والآن قدرى بين يدى لم يمس الفتاة ذات العيون الزرقاء . . اما ان يدير وجهه نحو الصيف الاليف . الفتاة ذات العيون الزرقاء . . الفتاة ذات العيون . . كيف كان لون عيون الفتاة ؟ جانين محاصيل الصيف . . الفتاة . . هل للفتاة عيون ؟ لاران ، لاران ، لاران ، الصيف (١) .

الشاعر الفتى ، سريعا يحس بزوال صورة المقهى من رأسه ،

---

(١) (الفتاة ذات العيون الزرقاء العيون الزرقاء والجميلة ، ذات الشعور الشقراء ، كم هى جميلة كم هى جميلة!) انها كلمات من ابرويت (ثارثويلا) غنائى كوميدى مشهور يحمل اسم (اليوهيميا) . وتختلط كلماته هنا مع افكار الشاب الشاعر . ولعلنا نجد بعض الشبه بين هذا الشعر وشعر الحداثة غندنا حيث بدأ يظهر هذا الشعر فى اسبانيا فى أوائل القرن وقوبل بالستنكار فى مستوياته المتطرفة الغموض .

يرتعد قليلا مثل طفل فى حالة دوار ، ويحس بصعود حرارة حتى أم رأسه :

– أجدنى الى حد ما . . ربما أمى . . نعم ، صيف ، صيف . . رجل يحلق طائرا حول امرأة عارية ، لا ، أيها الصهر . لا . . حينذاك سأقوله لك . . أبدا . . العالم ، العالم . . نعم ظريف ، ظريف جدا .

على مائدة فى اعماق المقهى تتحدث – زبونتان تعيشان بفضل معاش الأرامل ـ عن الموسيقيين .

انه فنان حقيقى بالنسبة لى ، انها لذة كبرى الاستماع اليه . وقد قال لى ذلك من قبل «مرحومى» رامون فليمرح فى سلام ، تصورى يا ماتيلدى فقط فى طريقته لالقاء الفيولين على وجهه . ينبغى أن نرى ما هو حياة ! لو وجد هذا الفتى من يسنده لذهب بعيدا .

دونيا ماتليدى تصوب عينها نحو الهدف انها بدينة ، ووسخة ، ومتصنعة تهب منها رائحة كريهة ، ولها كرش هائل ، ملئ جميعه بالماء .

– انه فنان حقيقى ، صانع للالحان .

– نعم ، بكل حق . اننى اقضى اليوم كله انتظر هذه الساعة .

–وأنا أيضاً اعتقد انه فنان حقيقى . وعندما يعزف (بالاداء الذى يعرف كيف يؤديه) فالس الارملة الطروب ، احس اننى امرأة اخرى (١) .

– حقا ، تلك كانت موسيقى اخرى ؟ كانت أكثر رهافة . . أكثر عاطفية .

دونيا ماتيلدى لها إبن مونولوجست يقلد الفنانين ويعيش فى بلنسية .

دونيا اسونثيون لها ابنتان : ابنة متزوجة من موظف صغير بوزارة الاشغال العامة ، واسمه ميغيل كونتريراس ، سكرى إلى حد ما ، وابنة غير متزوجة، خرجت رغم انف أمها ، وتعيش فى بلباو مع أحد اساتدة الجامعة .

المرابى ينظف فم الطفل بمنديل ، عيونه براقة وودودة ، ومع انه لم يهندم نفسه جيدا ، فهو يبدو فى شىء من الهندام . الطفل شرب قهوة «دوبل» مع كعكتين من الكعك السويسرى .

دون ثالوث غارسيا سويرينو ، لا يفكر ولا ترمش له عين . هو رجل مسالم ، رجل نظام ، رجل يحب أن يعيش فى سلام .

---

(١) الأرملة الطروب اشهر اعمال «فرانزلهار» مايسترو الاوبريت (١٨٧٠ – ١٩٤٨) وقد افتتحت عام ١٩٠٥ ، وتمت اعادة تأديتها بشكل جديد بتدخل منه عام ١٩٤٠ .

حفيده يبدو مثل غجرى ، نحيل ، وذا كرش كبير . له غطاء رأس به طرطور ومعطف أيضا بطرطور ، انه طفل يمضى فى دفء شديد .

- ايها الشاب ، هل يحدث لك شىء ؟ هل تحس بمرض ؟

الشاب الشاعر لا يجيب . عيونه مفتوحة وجاحظة ، ويظهر عليه انه اصبح اخرس . فوق جبهته سقطت خصلة من الشعر .

دون ثالوث أجلس الطفل على الأريكة وأمسك بكتفى الشاعر .

- هل أنت مريض ؟

التفتت نحوهما بعض الرؤوس . الشاعر يبتسم بغباء .

- اسمع ، ساعدنى كى انهضك . من الواضح انك وقعت مريضا .

التوت ارجل الشاعر ، وسقط جسمه تحت المائدة .

- ساعدونى ، فأنا غير قادر وحدى على انهاضه .

تحرك الناس . ودونيا روزا تتأمل من «النصبة» .

أيضا ، خلق الفوضى مزاج عند الناس . .

أصابت الشاب ضربة فى جبهته عند سقوطه تحت المائدة .

- هيا نحمله إلى الماء ، لابد أن به دوار .

بينما كان دون ثالوث ، ومعه ثلاثة أو اربعة زبائن ، يتركون الشاعر فى دورة المياه حتى يستعيد قوته قليلا ، قام حفيده بالتهام لباب الكعك السويسرى ، الذى كان ملقى فوق المائدة .

- ان رائحة المواد المطهرة سوف تجعله يفيق ، لابد انه دوار .

الشاعر جالس على كرسى الحمام ، وقد اتكأ رأسه على الجدار ، يبتسم ببلاهة . . لقد كان سعيدا فى اعماقه ، وان لم يكن يدرى بذلك . عاد دون ثالوث إلى مائدته . .

- هل مرت الحالة ؟

- نعم لم يكن أكثر من دوار .

* * *

الآنسة البيرا تعيد الثلاث سجائر تريتون إلى بائع السجائر .

- وهذه الأخرى لك .

- شكرا ، كان هناك بعض الحظ ايه ؟

- اقل من قيمة حجر ملقى فى الطريق .

باديا وصف أحد معجبى الآنسة البيرا بأنه : جدى ، ولم تسترح لذلك الآنسة البيرا . منذ ذلك الحين صار بائع السجائر

أكثر احتراما لها .

بالنسبة لدون ليونثيو مايسترى كاد يقتله الترام . .

– حمار !

– لابد ان تكون حضرتك حمارا ، تعيسا ! فيم تفكر ؟

لقد سار دون ليونثيو يفكر فى البيريتا .

– انها جميلة ، نعم جميلة . هذا ما اعتقده . ويبدو عليها انها فتاة رهينة . . لا انها تحفة ، اليس كذلك ؟ ايهم يعرف ! كل حياة عبارة عن رواية ، يبدو عليها انها فتاة من عائلة طيبة . تشاجرت مع عائلتها . الآن ، لعلها تعمل فى أحد المكاتب بالتأكيد فى احدى النقابات . ملامحها حزينة ودقيقة . من المحتمل ان ما تحتاجه هو الحنان ، وان تدلل كثيرا ، وأن تلحظ بعين العناية طول اليوم .

لقد كان قلب دون ليونثيو يقفز من مكانه تحت القميص . .

– غدا أعود . نعم . دون شك . انها بشرى طيبة . . واذا لم أجدها ، سأبحث عنها . انفردت ياقة معطف دون ليونثيو ، وقفز فى الهواء قفزتين .

– البيرا ، الآنسة البيرا . انه اسم جميل . ان علبة التريتون أبهجتها ، أعتقد .

وربما دخنت منها سيجارة ستتذكرنى . . غدا سنردد لها الاسم . ليونثيو . ليونثيو . وربما تضع لى اسما اكثر حميمية . يشتق من ليونثيو . ليو . . اونثيو . . او نثتى . .سأحتسى بعض الجعة فقد انفتحت شهيتى .

دون ليونثيو ما يسترى القى بنفسه فى أحد البارات . وعلى حافة البار طلب كأسا من الجعة . التفت دون ليونثيو إلى الوراء . واستقبل ابتسامة ، بدت له خيانة ، أول خيانة تجاه البيريتا .

– لا ، البيريتا ، لا ، البيرا . اسم بسيط . اسم فى غاية الجمال

الفتاة التى تجلس على الكرسى «المتحرك» وراءه كلمته من فوق كتفيه هل تعطينى نارا ، أيها العم الجاد ؟

اعطاها دون ليونثيو النار وهو قريب من الارتعاد دفع الحساب وخرج إلى الشارع متعجلا .

– البيرا ، البيرا .

* * *

دونيا روزا قبل ان تبتعد عن المدير تسأله :

– قدمت القهوة للموسيقيين .

– لا .

– اذن ، هـيـا ، قدمها لهم . يبدو عليهم وكأنهم فى حالة اغماء . . اشباه رجال ! محتالون ! .

الموسيقيون فوق منصتهم يجرجرون آخر ايقاعات مقطوعة لويزا فرناندا ، تلك المقطوعة الحلوة التى تبدأ : .

فى ظل غابات بلوط

بلدى استريما دورا

عندى بيت صغير

هادىء ومأمون

وقبلها كانوا قد عزفوا مقطوعة خفيفة ، وقبل هذ كانوا قد عزفوا «أوبريت باقة الورود» الذى يتغنى ببنت مدريد الجميلة ، الزهرة اليانعة لبنات «غزل الحمام» .

دونيا روزا اقتربت منهم .

– أمرت بأن يحضروا لكم القهوة يا «مكاريو» .

– شكرا يا دونيا روزا .

– العفو . انت تعرف ان ما سبق وقلته لك يعبر عن احساس دائم ، فليس لدى اكثر من كلمة .

– أعرف ذلك يا دونيا روزا .

– إذن هو ذاك

عازف الفيولين ذو العيون الكبيرة والوثابة مثل عيون ثور ملول ، ينظر اليها اثناء لفه سيجارة . يزم فمه ، فى شبه استهزاء ، وقد ارتعد نبضه .

– وستحضرون القهوة ، ايضا من أجل سايوان .

– حسنا !

– « اظهر! » يا ولدى ، ألست جافا قليلا ؟

يتدخل ماكاريو ليعبث

– الحكاية ، انك تتجولين بهذا الكرش !

– لكن ، ليس من حقك أن تكون ثقيل الظل ، هكذا أقول أنا . ياربى من أدب هولاء الناس عندما تقترب الواحدة منهم لتقول لهم شيئا يقذفون بأرجلهم فى وجهها . وعندما ينبغى أن تكون ممتنا لم اقدمه لك من فضل ، يولون ظهورهم ويتكلمون . حسنا ! كما لو كانوا ماركيزات . هذا هو الأمر .

سايوان يصمت بينما يعطى زميله وجها مستبشرا لدونيا روزا . ثم بعد ذلك يسأل السيد الذى يجلس على المائدة المجاورة .

– والفتى ؟

– يستعيد قوته فى الحمام ، لم يكن هناك شىء .

* * *

«بيقا» الناشر ، يفتح علبة التبغ ويناولها للرجل اللعوب الذى هجر الابتسام فى المائدة المجاورة . هدىء نفسك ، لف سيجارة ، ولا تحمل هما . لقد مرت بى أيام أسوأ منك ، تعرف ماذا فعلت ؟ شرعت فى العمل .

صاحب المائدة المجاورة ، يبتسم مثل تلميذ امام الاستاذ ، بضمير متعكر ، والأسوأ انه لا يعى ذلك .

– اذن تستحق ما أنت فيه ! .

– طبعا يا رجل ، طبعا . اعمل ولا تفكر فى شىء أخر . والآن ها أنت ذا ترى لا ينقصنى سيجار ولا كأس فى كل الامسيات .

الآخر يؤدى حركة برأسه ، حركة لا تعنى شيئاً .

– وإذا قلت لك أننى أرغب فى العمل ولا أجد أين وماذا ؟

– أعرض عن هذا حتى تجد عملا لا ينقصك شىء سوى أن تكون لديك رغبة فى أن تعمل .

– يا رجل ! نعم ، لدى ! .

– ولماذا لا تحمل حقائب فى محطة القطار ؟

– لن استطيع ، ففى اليوم الثالث سينقصم ظهرى ، اننى خريج جامعة .

– وفى أى شىء ينفعك ذلك ؟

– فى الحقيقة ، هو قليل المنفعة .

– الذى يجرى لك ايها الصديق ، ولأمثالك كثير ، انكم هنا فى أفضل حال على موائد هذا المقهى ، تضعون يدا فوق يد ، دون الضرب بتلك اليد أو بالأخرى . وفى النهاية تسقطون مغمى عليكم مثل هذا الشاب المدعى ، الذى حملوه الى الداخل .

الجامعى يعيد اليه علبة التبغ ، ولا يحتفظ بها .

– شكرا .

– لا داعى للشكر ، هل أنت جامعى حقيقة ؟

– نعم يا سيدى ، نظام الثلاث سنوات .

– حسنا ، سأعطيك فرصة حتى لا ينتهى بك الأمر بالذهاب إلى ملجأ أو إلى طابور المرتزقة . تريد ان تعمل ؟

– نعم يا سيدى ! لقد سبق ان قلته .

– اذهب غدا لمقابلتى . خذ بطاقة . احضر صباحا قبل الثانية عشرة ، حوالى الحادية عشرة والنصف . اذا أحببت وأمكنك

ستبقى معى كمصحح ، فقد طردت ، هذا الصباح فى الشارع من كان يعمل معى مصححا بسبب تعجرفه وجهله .

الآنسة البيرا تنظر خفية إلى دون بابلو . الذى يشرح لأحد الديكة الشابة الموجود على المائدة المجاورة :

- الكربوناتو جيد ، لا يسبب أى ضرر . والاطباء لا يصفونه ، لأنهم لو فعلوا لما ذهب أحد إلى الطبيب .

الشاب مستقر دون أن يعطيه أية اهمية ، ويحملق فى ركبتى الآنسة البيرا ، اللتين يمكن رؤيتهما بصعوبة من تحت المائدة .

- لا تنظر هناك ، ولا تكن وقحا . ساحكى لك عنهما . انك لن تضيف اليهما شحما ! .

دونيا بورا زوجة دون بابلو ، كانت مع صديقة خشنة ، محملة بالجواهر الزائفة ، تقوم بتنظيف اسنانها الذهب بعود .

- لقد تعبت من تكرار ذلك ، ومادام هناك رجال ونساء ، فلابد من وجود ازمات . الرجل نار والمرأة له حينئذ دثار ! من ثم ، تحدث الاشياء . هذا ما أقوله من فوق سلم القطار (١) انه الحق . فلا أعرف عند أى حد سوف نقف .

السيدة الخشنة تكسر العود بين اصابعها دون وعى .

- نعم من ناحيتى ، انا أيضا أرى قلة التهذيب . هذا سببه

حمامات السباحة ، لا أشك فى ذلك . قبلها لم تكن كذلك . الآن يقدمون لحضرتك أية فتاة شابة . يسلمونك يدها ، وهكذا تبقى فى هذا الوضع المقزز طول اليوم وربما تلتقط الواحدة ما لا تملك . الا ترين ما أرى ؟ ومن يعرف لمن تم تسليم تلك اليد ! .

- صحيح .

- والسينما أيضا تحمل كثيرا من عبء الذنب . ذلك الامر من بقاء كل العالم مختلطا ببعضه ، وفى ظلام كامل لن يجلب خيرا .

- هذا ما أعتقده أنا ، دونيا ماريا . لابد من مزيد من الاخلاق والا بقينا ضائعات .

دونيا روزا تعود إلى حديثها المتطاول :

- واذا كانت تؤلمك المعدة ، فلماذا لم تطلب منى قليلا من الكربوناتو ؟ متى منعت عنك الكربوناتو ؟ أى انسان يشهد هذا ، يعرف انك لا تجد ما تقول .

تعود دونيا روزا وتسيطر بصوتها المرتفع والقبيح على كل مناقشات المقهى .

- لوبث ، لويث أحضر كربوناتو من اجل الفيولين !

رئيس الجرسونات يترك أدواته البالية على المائدة ، ويحضر

طبقا وبه كوب متوسط من الماء ، ومعلقة صغيرة و «سكرية» من فضة المانية يحفظون فيها الكربوناتو .

– ماذا ؟ هل فقدت الصوانى ؟

– هكذا اعطانى اياه السيد لوبث ؛ يا آنسة !

– هيا ، هيا ! ضعه وعد إلى عملك . .

رئيس الجرسونات يضع كل شىء فوق البيانو ، وينصرف .

سيوان يملأ الملعقة من المسحوق ، ويلقى برأسه إلى الخلف ، ويفتح فمه . . وإلى الداخل . يلوكه ، ثم يشرب دفعة من الماء .

– شكراً دونيا روزا

– هل رأيت يا رجل ، هل ترى حضرتك أن الأدب لا يكلف جهدا كبيرا ؟ انت تؤلمك معدتك وأنا آمر باحضار الكربوناتو ، والجميع أحباب . نحن هنا جميعا لكى يساعد كل واحد منا الآخر والذى يحدث أننا لا نستطيع ذلك ، لأننا لا نريد ، تلك هى الحياة.

الطفلان اللذان يلعبان لعبة القطار توقفا فجأة . أحد الزبائن يقول لهما : «يجب ان يكون لدى الناس بعض الأدب ، وبعض الانضباط . وهما لا يعرفان ماذا يعملان بأيديهما فينظران اليه

(١) تقصد بقولها «من فوق سلم القطار» مثل قولنا «على عينك يا تاجر» .

باستطلاع . واحد منهما ، الاكبر ، واسمه بيرنابيه ، يفكر فى جار له اسمه تشوس . الآخر ، الاصغر ، واسم باكيتو ، يفكر فى أن الزبون يفوح فمه برائحة كريهة .

– رائحته مثل المطاط المتعفن .

وبرنابيه يضحكه التفكير فى ذلك الشىء الطريف الذى حدث لتشوس مع خالته .

– تشوس ، انت خفيف الظل ، لدرجة انك لا تغير الجوارب حتى تفوح ، الا تخجل ؟

برنابيه يكتم الضحكة فالسيد قد تحول إلى انسان شرس .

– لا يا خالة ، لا أخجل فأبى أيضاً تفوح رائحة جوربه ، لقد كان أمرا مميتا من الضحك !

باكيتو بقى فى تأمل بعض الوقت .

– لا ، هذا السيد لا يفوح فمه برائحة المطاط المتعفن ، انها رائحة حشو المدافع من الخرق البالية ، مختلطة برائحة الاقدام .

لو كنت مكان ذلك السيد لوضعت فى أنفى شمعة منصهرة . ومن ثم ، اتكلم مثل ابنة العم اميليتا – وا ، وا – التى كان عليهم اجراء الجراحة لها فى الزور . وماما تقول : أنهم عندما يجرون الجراحة برقبتها . فإنهم سيزيلون عنها ذلك الوجه

الأبله ، ولن تنام بعد ذلك بفم مفتوح . وربما عند إجراء الجراحة تموت . وفى هذه الحالة سيضعونها فى صندوق أبيض لأنها حتى هذه اللحظة لم تنبت لها نهود ولم تلبس حذاء نسائيا ذا كعب عال . .

الزبونتان اللتان تتعيشان من معاش الأرامل متكئتان على الأريكة ينظران نحو دونيا بورا .

وحتى هذه اللحظة تطفو فى الهواء مثل مناطيد متجولة أفكار الببغاوتين حول عازف الفيولين .

– أنا لا أعرف كيف يمكن أن توجد نساء هكذا . هذه مساوية تماما للضفدع . انها تقضى اليوم فى النميمة . . ولا تدرى أن زوجها يتحملها فقط ، لأنها حتى الآن قد تبقى فى خزانتها بعض الدوروات . وذلك الدون بابلو ليس إلا محتالا . انه خال شديد الحذر . وعندما ينظر نحو الواحدة منا ، يبدو كما لو كان يعريها .

– صحيح ، صحيح ! .

– وتلك الأخرى المشهورة الـ (البيرا) ، لها أيضا اصدافها . ولأن الذى اقوله ، هو نفس ما تقوله بنتك الـ (باكيتا) ، فانها وقبل كل شىء تعيش مهذبة ، ولكن لو أعدنا ترتيب الأوراق

الخاصة بهذه ، تمضى هناك تدور مثل الدبور ، مبتزة نقود أيّا من كان لكى تطعم بها سما ! .

– وأيضا لا تقارنى – دونيا ماتيلدى – هذا المكشوف الوجه دون بابلو مع خطيب ابنتى ، وهو استاذ جامعى لعلم النفس والمنطق والاخلاق . انه رجل ولا كل الرجال .

– بالطبع ، لا . خطيب باكيتا يحترمها ويمنحها السعادة ، ويعطيها مظهرا محترما ، وهى أيضا ودودة فتجعله يحبها ، وهذا هو الامر . ولكن هولاء المكشوفات الوجه ليس لديهن ضمير ، ولا يعرفن أكثر من فتح الفم لطلب شىء . والعار لمن يعطيهن .

دونيا روزا تواصل حوارها مع الموسيقيين . سمينة ، تفيض من الجوانب ، وجسمها المتورم يهتز من متعة القاء الخطب ، تبدو مثل محافظ مدنى لأحد الأقاليم .

– هل أنت فى عجلة ؟ قل لى وأنا اهيىء لك الأمر ان كنت استطيع . فحضرتك تعمل ، وها هى نجمك فى صعود لأنك ، «تحك جلدك بظفرك كما أمر الله ؟» سأتركك الآن ، وعند الاغلاق أعطيك الدورو الخاص بك ونصبح خالصين . فالأفضل حسن المعاملة . لماذا تعتقد حضرتك سبب غيظى من زوج أختى ؟ إن له

غزوات بغى طوال الاربع والعشرين ساعة . ثم يأتى إلى البيت لكى يتناول الحساء الساخن . اختى - وهى بلهاء - تتحمله . المسكينة كانت هكذا دائما ! نفس الشىء حدث معى . من أجل وجهها الجميل ، كنت ، انا ، قد قضيت العمر أسعى باحثة عن الرزق حتى أقدم «خدمة العبد للسيد» ، وأعود آخر اليوم إلى البيت لأصب بين يديها ما كسبت . ذلك جميل ، إذا عمل زوج أختى كما أعمل أنا وإذا هز أكتافه لكى يحضر شيئا إلى البيت ، ولكن الرجل يفضل الاسترخاء ونيل الاسهل من الحياة والعيش بأيد ناعمة .

- طبعا ، طبعا .

- من ثمّ فالأمر هكذا ! صاحبنا كسول سيئ التربية ، ولد ليكون عالة . ولا تظن أننى اقول ذلك من وراء ظهره ولكننى سبق وقلته لك فى وجهك .

- لقد أحسنت .

- اذن ! فلماذا يحدث ما يحدث ؟

* * *

- هل هذه الساعة مضبوطة ، يا باديا ؟

- نعم يا آنسة البيرا .

– هل تعطنى نارا ؟ فلا زال الوقت مبكرا ؟

بائع السجائر أعطى النار للآنسة البيرا وقال :

– هل أنت سعيدة ، يا آنسة :

– هل تظن ؟

– يبدو لى أن روحك المعنوية أعلى من أمسيات مضت .

– أحياناً سوء الحظ يرسم بشرا على الوجه !

الآنسة البيرا لها مظهر ضعيف ، تقريبا مظهر بنات الليل فى آخر الليل . المسكينة لا تأكل ما يكفى ليجعلها تحمل مظهر نؤوم الضحى أو حتى ساهرة الليل .

وتلك ذات الابن الميت الذى كان يعد نفسه لوظيفة فى البريد تقول :

– حسنا ، أنا ذاهبة .

دون خايمى أرثى ، ينهض فى اجلال ، وفى الوقت المناسب ، ويتكلم مبتسما :

– فى خدمتك يا سيدتى ، والى غد ان شاء الله .

– إلى اللقاء ، ولتبق فى أحسن الاحوال .

– أبادلك نفس الأمانى ، انت فقط تأمرين .

دونيا ايزابيل مونتيز ، أرملة سانث ، تتحرك مثل ملكة . فى هيئتها البالية ، تبدو دونيا ايزابيل مثل عاهرة بلاط اغريقية مستهلكة ، من فرط ما عاشت من عز ، أصبحت مثل فراشة بهرها النور ، لم تدخر من صحتها فى شبابها من أجل شيخوختها . تعبر الصالون فى صمت وتتسلل من باب المقهى . الناس يتابعونها بنظرة يمكن ان تحمل كل شىء إلا اللامبالاة ، فقد تنم عن أعجاب ، أو حسد ، أو تعاطف ، أو عدم ثقة أو ود . من يعرف ؟

دون خايمى لا يفكر الآن ولا حتى فى المرايا ، ولا فى عجائز النساء ذوات الحياء ، ولا فى مرضى السل ممن يلجأون إلى المقهى (حوالى ١٠٪ تقريبا) ، ولا فيمن يبرون الاقلام، ولا فى الدورة الدموية .

بالنسبة لدون خايمى فهو يتعرض لغزو النوم مما يثقل كاهله .

– كم سبعة فى اربعة ؟ ثمانية وعشرون . وستة فى تسعة ؟ أربعة وخمسون . ومربع تسعة ؟ واحد وثمانون . من أين ينبع نهر إبرو ؟ من رينوزا اقليم سانتاندير . حسنا .

دون خايمى ارثى يبتسم . انه راض عن معلوماته ، وبينما

كان ينفض بعض أعقاب السجاير يكرر بصوت خفيض :

– اتاوولفو ، سخريكو، واليا ، تيودوريدو ، توريسموندو . . [1] من أجل ماذا لا يعرف ذلك هذا الاحمق ؟

هذا الاحمق هو الشاب الشاعر الذى يخرج أبيض مثل الجير بعد نقاهته فى دورة المياة .

– مسرجا فى أمواه الصيف . .

* * *

ترتدى ثياب الحداد – تقريبا – منذ طفولتها ، ولا أحد يعرف السبب . حدث ذلك منذ سنوات طويلة . وقذرة ومعبأة بالجواهر التى تساوى ثروة ، تسمن دونيا روزا كل الاعوام وتسمن ، شيئا فشيئا – تقريبا – فى عجلة مثلما تعبأ الغرف بالاغراض .

المرأة عريضة الثراء . ان البناية التى بها المقهى ملكها ، وفى شوارع ابوداكا ، وتشوراكا ، ومعسكر الحب ، وفوين كرّال ، توجد دستات من السكان يرتعدون مثل صبيان المدارس فى كل أول شهر .

تعودت على القول :

---

(١) أسماء ملوك القوط الغربيين الذين حكموا اسبانيا قبل الفتح العربى مباشرة ، وكان يتقرر حفظ اسمائهم فى المدارس قديماً .

– عندما تثق الواحدة منا فى الناس ، فانهم يستغلون الموقف ؛ انهم نهمون .

مجرد نهمين . لو لم يكن هناك قضاة شرفاء لما عرفت ماذا كان سيجرى لى .

دونيا روزا لها أفكارها الخاصة حول الشرف .

– الحسابات الواضحة – يا بنى – الحسابات الواضحة ، انها مسألة فى غاية الجدية .

لم تسامح أحدا قط فى ريال واحد ولم تسمح مطلقا لأحد أن يدفع لها على اقساط – لقد تعودت على القول :

– لماذا جعلوا «اخلاء المستأجر» ؟ لماذا لا يتم تنفيذ القانون ؟ فأنا لا أرى القانون الا من أجل ان يحترمه الجميع ، وأنا الأولى . وعكس ذلك هو الثورة بعينها .

دونيا روزا مساهمة فى أحد البنوك حيث تشد أذن كل مجلس ادارته . ويقولون فى الحى انها تخبىء صناديق من الذهب الخالص فى مكان أمين ، لم يعثروا عليه حتى خلال الحرب الأهلية .

اللمبيا انتهى من تنظيف حذاء دون ليوناردو .

– خادمك .

دون ليوناردو ينظر إلى الحذاء ، ويعطيه سيجارة تسعين .

– شكراً جزيلا .

دون ليوناردو لا يدفع نظير خدمته . لا يفعل ذلك مطلقا . انه يتركه ينظف له الحذاء نظير ايماءة .. دون ليوناردو سافل لدرجة تستفز موجات اعجاب الحمقى .

اللمبيا ، فى كل مرة يعطى بريقا لحذاء دون ليوناردو يتذكر الستة آلاف دورو الخاصة به . وفى الاعماق يشعر بالفخار لأنه أنقذ دون ليوناردو من أزماته . ودون ليوناردو لا يبدو عليه من الخارج أن شيئا يحركه ، تقريبا لا شىء .

– السادة هم السادة . أمر أكثر وضوحا من صفاء الماء . ومع انه الآن هناك بعض الفوضى الا أن من ولد سيدا ، يلحظ ذلك فيه من أول وهلة .

سيقوندو سيقورو الليمبيا ، لو كان مثقفا لكان – بدون شك – قارئا للمفكر باثكث ميا (١) .

الفونسيتو ، صبى المراسيل والرسائل ، يعود من الشارع ومعه الصحيفة .

---

(١) مفكر يمينى متطرف . نصير للملكية والتقدم فى ظل التراث حتى انه انشا حزبا يسمى الحزب التقليدى . عاش (١٨٦١ – ١٩٢٨) .

- اسمع يا خفيف المعانى ، أين ذهبت من أجل الجريدة ؟

الفونسيتو صبى ضامر ، عمره أثنتا عشرة أو ثلاث عشرة سنة . شعره أشقر ، ويسعل بشكل مستمر . والده - وكان صحفيا - مات منذ عامين فى مستشفى الملك . أمه ، عندما كانت بكرا كان لها بعض التأنق ، والآن تمسح بلاط بعض المكاتب فى شارع جران بيا [(١)] وتأكل فى دار ايواء اجتماعى .

- كان هناك صف يا آنسة

- نعم صف . الذى يحدث الآن أن الناس تضع نفسها فى طابور للحصول على الاخبار ، كما لو لم يكن لديهم شىء هام يعملونه . يا الله ! اعطنى اياها .

- جريدة الاخبار قد نفذت . احضرت لك «مدريد» [(٢)] .

- كله متساو فيما يمكن تصفيته من ركام . هل تفهم شيئا عن الحكومة الزائدة عن الحد التى تمضى طليقة فى الدنيا ، يا سايوان ؟

- ماذا ؟

---

(١) الشارع الذى يمثل وسط البلد ومركز مدينة مدريد .

(٢) الاخبار ومدريد جرايد المساء فى مدريد .

– لا ، يا رجل ! لا داعى لأن تخاف . لا تتكلم اذا لم تحب .

ساوان يبتسم بمرارة مريض بالمعدة ، ويصمت . ولماذا الكلام ؟

– الذى يحدث هنا هو صمت زائد عن الحد ، وابتسام زائد عن الحد . أنا اعرف . لكن حسن جدا . الا تريدون الاقتناع ؟ أنتم أيها السادة هناك . الذى اقوله لكم أن الأحداث والاعمال تصدح . . نعم ، تصدح .

الفونسيتو يوزع مدريد على بعض الموائد .

دون بابلو يستخرج بعض النقود .

– هل يوجد شىء ؟

– لا أعرف.. هناك سترى .

دون بابلو يفرد الصحيفة فوق المائدة ، ويقرأ العناوين . ومن فوق اكتافه يحاول بيبى القراءة .

الآنسة البيرا تشير للصبى .

– أترك لى صحيفة المقهى ، حين تفرغ منها دونيا روزا .

دونيا ماتيلدى التى تثرثر مع بائع السجائر أثناء غياب صديقتها فى الحمام ، تعلق فى استهجان :

– أنا لا أعرف لماذا يحبون أن يعرفوا كثيرا حول ما يجرى ، بينما نحن هنا هادئون . ألا تتفق معى .

– هذا ما أقوله أنا .

دونيا روزا تقرأ أخبار الحرب . .

– هذا تقهقـر كبير [1] لكن فى النهاية ، ســوف يصلحون ما فسد ! هل تعتقد – ماكاريو – انهم فى الآخر سوف يفعلون ؟
عازف البيانو يضع وجها متشككا :

– يمكن أن يحدث ، لو اخترعوا سلاحا ناجعا .

دونيا روزا تنظر لمفاتيح البيانو فى تحديق . لها هيئة حزينة وذاهلة ، وتتكلم كما لو كانت تحدث نفسها او تفكر بصوت عال.

– الحقيقة ، أن الالمان فرسان حسب شرع الله ، وقد وثقوا كثيرا فى الايطاليين الذين يخافون أكثر من الشاة . ليس الامر أكثر من ذلك .

يرن الصوت القاتم ، والعيون خلف العدسات أرقة وتقريبا حالمة .

– اذا كنت قد رأيت هتلر ، كنت قلت له : لا تثق ! لا تكن

(١) يشير إلى تقهقر دول المحور فى الحرب العالمية الاولى وهزائمهم التى بدأت عام ١٩٤٢ .

عبيطا ! ان هؤلاء بهم خوف يجعلهم لا يرون .

دونيا روزا تتنهد تنهيدة خفيفة .

– كم أنا بلهاء ! أمام هتلر ، ما أمتلكت الجرأة لرفع صوتى.

دونيا روزا تهتم كثيرا بمصير السلاح الالمانى . تقرأ بكل انتباه . يوما بعد يوم : التقارير الصادرة عن المعسكر العام للفوهرر ، وتقيم علاقات بين مصير الفوهرر ومصير مقهاها عبر توجسات غامضة لا تمتلك الجرأة على محاولة رؤيتها بوضوح .

«بيقا» يشترى الصحيفة ، وجاره يسأله

– أخبار طيبة ؟

بيقا رجل توفيقى .

– حسب من ؟

رئيس الجرسونات يواصل القول : حاضر ! ويجرجر اقدامه على أرض المقهى .

– أمام هتلر سأكون اكثر حياء من صبية فى خدر أمها . يجب أن يكون رجلا تخجل بحضرته النساء كثيرا . ان له نظرة نمر .

دونيا روزا تعود للتنهد . صدرها المهول يغطى رقبتها لثوان .

- هو والبابا ، [1] هما الرجلان اللذان يسحران أكثر .

دونيا روزا تضرب بيدها ضربة مفاجئة فوق مفاتيح البيانو وتغير من صوتها .

- حسنا !

ترفع رأسها وتنظر إلى سايوان .

- كيف حال سيدة أشيائك ؟

- أنها تشتد ، اليوم يبدو لى انها أفضل .

- سونسولز المسكينة ! كيف يحدث لها هذا مع كل طيبتها .

- نعم ، الحقيقة انها تمر بفترة سيئة للغاية .

- أعطيتها القطرات التى قال لك عنها دون فرنسيسكو .

- نعم ، أخذتها . لا يبقى لها شىء داخل الجسم ، فهى ترجع كل شىء .

---

(١) فى زمن الراوية كان البابا بيو الثانى عشر قد وقف بقوة فى صف فرانكو باعتباره محاربا ضد الحاد الشيوعية كما أيد هتلر . وظن الناس أن عصره بداية جديدة لحروب صليبية ضد الالحاد والمادية والماركسية فى أوروبا ، وكانت له شعبية كبيرة .

– اللهم رحمتك .

ماكاريو يعزف بنعومة ويمسك سايوان بالفيولين .

– ماذا تنوون عزفه ؟

– غزل الحمام . ما رأيك ؟

– هيا ، هيا !

تبتعد دونيا روزا عن منصة الموسيقيين بينما عازفا البيانو والفيولين باشارة معينة للمصاحبة الموسيقية يحطمان عجيج المقهى بتلك الايقاعات القديمة – الهى ! – تكرار وراء تكرار .

أين تذهبين بملاءة ماريلا ؟

أين تذهبين بالرداء سبيلا ؟ (١)

يعزفان دون استعمال نوتة . لا تنقصهما .

ماكاريو مثل تمثال فى مسرح عرايس . ويفكر :

وحينئذ سأقول لها – انظرى يا بنية ، لا يوجد ما يمكن صنعه بدورو فى الأمسيات وأخر فى الليالى ، وقهوتان ، قد تقولين – هى بالتأكيد ستجيبنى – لا تكن عبيطا ، ولسوف

---

(١) ببعض التصرف لتقفية السطر الثانى .

تـرى ؛ بالاثنين دورو من ناحيتك ودرس خصوصى يفرج به ربنا علىّ . ماتيلدى ، كم هى حسنة المرأى ، انها ملاك ، لو أحسنا الحكم . إنها تماما ملاك .

ماكاريو ، يبتسم من داخله ، ومن خارجه ، تقريبا ، تقريبا ، عاطفى سيىء التغذية ، ولم يكد يبلغ – فى تلكم الأيام – الثالثة والاربعين .

سايوان يوجه نظرات غامضة لزبائن المقهى ، ولا يفكر فى شىء . سايوان رجل يفضل ألا يفكر . كل ما يريد هو أن يمر اليوم سريعاً أسرع ما يكون ، ومثله العمـر .

* * *

التاسعة والنصف تعلنها الساعة الهرمة ذات الاعداد الصغيرة ، والتى تلمع كما لو كانت من ذهب . الساعة قطعة أثاث ثمينة أحضرها من معرض باريس [1] ماركيز شاب مغفل ومفلس كان قد راح يغازل دونيا روزا عام ١٩٠٥ .

---

(١) انعقد معرض باريس عام ١٩٠٠ وكان مخصصا للعمارة والفن ، وأطلق عليه معرض باريس العالمى ، وقد سبقه معرض آخر عام ١٨٨٩ ، وكان مخصصا للاعمال الهندسية الميكانيكية . وكان المعرضان افتتحا للعصر الذى نعيشه الآن : عصر التكنولوجيا والحداثة .

الماركيز الشاب والملقب بسانتياجو ، كان ذا منزلة كبيرة فى أسبانيا ، ومات مسلولا فى الاسكوريال . كان حينذاك فى شرخ شبابه ، وبقيت الساعة مستريحة فوق رخاء «نصبة» المقهى لكى تذكر ببعض الساعات التى قضياها معا ، دون أن تمنح دونيا روزا الرجل (الذى تصبو اليه) ودون أن تمنح للبيت الطعام الساخن فى كل الأيام . الحياة !

فى الطرف الآخر من المحل ، دونيا روزا تدخل فى مشادة شديدة العواصف مع أحد الجرسونات ، ومن خلال المرايا ، ومثلما كانت خيانة ! الجرسونات الاخرون ينظرون لما يحدث بقلق .

المقهى قبل مرور نصف ساعة سيبقى فارغا ، مثل رجل ثم مسح ذاكرته فجأة .

الفصل الثاني

هيا ، سكة السلامة .

– وداعا ، شكرا جزيلا ، حضرتك عطوف جدا

– عفوا ، الطريق من هناك . لا نريد ان نراك هنا بعد ذلك .

يحاول الجرسون ان يتخذ صوتا فيه كل الجدية : صوتا فيه احترام ، له لكنة جليقية [1] ملحوظة تخلو من العنف والتسلط فى كلماتها التى تصبغ جديتها بالعذوبة ، وبالنسبة للرجال الخضر العود ، فان شفتهم العليا ترتعد قليلا كما لو كانت تزغزها ذبابة خفية ، وذلك عندما تدفعهم قوة خارجية إلى ممارسة المواقف الخشنة .

– اذا احببت اترك لك الكتاب .

– لا ، احتفظ به لنفسك .

مارتين ماركو ، شاحب ضامر ، متسع البنطلون بالى السترة ، يحيى الجرسون رافعا يده حتى تمس الحافة الرمادية لقبعته الحزينة المقززة .

– وداعا ، شكرا جزيلا ، حضرتك عطوف جدا .

---

(١) جليقية : واحد من الاقطار المتعددة التى تتكون منها اسبانيا ، وشعبها مشهور بالطيبة المفرطة والطاعة والولاء .

– عفوا الطريق من هناك لا تعد للاقتراب من هذا المكان .

مارتين ماركو ينظر للجرسون يريد ان يقول شيئا جميلا .

– ستجد منى صديقا .

– طيب !

– أنا بالفعل قادر على رد الجميل .

مارتين ماركو يمسك بنظارتـه ذات الاطواق المعدنية الرخيصة ، ويشرع فى الرحيل تمر بجانبه فتاة ذات وجه معروف لديه .

– وداعا .

الفتاة تنظر اليه ثانية ثم تتابع طريقها ، انها فى ميعة الصبا ، وذات جمال بديع . مظهر ملابسها ليس جيدا بدرجة كافية . هيئتها لا توحى الا ببائعة قبعات . وكل بائعات القبعات لهن هيئة ملحوظة ، كما لو كن ربات بيوت مرضعات ممن يحسن الطبخ ، دمثات محبوبات ، يجدن الاناقة فى الملبس ويشرفنك لو اصطحبتهن فى أى مكان . انهن الطراز الذى تعود على بيع القبعات .

مارتين ماركو يندفع ببطء منحدرا فى شارع البوليفار ، طريق سانتا باربارا . الجرسون تمهل لحظة فوق الرصيف قبل

ان يدفع باب المقهى .

– يمضى دون ريال واحد فى جيبه !

تمضى الناس مسرعة ، ملفوفة فى معاطفها مولية الادبار من البرد . مارتين ماركو ، الرجل الذى لم يدفع ثمن القهوة التى شربها ، وينظر إلى المدينة كطفل مريض ومضطهد ، واضعا يده فى جيب بنطلونه . أضواء الميدان تلمع فى بريق جارح تقريبا عدوانى .

* * *

دون روبرتو جونثالث ، يرفع رأسه عن دفتر الحسابات المتضخم ، ويتحدث مع «المعلم» .

– الن يختلف معك الامر ، اذا اقرضتنى ثلاثة دورو على الحساب ؟ عيد ميلاد زوجتى غدا .

«المعلم» رجل رابط الجأش ، شريف يؤدى عمله الروليتى فى السوق السوداء مثل كل ابناء البيوتات الذين ينقص جسمهم المرارة .

– لابأس يا رجل .

– شكرا يا سيد رامون .

صاحب المخبز يسحب من جيبه حافظة نقود متضخمة مصنوعة من جلد العجول اللبانى ، ويعطى خمسة دورو لدون روبرتو .

- أنا مبسوط جدا منك - يا جونثالث - فحسابات المخبز تسير سيرا حسنا ، اشتر بالاثنين دورو الزيادة بعض الكلام الفارغ للاولاد .

السيد رامون يبقى للحظة صامتا . يهرش رأسه ويخفض صوته .

- لا تذكر شيئا لـ (باولينا) .

- ولا يهمك .

- ليس من أجل أى شىء . عارف ؟ أدرى أن حضرتك رجل فطن غير مسحوب اللسان لكن قد تفلت منك بعض الكلمات بالصدفة ، وخاصة اننا فى مشاجرات ثقيلة لمدة خمسة عشر يوما ، فى مثل هذه الحالة أنا الآمر الناهى كما تعرف حضرتك لكنك ايضا تعرف ان النساء . .

- ولا يهمك وعموما شكرا جزيلا ، لن أتكلم من أجل حساباتك الجيدة .

دون روبرتو يخفض صوته : ألف شكر .

– لا أريد شكرا ، كل ما أريده هو ان تعمل بمزاج .

كلمات صاحب المخبز تلمس اوتار النفس فى دون ربورتو ، ولو بالغ فيها بكرم ماطا تلك العبارات الودودة ، فإن دون روبرتو مستعد لعمل الحسابات له مجانا .

السيد رامون بين الخمسين والاثنين والخمسين عاما من عمره ، رجل هائل ، كث الشارب ، يميل إلى الحمرة ، رجل صحيح البدن والروح ، يحيا حياة شريفة لرجل ملتزم ، يستيقظ فجرا ، ليحتسى النبيذ الأحمر ، ويكهرب خادمات المنزل ، عندما وصل الى مدريد فى أوائل القرن ، احضر حذاء معلقا على ظهره حتى لا يستهلكه .

سيرته الذاتية لا تزيد على خمسة سطور . وصل إلى العاصمة بين الثامنة أو العاشرة من عمره ، اشتغل فى مخبز ، وظل يعمل به حتى بلغ الواحدة والعشرين من العمر ، حيث تم تجنيده ، ومنذ وصوله إلى المدينة حتى صار مجندا لم يصرف فلسا واحدا ، لقد ادخر كل شيء ، اكل خبزا وشرب ماء ، وكان ينام تحت النصبة ولم يعرف امرأة قط . وعندما ذهب للخدمة العسكرية وضع ثروته فى صندوق التوفير البريدى . وعندما اطلقوا سراحه من الخدمة العسكرية سحب نقوده، واشترى مخبزا . فى اثنى عشر عاما ادخر اربعة وعشرين ألف ريال ، كل

ما اكتسبه من اجر ، بمعدل يزيد قليلا على بيزيتا واحدة يوميا بأخذ متوسط ايام الرخاء وايام الشدة . تعلم خلال خدمته العسكرية القراءة والكتابة والجمع ، وفقد براءة العذرية ، افتتح المخبز . وتزوج ، وانجب اثنى عشر ولدا ، واشترى (أجندة للايام) وجلس يعد الزمان ويتفرج عليه اثناء مروره . الآباء الباتراركيون القدماء ، لابد انهم كانوا يشبهونه إلى حد كبير .

* * *

الجرسون يدخل المقهى ويلقى بنفسه مثل قطعه من الطوب فوق أحد المقاعد . والحرارة تلتهم وجه . يحس برغبة فى السعال ، بالأحرى السعال الخفيف كما لو كان يريد اقتلاع البلغم الذى استودعه برد الشارع فى حنجرته . ثم بعد ذلك يبدو عليه كأنه يمكنه النطق بطريقة أيسر . عند دخوله لاحظ ان أصداغه تؤلمه قليلا ، ولاحظ ايضا أو هكذا تخيل ؟ ان بريقا من الشبق يرتعد فى شارب دونيا روزا .

– اسمع ، تعال هنا .

– اقترب منها الجرسون .

– هل اتحفته ضربا .

– نعم يا آنسة .

– كم ؟

– اثنان .

– أين ؟

– حيث استطعت فى رجليه .

– أحسنت صنعا . انه محتال .

الجرسون يسلط شعاعا من الاشمئزازعلى عمودها الفقرى ، . لو كان رجلا حازما لأفرغ غيظه فى صاحبة المقهى ، ولكن لحسن الحظ ليس هو ذلك الرجل . المالكة تضحك من تحت لتحت ضحيكة قاسية . هناك أناس تتسلى بمشاهدة مصائب الآخرين . وحتى تتم المشاهدة عن قرب يزورون الأحياء البائسة لكى يتيمموا الخبيث منه ينفقون على هيئة هدايا بالية للجوعى ، وللمصدورين المتآكلين فى لفافات أجسامهم الرثة ، وللأطفال المهزولين منفوخين بالهواء ، ذوى العظام الخضراء ، وللصغيرات اللائى هن أمهات فى الحادية عشرة من عمرهن ، وللنساء الصعاليك فى اربعينياتهن الخريفية ، مأكولات الجلود بالبثرات : النساء الصعاليك اللائى لهن مظهر ملكات الهنود

الفارقات فى بثرات السارنا (١) ، دونيا روزا لا تعلو إلى تلك المرتبة . انها تفضل انفعال التسلية بمشاهدة المصائب داخل مقهاها . فحسب هذه الرعدة . . .

* * *

دون روبرتو يبتسم فى رضا . لقد كان مشغول البال خوف ان يفاجئه عيد ميلاد زوجته ، ولا ريال فى جيبه . لو حدث لكانت كارثة مهلكة .

- غدا ، أحمل إلى البنت فيلون بعض البمبون (يفكر) . البنت فيلو - كمخلوق - تشبه طفلا صغيرا ، تماما مثل صبى فى السادسة . سأشترى بعض الاشياء للصبيان بعشرة بيزيتات . سأتناول واحد فيرموت . . الذى يعجب الاطفال اكثر : كرة بست بيزيتات يمكن شراء كرة ممتازة إلى حد كبير . . .

دون روبرتو كان يفكر ببطء ايضا بشماتة . كانت رأسه مليئة بالنوايا الحسنة وببعض النقاط المعلقة . عبر طاقة المخبز

---

(١) يقصد الهنود فى أمريكا الجنوبية من سكان امريكا الأصليين ، والسارنا مرض جلدى مزمن يغطى الجلد ببثور تتكاثر بسرعة مذهلة فى كل مكان ما عدا الظهر ، وهو معد وتم اخيرا اكتشاف علاج له .

المطلة على الشارع دخلت بعض أسلحان فلامنكو (١) فيها مزازة حادة خالية من المعنى . فى البداية لم يعرف من كان يغنى : هل هو امرأة ام أنه صبى . لقد فاجأت الألحان دون روبرتو وهو يهرش شفتيه بكعب ريشة الكتابة .

على الرصيف المقابل كان هناك صبى على باب حانة يصرخ فى حشرجة :

انه محظوظ ذلك الطاعم

الخبز من يد غيره الغارم

هو دائما للوجوه يتأمل

هل تستبشر فى وجهه أو تتململ .

يلقون اليه من الحانة قطعتين من النقد ، وحبتين من الزيتون . الصبى يلتقطها من على الأرض متعجلا . الصبى فى حيوية ، فيه سمرة ونحول . يمضى حافيا ، وصدره العارى يصد الريح ، ويمثل حجم من عنده ست سنوات . يغنى (سولو) حافزا لنفسه بتصفيق من كفيه ومحركا ذيله فى ايقاع .

دون روبرتو يغلق الطاقة التى تبتلع ضوء النهار ، ويبقى

---

(١) غناء مصحوب بموسيقى عنيفة ورقص فيه كبرياء ، من اهم الفنون الشعبية الاندلسية .

واقفا على قدميه فى منتصف الغرفة كان يفكر فى مناداة الصبى ومنحه ريالا .

– لا . . .

عندما فرضت الروح الطيبة نفسها على دون روبرتو عاد اليه التفاؤل .

– نعم . . بعض البمبون . . البنت فيلو – كمخلوق – تشبه . . . برغم حيازة دون روبرتو لخمسة دورو فى جيبه ، الا انه لم يكن هادىء البال تماما . – وأيضا ، هذا اسلوب للرؤية المتشائمة للأشياء . أليس حقيقيا يا سيد روبرتو ؟

كان يخاطبه من داخل الصدر صوت خافت خجول وثاب .

– حسنا ، حسنا .

* * *

مارتين ماركو يتوقف عند فترينات محل أدوات صحية فى شارع ساجستا ، المحل يشتعل بالاضواء كما لو كان صالة عرض مجوهرات أو صالون حلاقة فى فندق كبير . الأحواض ؛ أحواض الغسيل تبدو وكأنها أحواض العالم الآخر ؛ أحواض الجنة . . صنابيرها تبرق ، وخزفها الصقيل يخفق ، ومرائيها الصافية تنطق . من بينها أحواض بيضاء وأحواض خضراء .. وردية..

بنفسجية ، سوداء . أحواض من كل الالوان . وهناك أحواض بانيو تضيء جمالا مثل أساور اللؤلؤ والياقوت . أمر شائع أيضا! تصب الماء فيها اجهزة اشبه بعجلة قيادة السيارة ، وقصارى تواليت ذات غطائين وصهاريج منتفخة رشيقة حتى انه يمكن الإتكاء عليها بالمرفق ، ويمكن حتى وضع عدد من الكتب المختارة بدقة فوقها على ان تكون مجلدة تجليدا جميلا . هولدرلين ، فاليرى ، كيتس فى الحالات التى يتطلب « الحذق » بعض الصحبة ؛ روبين داريو ، مالارميه (١) ، واهم من الجميع مالارميه من اجل تحللات البطن . أية سخافة !

مارتين ماركو يبتسم كما لو كان يعتذر لنفسه عما بدر لفكره ، ويرحل عن الفترينات ببريقها .

ويقول لنفسه : ان الحياة هى ذلك الشيء . قد ينفق احدهم لقضاء ضرورته بمزاج ما يكفى الآخرين أمثالنا للأكل عاما كاملا . هذا طيب ! ان الحروب تقوم لكى يقل عدد الذين يقضون حاجاتهم بمزاج ، فيتاح لنا طعام افضل قليلا . السيىء ، أن كل من هب ودب يعرف لماذا نستمر نحن المثقفين فى تناول الأكل الردىء ، وقضاء الضرورة فى المقاهى . دعك من هذا بحق الاله !

---

(١) اسماء عدد من الشعراء الاسبان والفرنسيين والإنجليز ، ويشير إلى كتبهم التى يمكن وضعها فوق صهريج (سيفون) قصرية الحمام !

المشكلة الاجتماعية تشغل بال مارتين ماركو . لا توجد اية فكرة واضحة لديه عن شيء ، مع ذلك فالمشكلة الاجتماعية تشغل باله ، فيخاطب نفسه احيانا .

– مسألة وجود فقراء واغنياء امر سيىء ؛ فمن الافضل ان نصير جميعا مثل أسنان المشط ، فلا اسراف فى الثراء ولا اسراف فى الفقر ، الجميع يدورون حول الوسط . ينبغى اصلاح الانسانية . ينبغى تعيين لجنة من الحكماء للاضطلاع بتعديل الانسانية . أولا ينشغلون بمسائل صغيرة مثل تعليم الناس النظام المترى ، وبعد التسخين يبدأون بالأمور الاكثر اهمية ، فيستطيعون حتى الأمر بهدم جميع المدن من أساسها لبنائها مرة اخرى متساوية مع بعضها فى كل مكان . فتكون شوارعها مستقيمة جيدا بتدفئة فى جميع البيوت فى الشتاء ، (وبتبريد فى الصيف) . ستكون التكلفة غالية نسبيا ، لكن البنوك بها ثروات تزيد على الحاجة ، لسعة برد فى شارع مانويل سيلبيلا ، ويقفز الشك عند مارتين فى أنه يفكر فى أشياء غبية .

– يا الهى من جمال الاحواض !

وعند عبور اسفلت الشارع كان على سائق احدى الدراجات ان ينحرف بقوة ليتجنب الاصطدام به .

* * *

يهبط احد الرجال بشارع جويا قارئا الجريدة ، وعندما تقع عليه أعيننا يكون مارا بمكتبة صغيرة اسمها : «غذ روحك يا سيد» يهبط الشارع معه صبية .

– وداعا يا سنيوريتو (١) باكو

الرجل يدير لها رأسه .

– أه هل هى انت ؟ الى أين تتوجهين ؟

– إلى البيت ، كنت فى زيارة اختى ؟ المتزوجة .

الرجل ينظر فى عينيها .

– ماذا ؟ هل لك – بعد – خطيب ؟ امراة مثلك لا يمكن لا يكون لها خطيب . .

الفتاة تضحك فى قهقهة .

– طيب ، أحمل بحرا زاخرا من العجلة .

– اذن ، مع السلامة يا بنية ، ولا تجعلينا نفتقدك . اسمعى . قولى للسنيوريتو مارتين – اذا رأيته – أننى سأكون عند الثانية عشرة فى بار نارباايث .

---

(١) سنيوريتو لقب تكريم للشبان ابناء العائلات ، ومع ذلك فيمكن استخدامه للمزاح أو للسخرية .

– طيب .

تنصرف الصبية ، ويتابعها باكو بنظراته حتى تغيب فى غمرة البشر .

– يا سلام يا ولد يا باكو ، كما لو كانت بقرة وحشية .

باكو السنيوريتو باكو ، يجد ان كل النساء جميلات . ولا يمكن معرفة ما اذا كان شهوانيا أو عاطفيا . فالفتاة التى حيته وشيكا تقع من نفسه – مثلها مثل كل النساء – موقع ملكة جمال اسبانيا حتى ولو لم تكن كذلك .

– كما لو كانت بقرة وحشية . .

الرجل يفكر بغموض فى أمه التى ماتت من سنوات . أمه كانت تضع شريطا أسود حول رقبتها كى يمسك باللغد . كانت ذات مظهر جيد حتى ان من يراها يحس – لأول وهلة – انها من عائلة كبيرة . جد باكو كان (جنرال) و (ماركيز) ومات فى مبارزة بالمسدسات فى (برقس) ، قتله نائب تقدمى اسمه دون ادموندو بايث باتشيكو ، رجل ماسونى وذو افكار منحلة .

كانت أشياء الفتاة تنبثق من وراء معطفها القطنى . أما حذاؤها فكان مشوها بعض الشىء . لها عيون صافية خضراء كستنائية فيها ملامح صينية نسبية .

كنت فى زيارة اختى ؛ المتزوجة خى ، خى . . . اختها المتزوجة . هل تتذكر يا بابكو ؟

دون ادمـونـدو بـايـث باتشيكو مات بالجدرى فى عام الكارثة (١) .

عندما كانت تتكلم الصبية مع باكو ثبتت نظرتها عليه . سيدة تطلب صدقة وفى حضنها رضيع ملفوف فى خلق بال ، وغجرية بدينة تبيع اوراق يا نصيب . عدد من العشاق . اثنين اثنين ، يتحابون فى وسط البرد وضد الريح والمد ، تتشبث اذرعهم بعضها ببعض فى قوة ، مسخنين يدا فوق يد .

* * *

ثلستيـنـو محاطا بزجاجات فارغة فى المخزن الخلفى من باره ، يحدث نفسه ، وثلستينو يحدث نفسه فى بعض الأحايين . أمه كانت تحدثه صبيا :

– مـاذا ؟

– لا شـىء ، أكلم نفسـى .

---

(١) يطلق الاسبان على عام ١٨٩٨ عام الكارثة ، وهو عام أزمتها الساحقة امام الولايات المتحدة وفقدان اخر مستعمراتها ومن بينها الفلبين وكوبا .

– أخ يا بنى ! ستصاب بالجنون .

أم ثلستينو لم تكن بنت أصول مثلما كانت أم باكو .

– اذن ، لن اعطيهم اياها ، سأقطعها إلى نتف ، لكن لن اعطيهم اياها . إما أن يدفعوا ما تستحق والا لن يحملوها من هنا . لا احب ان يهزأ بى احد ، لا ليس لى مزاج فى ذلك . انا لا يسرقنى احد ، هذا هو الاستغلال بعينه الذى يمارسه التجار . اما ان تكون عندك ارادة او لا تكون . رجل او لا رجل . سرقة «على عينك يا تاجر» . ثليستينو يشمر مريلته ويبصق بغيظ فترتطم بصقته بالأرض .

– فى هذه الحالة . . طيب !

* * *

مارتين ماركو يواصل السير ناسيا موضوع الدراجة سريعا .

– اذا كان قد مر بـ (باكو) بؤس المثقفين ، لكان قد عرف ان الله حق ! لكن ، لا باكو انسان ميت الاحساس لا يجرى له شىء . منذ أن ألقوا به فى هذا العالم يسير مثل ذكر الحمام دون عمل شىء قبل ذلك ، كان ينظم بعض الشعر بين الحين والحين ، لكن ما هو عليه الان ! لقد بشمت من قولها له ، انتهى ! لن اقولها له

بعد ذلك . ليبق حيث هو ! اذا فكر أن يلعب دور الصعلوك ، فسيظله ، هكذا تماما .

الرجل يحس بقشعريرة ويشترى (ابو فروة) - اربع حبات (ابو فروة) - من فم مترو فى ناصية (اخوان البارس كينتير) ، ذلك الفم المفتوح على مصراعيه ، مثل من يجلس على مقعد القدر ، والذى يشبة فتحة نفق لدخول «الأتومبيلات» والشاحنات .

يعتمد على السياج الحديدى حول الفم ليأكل ابو فروة على ضوء فوانيس الغاز ويقرأ شاردا لوحة الشارع .

- هؤلاء ، نعم ! من اصحاب الحظ . ها هم هنالك . فى شارع يقع بوسط البلد ، وتمثال فى حدائق الرتيرو . علَامَ نضحك ؟ !

مارتين عنده بعض اللمحات الخاطفة المبهمة من الاحترام والروح المحافظة .

- أية قرون ! كان ينبغى ان يفعلوا شيئاً ما داموا من عائلات بهذا السمو والرفعة . نعم ! نعم ! انهم يقولون ما لا يفعلون !

تتطاير برأسه مثل حمامات (العته) ، شرارات الضمير الذى يثقله .

- نعم ، وانها لفترة من حياة المسرح الاسبانى ، حلقة فكروا فى تغطيتها وافلحوا ، مسرح فيه انعكاس صادق للعادات

الصحيحة الاندلسية . . . يبدو لى كل هذا مفتقدا للرحمة ، يتفق تماما مع ارباض الاندلس واعيادها الفخيمة ذات التقاليد (١) . ماذا يمكننا عمله تجاه ذلك ! لكن هناك من يحاول ان يزحزحهم ! انهم هناك !

يغير من مزاج مارتين عدم وجود تحديد واضح لتصنيف قيم المثقفين . وها هى ذى قائمة منظمة من العقول !

- كله يتساوى . كلهم رجال نصابون . حبتان من (ابو فروة) كانتا باردتين والاخريان كانتا تتضرمان من الحرارة .

* * *

بابلو الونسو فتى شاب مفتول العضلات له هيئة خاصة لرجل اعمال حديث ، وله محبوبة اسمها لوريتا منذ خمسة عشر يوما . لوريتا جميلة ابنة لبوابة بشارع لاجاسكا . عمرها تسعة عشر عاما . لم تمتلك قط ولا حتى دورو واحد كى تتفسح به ، فضلا عن خمسين دورو لامتلاك حقيبة يد . وما كان لها ان تنال أى حظ فى الوجود مع خطيبها موزع البريد ، لقد شبعت من صحبته فى الاماكن الباردة حيث كانت تلتهب اطراف أصابعها

---

(١) يشير إلى موجة العنصرية الاسبانية فى اول عصر فرانكو ، وتجلياتها فى المسرح ابرزت اهم عناصر التراث الوطنى الاسبانى كما تبدو فى الاندلس .

وأذانها وتتورم . صديقتها (نجمة) ، خصص لها شقة فى شارع (مننث بيلايو) أحد أثرياء السوق السوداء لتجارة الزيت .

بابلو الونسو يرفع رأسه .

- مانهاتن .

- لا يوجد لدينا ويسكى امريكانى يا سيدى .

- يوجد عندك من هذا الويسكى ما أودعته عندكم هناك !

- حاضر .

بابلو يعود لالتقاط يد الفتاة .

كما قلت لك ، لوريتا . انه شاب ممتاز ، ولا يمكن ان يكون افضل مما هو عليه لكن الحاصل ، انك ترينه فقيرا منكوبا ، وربما بقميص متسخ لشهر كامل وأقدام تسلل من الحذاء .

- ياله من شاب بائس ! الا يفعل شيئا ؟

- لا شىء انه يمضى بأشيائه يقلبها فى رأسه ، ولكن فى نهاية المطاف ، لا يفعل شيئا . انه أمر مؤسف لانه ليست له سمات البلهاء .

- وهل يجد سقفا يؤويه ؟

- نعم فى بيتى .

– فى بيتك ؟

– نعم أمرت ان يضعوا له سريرا فى غرفة ملابس ، وهناك القى رحاله . على الاقل ، لن تمطر فوق أم رأسه ، وسيجد الدفء .

الفتاة التى عرفت البؤس عن كثب ، ترمق عيون بابلو ، وفى اعماقها يهزها الانفعال .

– كم انت طيب يا بابلو !

– لا ، يا غبية ! انه صديق قديم ، صديق من ايام ما قبل الحرب ، والآن يمر بفترة عصيبة ، وفى الحقيقة لم تمر به قط فترة غير عصبية .

– وهل معه شهادة جامعية ؟

بابلو يضحك .

– نعم يا بنية ! معه شهادة جامعية . لنتحدث فى أمر آخر . وكى تغير الموضوع عادت الى الموشح الذى بدأ منذ اسبوعين .

– تحبنى كثيرا ؟

– كثيرا ؟

– أكثر من أى انسان آخر ؟

– أكثر من أى انسان آخر .

– وستحبنى دائما ؟

– دائما .

– ولن تهجرنى أبدا ؟

– أبدا .

– حتى لو سرت بهيئة صديقك المتسخ ؟

– دعك من هذا الكلام الفارغ .

الجرسون ينحنى لوضع الطلبات على المائدة ويلقى بابتسامة .

– بقى شىء فى قاع الزجاجة يا سيدى .

– اتراه ؟

* * *

الصبى لم يقع على الأرض ، فقد ارتطم بأنفه فى الحائط ، ومن بعيد قال اربع حقائق حول المرأة . تحسس وجهه قليلا ، وواصل السير . وعند باب حانة أخرى عاد إلى الغناء .

بينما كان المعلم «الخياط» .

يقص بعض البنطلونات .

مر به فارس غجرى .

كان يبيع التينيا (ذات اللون الوردى) .

* * *

اسمع يا سيدى الخياط

اصنع لى بعض المحبوك من البنطلونات .

حتى (عندما اذهب إلى الكنيسة للصلاة) .

يرمقنى فى إجلال ابناء السرايات !

ليس للصبى وجه البشر . له وجه حيوان منزلى . وجه دابة قذرة ، دابة عدوانية فى حظيرة . وانها لقليلة اعوامه ، حتى تنطبع فى ذلك الزمان على وجهه - بفضل الألم - طعنات الغيظ او الاستسلام . على وجهه كانت تظهر انطباعات جميلة وساذجة ، انطباعات غبية لعدم فهم شىء مما يجرى . كل ما يحدث فى حياة الغجرى معجزة ، فقد ولد بمعجزة ، وبأكل بمعجزة ، ويعيش بمعجزة ، ولديه قوى للغناء بمحض المعجزة . بعد الايام تجىء الليالى ، وبعد الليالى تجىء الايام . وفى العام اربعة فصول : ربيع وصيف وخريف وشتاء . وتوجد حقائق يتم الاحساس بها داخل الجسم كالإحساس بالجوع

والرغبة فى التبول .

* * *

انتهت الاربع حبات ابو فروة سريعا ، وراح مارتين بفضل الريال الذى تبقى معه حتى محطة جويا (لمترو الانفاق) .

– نحن نمضى مسرعين تحت كل الجاثمين فوق قصارى دورات المياه . محطة كولمبوس : حسنا ، دوقات ، ومحاسبون وبعض الشرطة فى دار الحكومة . كم هم مختلفون ؛ يقرأون الجريدة او ينظرون فى رباط عنقهم . سيرانو : شبان وشابات . الشابات لا يخرجن بالليل . ان هذا الحى رائع حتى ساعة اختفاء الآنسات ، العاشرة . الآن هم يتناولون العشاء . بيلاثكس : آنسات اكثر عددا ، آنسات على الفرازة . هذا المترو شديد الرهافة . هل نتجه نحو الاوبرا ؟ حسنا ! هل ذهبت يوم الاحد إلى ساحة سباق الخيل ؟ لا ! جويا . [1] لقد انتهى ما كان يحدث .

يمثل مارتين عند نزوله على الرصيف دور الأعرج . يصنع ذلك بين الحين والحين .

– هل من الممكن ان اتناول العشاء فى بيت فيلو (دون دفع يا سيدتى ، ولماذا العجلة ؟) واذا لم يحدث . انظر . سيتكرر يومك

---

(١) كولمبوس ، سيرانو ، بيلاثكس ، جويا : أسماء محطات مترو الانفاق وهى تحمل أسماء مشاهير اسبانيا . والشخصية تحدث نفسها تحت الأرض فى هذيان يتخيل ما يجرى فوق الأرض .

هذا عاما !

(فيلو) اختـه ، زوجـة دون روبرتو جونثالث – دابة جـونثـالث ، كمـا يسميها صهـره – الموظـف بمجـلس النـواب ، وجمهورى من انصار الرئيس الكالا ثومار [1] .

عائلة جونثالث تعيش فى شارع ابيث ، فى شقة من الشقق الشعبية الموزعة بقانون سالمون [2] . انهم يحيون حياة مرقعة الفتوق ولكن بعد عرق كاف . هى تشتغل حتى تسقط اعياء ، لها خمسة اولاد وفتاة عمرها ثمانية عشر عاما ، وهو يعمل كل الساعات الاضافية التى يستطيع وحيث كانت : فى هذه الايام كان محظوظا ، فهو يشرف على دفاتر محل عطور ، حيث يذهب مرتين فى الشهر ، ويدفعون له خمسة دورو نظير المرتين . وفى مخبز يملكه بعض المتأنقين فى شارع سان برناردو ، يعطونه ثلاثين بيزيتا ، وعندما يدير الحظ له ظهره لا يجد ولا حتى (نفاخ النار) من اجل ساعاته الاضافية ، وهنا ينقلب دون روبرتو إلى رجل حزين ومنطو على نفسه بمزاج متعكر .

وبسبب هذه الأشياء التى تحدث ، فان اصهار دون روبرتو لا

---

(١)الكالا ثومارا : اول رئيس للجمهورية الثانية فى اسبانيا .

(٢) قانون صدر عام ١٩٥٥ لمواجهة البطالة حمل اسم الوزير الذى اقترحه .

يتمكنون حتى من رؤيته . مارتين يقول عن دون روبرتو: انه خنزير قلق ، ودون روبرتو يقول عن مارتين : انه خنزير غير مستأنس ، وليس له قوام .

إن أى شخص لن يدرك ايهما على حق . الشيء الوحيد الأكيد ، هو أن فيلو المسكينة تقف بين السيف والجدار ، وتمضى حياتها فى مداراة لكى تصارع الزمان بأحسن السبل المتاحة ، وعندما لا يكون الزوج فى البيت تقلى بيضة أو تسخن قهوة بالحليب وتقدمها لأخيها ، وعندما لا تستطيع لأن دون روبرتو (بصندله) وجاكتته القديمة قد قام باشعال فضيحة مخيفة للزوجة مطلقا على أخيها لقب الصعلوك الطفيلى . تحفظ ما يفيض من طعام فى علبة بسكويت قديمة من الصفيح ، وتنزلها له الشغالة إلى الشارع .

– هل هذا عدل يا بيتريتا ؟

– لا يا سنيوريتو .

– أه يا بنية ، لو لم تكونى مصدرا لبعض العذوبة داخل تلك الحموضة !

يحمر وجه بيتريتا : أسرع ، واعد لى العلبة ، الدنيا برد .

– البرد للجميع ، ايتها التعيسة !

– ارجوك سامحنى . .

سرد فعل سريع من مارتين .

– لا تضعى ما أقوله فى اعتبارك . هل تعرفين انك تتحولين إلى امرأة .

– دع ذلك ، واغلق فمك .

– اى ، بنيتى ! ها أنا ذا اغلق فمى ! هل تعلمين ماذا كنت سأفعله معك لو كنت ادنى ضميرا ؟

– اخرس !

– سأحدث لك فزعا .

– اخرس !

فى ذلك اليوم ، شاءت الصدف ان الزوج لم يكن فى البيت ، وأكل مارتين بيضته . وشرب قهوته .

– لا يوجد خبز . حتى كان علينا ان نشترى قليلا منه عن طريق السوق السوداء من اجل الاطفال .

لا يهم ما دام الامر كذلك فيلو ، انت طيبة جدا : قديسة حقيقية .

– لا تكن غبيا .

تضببت رؤية مارتين .

– نعم انت قديسة ، لكنك تزوجت ذلك التعيس ، ان زوجك تعيس يا فيلو .

– اخرس ، انه رجل شريف .

– هكذا انت . قبل كل شيء ، فقد انجبت له خمسة عجول لباني .

تمر لحظات من الصمت . في الجانب الآخر يسمع صوت خافت لطفل يصلي . . فيلو تبتسم .

– انه خابييرين ، اسمع ، هل معك نقود ؟

– لا .

– خذ هاتين البيزتتين .

– لا . لماذا ؟ إلى أين أذهب بهما ؟

– معك حق . لكنك تعرف ان من يعطي ما يستطيع . . .

– انتهى ! أعرف .

* * *

– هل طلبت الملابس التي قلت لك عنها ، لوريتا ؟

– نعم ، يا بابلو . المعطف يناسبنى جيدا ، ولسوف ترى كم سأعجبك به .

بابلو الونسو يبتسم ابتسامة ثور طيب لرجل لا يأخذ النساء بوسامته ، ولكن بحافظة نقوده .

– لا أشك فى ذلك . .

– فى هذه الفترة ، لوريتا ، يجب ان تدثرى نفسك . ويمكن للنساء ان يسرن انيقات وفى نفس الوقت متدثرات .

– طبعا .

– ليست مناظرة ! بالنسبة لى إنكن تسرن عاريات اكثر من اللازم . انظرى انا لا احب ان تغضبى الآن .

– لا ، بابلو . الان لا ، على أن اتسم بالحرص حتى يمكننا ان نكون سعيدين .

بابلو يجب ان يكون محبوبا .

– اود ان اكون الفتاة الاكثر جمالا فى مدريد ، حتى اعجبك كثيرا . . . احس ببعض الغيرة !

دونيا بيسيتاثيون تفكر فى ان واحدة من أنجح الوسائل لتحسين احوال الطبقة العاملة هى قيام سيدات الاتحاد

النسائى بعمل مسابقات للعب الورق على الطريقة الانجليزية بيناكل (١) وتمضى فى التفكير .

– أيضـا ، مـن حـق العمال ان يأكلوا ، مع ان كثيرا منهم حمر ، ولا يستحقون الاهتمام بشأنهم .

دونيا بيسيتاثيون طيبة القلب وتعتقد انه لا يجب قتل العمال جوعا ، شيئا فشيئا .

* * *

لم يمض وقت طويل ، إلا وقد عاد النور ، احمرت أولا أسلاك المصابيح خلال ثوان . حتى أشبهت الشعيرات الدموية ، ثم ينفجر وميض مشرق على حين فجأة ، فيغمر المطبخ . النور اكثر بياضا وقوة ، أمر لم يسبق له الحدوث قط حتى أن الأشياء والفناجين والأطباق التى كانت فوق أرفف المطبخ أمكن رؤيتها فى تحديد شديد كما لو كانت تحت ميكروسكوب ؛ كما لو كانوا قد انفضوا تّواً من صنعها .

– كل شىء يبدو جميلا يا فيلو :

---

(١) الاتحاد النسائى تشكل عام ١٩٥٦ فى ظل موجة ارتفاع الحماس القومى والكاثوليكى فى اسبانيا الذى كان رد فعل اللحرب الأهلية ، ولعبة بيناكل تتم باستعمال ٥١ كارتا مع اختيار كارتين يأكلان فى جميع الاحوال.

– ونظيفا .

– هذا ما اظنه .

ينزه مارتين بصره فى المطبخ كما لو كان لم يره من قبل . ثم ينهض ويلتقط قبعته . أطفأ عقب السيجارة فى حوض الغسيل ، ثم ألقاها بعناية شديدة فى صفيحة الزبالة .

– طيب يا فيلو ، أنا ماشى وشكرا لك .

– إلى اللقاء ، يا بنى ولم الشكر كنت أود بعمق أن اعطيك شيئا اكثر . . . ، هذه البيضة كنت احتفظ بها لى ، لقد وصف لى الطبيب أكل بيضتين يوميا .

– وهل هذا كلام ؟

– دعك من ذلك ، فأنت فى حاجة ملحة اليهما مثلى تماما .

– هذا حقيقى .

– أى زمن ! أليس كذلك يا مارتين ؟

– نعم ، فيلو . اى زمن ! ولكن ، سوف تتعدل الامور عاجلا أو آجلا .

– وهل تظن ؟

– لا أشك فى الأمر ، فقد صارت الأحوال مدمرة ، غير

مقدور عليها ، شيء له قوة المد .

يتجه مارتين نحو الباب ويغير من صوته حتى يشبه صوت زوجها .

– أخيرا . . . وبيتريتا ؟

– هل وصلت ؟

– لا يا امرأة ، لقد فعلتها أنا لوداعها .

– دعها فهى مع الولدين الصغيرين ، فهما خائفان وهى لا تتركهما حتى يناما .

فيلو تضحك مضيفة قولها : وأنا أحيانا أخاف ايضا ، أتخيل اننى سأموت فجأة . . .

عند هبوط السلم يمر بزوج أخته الذى كان يصعد بالأسانسير . كان يقرأ الجريدة . يشتهى روبرتو فتح احد الأبواب حتى يتركه معلقا بين طابقين .

* * *

لوريتا وبابلو يجلسان وجها لوجه ، وبينهما زهرية رشيقة بداخلها وردات ثلاث .

– هل يعجبك المكان ؟

- كثيرا .

الجرسون يقترب ، انه جرسون شاب انيق الملبس ، شعره اسود متجعد ، وحركاته فيها لباقة ، لوريتا عندها مفهوم مباشر وسريع للحب والولاء .

بالنسبة للآنسة : حساء وسمك موسى بالفرن وخس . ولى حساء ، وسمك لوبينا مسلوق بالزيت والخل .

- لن تأكل شيئا آخر ؟

- لا ، يانينا ، ليس لى نفس .

يلتفت بابلو للجرسون .

- نصفين من النبيذ الجيد ، اعتقد هذا يكفى .

لوريتا تداعب من تحت المائدة ركبة بابلو .

- أنت تعبان ؟

- لا ، متعب ، لا ، لقد بقيت طوال المساء فى مشكلة مع المعدة . ولكن انتهت الأزمة ، واقفلى الموضوع .

العاشقان ينظر كل منهما فى عيون الآخر ، ومرفقاهما مستقران فوق المائدة . يلتقط كل منهما يد الآخر فتتزحزح

الزهرية قليلا .

فى ركن يوجد فتى وفتاة يداهما منفصلتان .

ينظران إلى العاشقين فى حملقة علنية .

– من هذا الغزو الجديد لبابلو ؟

– لا أدرى ، شكلها خادمة ؛ هل تعجبك ؟

– ليست رديئة . .

– حسنا، اذهب معها ، اذا كانت تعجبك ، فلا اظن أنها تصعب عليك كثيرا .

– بدأنا الغم ؟

– الغم يبدأ من ناحيتك انت . دعنى فى حالى فليس لدى مزاج للمشاجرة ؛ هذه الأيام لست أتحمل المزاح الثقيل .

الرجل يشعل سيجارة .

– انظرى يا مارى تيرى ! هل تعرفين ما أقول ؟ بهذه الطريقة لن نذهب بعيدا فى علاقتنا .

– انك تعجبنى جدا ! ! اتركنى اذا أردت. ألَيس هذا ما تسعى اليه ؟ حتى هذه اللحظة عندى من يطيق النظر إلى وجهى .

- يوجد صوت منخفض عن ذلك ، فليس لدينا سبب لأن نفضح انفسنا .

*   *   *

الآنسة البيرا تلقى بالرواية على الكومودينو بجوار السرير ، وتطفىء النور . أسرار باريس (١) استقرت بجوار كوب ماء متوسط الحجم ، وجوارب نسائية مستهلكة . وقلم أحمر شفايف يوشك على النضوب .

قبل النوم ، تفكر الآنسة البيرا قليلا .

- من الممكن ان تكون دونيا روزا عندها حق قليلا وربما كان أفضل العودة إلى العجوز . بهذه الطريقة لن أستطيع المواصلة .

الآنسة البيرا تكتفى بالقليل ، ولكن ذلك القليل لا تحوزه أبدا . لقد تأخرت كثيرا فى فهم بعض الأشياء ، وعندما تعلمتها ، كانت بين أيديهم بعيون أصابها العمش ، واسنان اكلتها عوامل التعرية وسوداء . وهى الآن تكتفى بعدم الذهاب للمستشفى ، وبالقدرة على مواصلة الحياة فى قعر بئر البؤس . وعلى الارجح ، فإن حلمها الذهبى بعد بضع سنوات سيكون سريرا

---

(١) يشير بشكل غير مباشر ان الرواية التى ألقتها الانسة البيرا إما رواية بوليسية وإما جاسوسية تدور فى باريس .

فى مستشفى بجوار حرارة أنابيب التدفئة .

الغجرى الصغير يعد كوما من القطع النقدية تحت فانوس الشارع . لم تمض معه الامور بشكل سيىء . لقد جمع بالغناء من الواحدة بعد الظهر حتى الحادية عشرة مساء «دورو» واحدا وستين سنتا . بالدورو يحصل من أى بار على خمس قطع نقدية من فئة الخمسين (نصف دورو) . ما اسوأ استبدال النقود بالبارات .

الغجرى الصغير ، يتناول العشاء كلما استطاع . فى حانة فى الشوارع الخلفية ، وراء شارع الاعزاء هابطا اليها عبر شارع الملائكة . العشاء طبق لوبيا ، وخبز ، واصبع موز مما يكلفه ثلاث قطع نقود من فئة العشرين .

الغجرى الصغير يجلس وينادى الجرسون ، ويعطيه القطع الثلاث ، وينتظر حتى يقدم له الطعام ، وبعد العشاء يواصل الغناء حتى الثانية فى شارع اتشيجراى ، ثم بعد ذلك يحاول ان يأخذ الترام (شعبطة) .

الغجرى الصغير لابد ان يدور عمره حول السادسة .

* * *

فى آخر نارباتيث ، يقع البار حيث يلتقى – كل ليلة باكو مع مارتين . بار صغير يقع على يمين القادم صاعدا فى الشارع قريبا من جاراج قوات الشرطة المسلحة . المالك يسمى ثلستينو أورتث ، وكان (قومندان) فى قوات الزعيم الجمهورى سيبيريا نوميرا ، خلال الحرب الاهلية ، وهو رجل يميل للطول ، نحيف ، حواجبه كثة ، تزينه بعض آثار الجدرى ، وفى يده اليمنى يضع سوارا من الحديد السميك ، يغطيه طلاء ملون مرسوم عليه صورة الكاتب الفوضوى ليون تولستوى . لقد طلب اعداد هذا السوار فى شارع كوليخياتا . يستعمل طقم اسنان صناعيا يخرجه من فمه ، ويضعه على النصبة كلما احس بضيق منه . ثلستينو يحافظ – فى عناية – على نسخة قذرة ومتهرئة من مؤلف نيتشة «الفجر» . والكتاب بالنسبة له قاعدة حياة : دينه . يقرأه فى كل حين وحين ، ويجد فيه دائما حلا لمشكلاته الروحية يقول عنه :

– الفجر : عبارة عن تأملات حول الاوهام والزيف الاخلاقى . اى عنوان جميل للكتاب !

غلاف الكتاب عليه دائرة بيضاوية عليها صورة المؤلف واسمه وعنوان الكتاب ، وثمنه – اربعة ريالات – وفى اسفل دار النشر : ف . سمبير وشركاه ، ناشرون ، شارع برج الحمام رقم ١٠ ، بلنسية ، شارع الدردار رقم ٤ ، مدريد (فرع) ، ترجم

الكتاب عن الالمانية بدرو جونثالث بلانكو . وفى الغلاف من الداخل يظهر شعار (الناشرون) : صورة نصفية لفتاة ترتدى قبعة الجمهوريين التى احيطت بالغار ، وفوقها كتبت كلمات الشعار : فن وحرية .

توجد فقرات كاملة يحفظها ثلستينو عن ظهر قلب وعندما يدخل البار افراد من شرطة الجاراج ، يخفى ثلستينو الكتاب تحت النصبة فوق دولاب زجاجات الفرموت . ويحدث نفسه :

– انهم من ابناء الشعب مثلى ، لكن : من يعلم ؟ !

ثلستينو ، وقساوسة الريف يظنون ان نيتشة شديد الخطر على الدولة . وقد تعود عند حضور افراد من الشرطة على تلاوة بعض الفقرات فى مواجهتهم ، دون ان يقول لهم عن مصدرها .

– الاشفاق ترياق الانتحار ، لأنه شعور يجلب لذة التفوق فى جرعات صغيرة .

افراد الشرطة يضحكون .

– اسمع ثلستينو ، هل كنت مرة فى حياتك قسيسا ؟

– ابدا ! (ويواصل التلاوة) السعادة – كانت ما كانت – تعطينا الهواء والنور وحرية الانطلاق .

يضحك حرس الشرطة فى قهقهة :

- وماء الشرب .

- وتدفئة مركزية .

يشعر ثلستينو بالاهانة ، ويبصق فى وجوههم هذه الكلمات باحتقار :

- انكم مجموعة من الجهلة البؤساء .

من بين جميع الحرس الذى يدخل البار يوجد شرطى جليقى متحفظ ، يحس نحوه ثلستينو بشعور طيب ، ويتعاملان بلقب (حضرتك) دائما .

- اسـمـع - حضرتك - يا ريس . هل تقول نفس الشىء دائما .

- دائما يا غارسيا ، ولا أخطىء فى حرف واحد

- اذن فحضرتك ذو جدارة !

* * *

السيدة ليوكاديا متغضنة فى خمارها ، تبرز يدا .

- خذ ثمانية ، من الحجم الكبير .

- مع السلامة .

- هل معك ساعة سنيوريتو ؟

السنيوريتو يفك ازرار ساعده ، وينظر فى ساعة يد سميكة من الفضة .

– نعم ، على وشك الحادية عشرة .

فى الحادية عشرة ، يأتى ابنها لاصطحابها . لقد اصبح أعرج فى الحرب الاهلية ، ويعمل الآن مقاول أنفار للعمل الاجتماعى فى بناء الوزارات الجديدة . الابن – الذى هو طيب جدا ، يساعدها على حمل عدتها ثم يمضيان معا وقد تشبث كل منهما بذراع الآخر للنوم . الأم والابن يصعدان نحو كوبروبياس ويميلان فى اتجاه نيكاسيو جليقى . واذا بقيت من تجارة الأم بعض حبات (ابو فروة) يأكلانها معا ، واذا لم يبق يجلسان معا على أية غرزة ، ويشربان قهوة بالحليب جيدة التسخين . صفيحة الكربون المشتعل تضعها العجوز بجوار سريرها ، لتظل بعض جذواتها مشتعلة حتى الصباح .

* * *

مارتين ماركو يدخل البار فى لحظة خروج الشرطة . يقترب منه ثلستينو .

– لم يصل باكو بعد . لقد كان هنا فى المساء . وطلب منى ابلاغك بأن تنتظره .

يأخذ مارتين ماركو الهيئة الفاترة لرجل مهم :

– حسنا !

– ماذا تشرب ؟

– قهوة سوداء .

أورتث ينشط قليلا بالكنكة ، يعد السكارين ، الكوب ، الطبق ، الملعقة . يخرج من وراء النصبة ويضع القهوة على المائدة ويتكلم . يلاحظ فى عينيه – التى تلمع قليلا – انه بذل مجهودا عظيما لخلع الكلمات من حنجرته :

– هل قبضت حضرتك ؟

مارتين ينظر اليه كما ينظر إلى كائن شديد الغرابة .

– لا ، لا لم أقبض . لقد سبق وان قلت لك إن ذلك يحدث فى الأيام ٥ ، ٢٠ من الشهر .

ثلستينو يهرش فى رقبته :

– أصل الحكاية . . .

– ماذا ؟

– بهذه القهوة ، يصبح حساب حضرتك اثنين وعشرين بيزيتا .

– اثنان وعشرون ؟ حسنا ، سأعطيها لك . وأظن اننى دائما كنت أدفع لك مادام معى نقود .

– أعرف .

– اذن ؟

مارتين يجعد جبهته ويجوف صوته .

– لا أكاد أصدق اننا دائما نردد نفس الاغنية ، كما لو كنا لا تربطنا أشياء كثيرة .

– حقيقى . لكن فى الآخر اعذرنى ، فقد حضروا اليوم لتحصيل الضرائب .

مارتين يرفع رأسه فى كبرياء واستهانة ، ويدق شرار نظرته فى حبة بارزة فى ذقن ثلستينو .

مارتين يرسم عذوبة فى صوته فقط للحظة .

– ماذا عندك فى ذقنك ؟

– لا شىء حبة دمل .

مارتين يعود لتقطيب وجهه ، ويعود صوته قاسيا .

– تحملنى – حضرتك – ذنب تحصيل الضرائب ؟

– يا رجل ! لم أقل ذلك .

– لقد قلت شيئا قريبا جدا من ذلك ، يا صديقى ! ألم نتكلم بشكل كاف عن مشكلة توزيع الثروة والنظام الضريبى ؟

يتذكر ثلستينو معلمه (نيتشة) وينفش ريشه .

– أنا – ولو دقوا الطبول – لا أدفع ضرائب .

– وهذا ما يشغلك أيها المنافق ؟

مارتين ينظر اليه فى تحديق ، وفى شفتيه ابتسامة نصفها احتقار ونصفها الآخر اشفاق .

– وأنت تقرأ نيتشة ؟ لقد استفدت منه اقل من القليل . إنك بورجوازى صغير بائس !

– يا ماركو !

مارتين يزأر مثل أسد :

– اذا كنت تصيح ، ناد على أصدقائك من الشرطة .

– حرس الشرطة ليسوا بأصدقائى !

– اذن ، اضربنى اذا اردت ، لا يهُم ! ليس معى نقود ، هل تدرك ذلك ؟ وليس فى ذلك ما يمس الشرف .

مارتين ينهض ، ويخرج بخطوات المنتصر . وعند الباب يستدير .

– لا تبك حضرتك ، أيها التاجر الشريف ، عندما تكون معى نقود سأحضر لك الأربعة دورو والبيزتتين . سأحضرها لك حتى تدفع الضرائب ، وتبقى مستريحا ، هناك مع ضميرك ! وقيد هذه القهوة على الحساب ، واحتفظ بها لنفسك حيث شئت ، فاننى لا أريدها .

ثلستينو يبقى مترددا حائرا حيث هو لا يدرى ماذا يصنع . يفكر فى فتح ام رأسه بسيفون المياه لوقاحته . لكنه يتذكر معلمه : الاستسلام للغضب اشارة على الاقتراب من الحيوانية . يسحب كتابه المخبأ تحت النصبة ، ويحفظه فى الدرج . هناك ايام تستفز حتى أحلام نيتشه .

* * *

بابلو يطلب تاكسى .

– ان الوقت مبكر للذهاب إلى أى مكان ، ما رأيك فى ان نضع انفسنا فى سينما لكى نكسب وقتا !

– كما تحب . انت تعرف – يا بابلو – أن المسألة هى أن نبقى قريبين جدا .

خادم المقهى وصل . بعد الحرب لم يعد يرتدى الخدم قبعة .

– التاكسى ، يا سيدى .

– هيا بنا ، يا نينا ؟ شكرا .

بابلو يساعد لوريتا على ارتداء المعطف . وفى السيارة ، تسر فى أذنه :

– أى لصوص ، لم نتجاوز المسافة بين عمودى نور ، والعداد ضرب ستة بيزيتات ، تصور ؟

* * * *

* *

مارتين يتعثر بباكو وهو على وشك الوصول إلى ناصية دونيل . فى اللحظة التى يستمع فيها إلى (مرحبا) يمضى مفكرا .

– لقد كان بيرون [١] معه كل الحق . اذا كان لى ابن فسأجعل منه انسانا مبتذلا : محاميا أو قرصانا .

يضع باكو يده فوق كتفه .

– أنت غريب ، لماذا لم تنتظرنى ؟

مارتين يأخذ مظهر من يمشى نائما أو من يهذى مستيقظاً .

---

(١) هذه العبارة : (اذا كان لى ابن . .) قالها اللورد بيرون ، وقد استعملها بكثرة كل الكتاب الحداثيين بهدف نقد المحامين ودورهم المريب فى السياسة ، بجانب التعبير عن النظام اللاأخلاقى الذى يلتهم الأخلاقيين .

– كنت على وشك اغتياله . خنزير !

– من ؟

– (بتاع) البار .

– (بتاع البار) ؟ أى تعيس مسكين ! ماذا صنع لك ؟

– يذكرنى بمستحقاته . وهو يعرف اننى عندما املك ادفع !

– لكن ، يا رجل ! ربما كان محتاجا للنقود !

– نعم ، لدفع الضرائب ! انهم جميعا من نفس الشاكلة .

ينظر مارتين نحو الارض ، وقد خفض من صوته :

– اليوم طردونى (ركلا) من قهوة اخرى .

– ضربوك ؟

– لا ، لم يضربونى ، لكن النية المبيتة كانت واضحة . لقد بشمت يا باكو .

– اهدأ يا رجل فالأمر لا يستحق .. إلى أين تذهب ؟

– للنوم .

– هذا أفضل شىء تحب أن نلتقى غدا ؟

– كما تحب . اترك لى رسالة فى بيت فيلو . سأمر بهم غدا

– حسنا .

– خذ الكتاب الذى يعجبك . هل أحضرت لى الأوراق ؟

– لا لم استطع . غدا سأرى ما اذا كنت استطيع احضارها .

* * *

الآنسة البيرا تتقلب فى سريرها . انها فى حالة من الكرب . أيهم كان سيقول : إن الأرق بسبب التخمة التى أصابتها من العشاء الدسم . تتذكر طفولتها ، ومشرحة المجرمين فى فيلالون . انه مشهد يقفز إلى ذاكرتها أحيانا . ولكى تتخلص منه ، فإنها تطفق فى ترديد الصلوات حتى تنام . وفى بعض الليالى ، يصبح المشهد اكثر عنادا ، فتضطر إلى ترديد الصلاة من مائة وخمسين إلى مائتى مرة متواليات دون توقف .

مارتين يقضى لياليه فى منزل صديقه بابلو الونسو ، على سرير جاف فى غرفة الملابس . يحمل مفتاحا للشقة نظير ثلاثة شروط ليس إلا : ألا يطلب بأية حال من الاحوال نقودا ، وألا يصطحب احدا إلى الغرفة ، وأن يغادرها يوميا فى التاسعة والنصف صباحا ، ولا يعود اليها الا بعد الحادية عشرة ليلا . الاتفاق لم يضع فى حسبانه إحتمالات المرض .

عندما يخرج مارتين فى الصباح من منزل الونسو ، يذهب

ليضع نفسه فى بهو ادارة التليفونات او بنك اسبانيا ،. حيث الدفء وامكانية كتابة الاشعار على ظهر نموذج التلغراف أو نموذج ادخال نقود فى الحسابات الجارية .

وعندما يحبوه الونسو بجاكتة مما يتخلص منه من ملابس جديدة تقريبا فانه يجرؤ على الاطلالة برأسه بعد ساعة الغداء فى صالة فندق بالاس . ومع انه لا ينجذب كثيرا إلى الأوساط الفخمة – وهذا حق – الا أنه يحب ان يجرب كل البيئات .

* * *

دون لبونثيو مايسترى استقر فى تابوتة . واشعل سيجارة.

كان سعيدا بشكل لم يسبق له نظير . وكانت ترن بداخله فواصل دونا اى موبيل من اوبرا ريجوليتو لفردى . فى اعادة توزيع خاص . وفى شبابه ، حمل دون ليونثيو الوردة الطبيعية فى بعض ألعاب الأزهار التى تقام فى وطنه الأصغر : جزيرة مينورقا .

كلمات الأغنية كانت – كما هو طبيعى – فى مدح سنيوريتا البيرا وتكريمها . والذى كان يشغله – بشكل لا حل له – هو أن البيت الأول يحمل نبرا نشازا . وكانت هناك ثلاثة حلول :

١ – أوه البيريتا الجميلة (بضم التاء) .

٢- أوه ، البيريتا الجميلة (بتسكين التاء) .

٣- أوه البيرتا الجميله .

ولم تنفع أية واحدة من الثلاث حالات ، ومع ذلك فالحالة الأولى يظهر نبرها فى نفس مكان نبر أغنية دونا أى موبيل .

دون ليونثيو ، بعيون محملقة ، لم يدع دقيقة تمر دون تفكير فى الآنسة البيرا .

- مسكينتى ! لقد كانت لديها رغبة فى التدخين .

وقد أصبحت - لينثيو - فى احمرار الورود نفسها وانت تهديها علبة السجائر . . . دون ليونثيو كان غارقا فى ذكرياته الغرامية لدرجة انه لم يحس ببرودة صفائح تابوته تحت كفليه .

* * *

السيد ساورس ترك التاكسى عند الباب . صارت عرجته فى غاية الملاحة . أمسك بعدساته الخطافية ، ودخل الاسانسير . سنيور ساورس يعيش مع أمه . يتعايشان بشكل ممتاز حتى أن العجوز قبل نومها تذهب الى سريره كى تغطيه وتمنحه بركاتها .

- هل انت بخير ، يافلذة كبدى ؟

- بأحسن حال . ماهى العزيزة.

- طيب تصبح على خير . تغط جيدا ، ولا تعرض نفسك للبرد ولتسترح . وحتى غد، ان شاء الله .

- شكرا ماميتا ، لك مثل ما قلت ، إعطنى قبلة .

- خدها يا ولدى ، ولا تنس تلاوة صلواتك .

- لن انسى ، مامى . مع السلامة .

السنيور ساورس عمره حوالى خمسين عاما . امه تكبره بعشرين ، او باثنين وعشرين عاما .

السنيور ساورس وصل الطابق الثالث شقة (ث) . اخرج مفتاحه وفتح الباب . فكر فى ان يغير ربطة عنقه ، وتمشيط شعره والتعطر قليلا ، واختراع سبب طيب وجيه لمغادرة البيت فورا مرة أخرى إلى التاكسى .

- مامى !

صوت سنيور ساورس يرن عند النداء على أمه منذ مدخل الشقة ، وذلك كلما عاد إلى البيت ! كان صوتا يحاكى صوت متسلقى الجبال فى تيرول الذين يظهرون فى بعض الافلام .

من داخل الغرفة المواجهة المضاءة ، لم يجب احد .

– مامى ! مامى ! أى ، يا الهى ، وكأنى لم أدخل ، مامى !

السنيور ساورس مدفوعا بقوة غريبة قليلا ، اندفع فى ممر الشقة . هذه القوة الغريبة قليلا ؛ من المحتمل ان تكون غريزة حب الاستطلاع .

– مامى !

وتقريبا ويده فى مقبض الباب ، اتجه سنيور ساورس بظهره إلى الخلف ، خرج هاربا . ومن الباب عاد يكرر :

– مامى ! مامى !

بعد ذلك ، لاحظ ازدياد سرعة دقات قلبه ، ونزل السلم درجتين درجتين .

– خذنى إلى طريق سان خيرونيمو ، امام الكونجرس .

حمله التاكسى إلى طريق سان خيرونيمو . امام الكونجرس .

* * *

ماوريثيو سيقوبيا عندما اصابه الملل من رؤية وسماع دونيا روزا تهين جرسوناتها ، نهض وغادر المقهى .

– أنا لا أدرى ايهما أكثر بؤسا ، هل عجلة البحر القذرة

الحدادية هذه أو هذه العصبة من المغفلين . آه ، لو اعطوها مجتمعين «علقة» محترمة فى يوم من الايام !

ماوريـثـيـو سيقوبيا طيب القلب مثل كل ذوى الشعر الأحمر ، ولا يستطيع ان يتحمل الظلم . انه يتصور كأمر واقع ان الجرسونات استطاعوا اتحاف دونيا روزا «بعلقة» محترمة لانه رأى ان دونيا روزا تعاملهم معاملة سيئة ، هكذا – على الاقل – يتعادل الطرفان . ثم بعد ذلك يمكن العد من جديد.

– ان الامر كله ليس الا مسألة اكتمال الصورة : اذا كانت هى الزند فلم لا يكونون الحجر ؟

* * *

دون ابراهيم دى اوستولاثا اى بوفارول ، عدل نفسه امام المرآة ، ورفع رأسه ، داعب لحيته ، وصاح :

– أيها السادة الاكاديميون : لا أريد ان أشد انتباهكم وقتا اطول . . الخ ، الخ (اذا خرج ذلك مفخما . . الرأس تتحرك فى كبرياء . . وينبغى الانتباه لتحريك القبضه ، فأحيانا تتشنج منبسطه وكأنها ستقلع طائرة) .

دون ابراهيم أشعل البايب ، وشرع فى الحركة جيئة وذهابا فى الغرفة . بيد على مسند الكرسى وأخرى معلقة فى البايب ،

مثل عادة بعض التماثيل ، واصل :

– كيف السماح – كما يود سنيور رحيم دى دييقو – باعتبار الامر الواقع مبررا لاكتساب حقوق لمجرد ممارسة هذه الحقوق ؟ يبدو للعيان الاتساق الهش لهذه المقولة ، يا سادتى الاكاديميين . أسف للالحاح ، واسمحوا لى ان اعود مرة اخرى لدعوتى القديمة للمنطقية ؛ بدونها لا شىء فى عالم الافكار يصير ممكنا . (هنا بالتأكيد ستحدث تمتمة الاستحسان) . أليس واضحا – أيها السناتورات اللامعون – انه لاستعمال شىء يجب ان تكون مالكه ؟ اننى أرى فى أعينكم انكم تقولون : نعم (من المحتمل ان احد المستمعين سوف يردد فى صوت هادىء : واضح ، واضح) . اذن لاستعمال شىء يجب امتلاكه . واذا قلبنا الجملة سلبا ستؤكد : لا يستعمل شىء دون سابق ملكيه له .

دون ابراهيم ، يقدم قدما نحو الشّمْعدان . داعب بحركة رشيقة ثنية جاكتته . مهندم فى بدلته الرسمية يبتسم :

– هذا طيب ، ايها السادة الاكاديميون ، فكما لكى نستعمل شيئا يجب ان نملكه فإنه لامتلاك شىء يجب الحصول عليه . لا يهم مقابل ماذا . فقط اقول يجب الحصول عليه ، فلا شىء ، لا شىء مطلقا يكون مملوكا قبل الحصول عليه (ربما يقاطعنى

التصفيق . من المناسب ان اكون مستعدا لذلك) .

يرن صوت دون ابراهيم بوقار كما لو كان طنين وردة الرياح ، وعلى الجانب الآخر من الجدار ، الزوج وقد عاد من العمل يسأل زوجته .

– هل نينا عملت «الكاكا» كعادتها ؟

أحس دون ابراهيم بشيء من البرد ، فعدل قليلا وضع تلفيعته . وفى المرآة كان يظهر رباط اسود ، يرتديه فى المساء على البدلة الرسمية .

* * *

دون ماريو دى لابيقا الناشر ذو السيجار كان قد ذهب للعشاء مع الجامعى ذى السنوات الثلاث الدراسية .

– انظر ، تعرف ماذا سأقول لك ؟ لا تذهب غدا لرؤيتى ؛ غدا انهب لاستلام العمل . بالنسبة لى أحب انجاز الاشياء هكذا بالتدريج .

الآخر فى البداية – بقى قليلا حائرا . كان يود أن يقول له انه من الافضل ان يذهب بعد يومين لكى يأخذ وقتا للانتهاء من بعض الأشياء الصغيرة ، ولكنه فكر انه مستعد لان يقول له : لا .

– اذن لا شىء . شكرا جزيلا . سأحاول اداء العمل بافضل ما أملك من معرفة .

– هكذا ستخرج رابحا .

دون ماريو دى لابيقا ابتسم :

– اذن ، اتفقنا والآن ، كى نبدأ بقدم خير ، أدعوك للعشاء .

– يا رجل . . .

قاطعه الناشر :

– هيا ، اذا لم يكن لديك اى ارتباط أخر ، لا أريد ان أكون ثقيلا .

– لا ، لا، لا تضع فى اعتبارك . حضرتك لست ثقيلا فى شىء . العكس تماما . ليس لدى أى ارتباط .

الجامعى استجمع عزمه واضاف :

– الليلة ليس لدى أى ارتباط ، وأنا تحت امرك .

فى الحانة دون ماريو صار ثقيل الظل نوعا ما ، وقال له انه يعجبه ان يعامل مرؤوسيه معاملة طيبة ، وان يجعلهم فى مزاج طيب ، وان يعطيهم الفرصة للازدهار . . وان ينظر اليه

مرووسوه نظرتهم إلى الاب ، وان ينتهى الامر بمرؤوسيه ان يشعروا بود نحو المطبعة .

– بدون تعاون بين الرئيس والمرؤوسين لا توجد اية وسيلة لازدهار العمل . واذا ازدهر فللجميع ، للمرؤوسين وللمالك . انتظر دقيقة ، حتى اعمل مكالمة تليفونية ، يجب ان اترك رسالة .

الجامعى بعد الخطاب السقيم الطويل لسيده الجديد ، ادرك تماما ان دوره هو دور المرؤوس ، واذا لم يكن قد فهم كل شىء ، فقد افهمه دون ماريو فى منتصف العشاء حيث اندفقت منه بعض الكلمات :

– حضرتك ستلتحق بالعمل بستة عشر بيزيتا ، لكن حول عقد العمل ، فلا تفتح فمك ، مفهوم ؟

– نعم يا سيدى ! مفهوم .

* * *

السنيور ساورس ترجل من التاكسى امام الكونجرس ، ووضع نفسه فى شارع البرادو بحثا عن المقهى حيث كانوا ينتظرونه ، وحتى لا يلاحظ أحد لعابه الذى تجمع حول فمه لم ينزل من التاكسى على باب المقهى .

– آه ، يا ولدى ! أنا مرهق لابد أن شيئا فظيعا يحدث فى

بيتى ، فأمى لا ترد .

عند دخول المقهى صار صوت السنيور ساورس أكثر جرسية مما هو معتاد . كان تقريبا صوت مشادة بين جرسونتين .

– دعك من ذلك ، ولا تتعجل النتائج ربما كانت نائمة .

– أى ، هل تعتقد ؟

– هذا أكيد فالعجائز ينمن فى الحال .

صديقه كان رجلا متصعلكا ، رباط عنقه أخضر ، حذاؤه ذهبى ، جوربه مخطط ، اسمه خوسيه خيمنس فيقيراس . ومع حسن مظهره السمح ، ولحيته المتصلبة ونظرته الافريقية ، فقد اطلقوا عليه اسم استهزاء : البذرة المشقوقة .

السنيور ساورس ابتسم تقريبا فى خجل .

– كم أنت مليح يا بذرةً

– اخرس يا دابة ، قد يسمعونك ! – أى – أيتها الدابة ، كم أنت كثير الحنان !

السنيور ساورس تحرك قليلا ، ثم تصلب متأملا .

– ماذا يمكن أن يكون قد حدث لماميتا ؟

– تحب أن تصمت ؟

السنيور خيمنس فيقيراس الملقب (بالبذرة المشقوقة) ، لوى معصم سنيور ساورس ، الشهير باسم (المصوراتى) .

– اسمع يا أفطس ، هل جئنا من أجل الانبساط أم من أجل أن تفتح اسطوانة ماما العزيزة ؟

– أى ، بذرة ، معك حق فلا تتشاجر معى ، فالحكاية انى أحس أن قميصى ينخلع عن جلدى !

* * *

دون ليونثيو أخذ قرارين أساسيين : أولا : أن الآنسة البيرا ليست امرأة عادية ، كما يلاحظ من وجهها . الآنسة البيرا فتاة رهيفة من أسرة طيبة ، وقد حدثت خلافات بينها وبين أهلها ، فانفصلت عنهم ، وقد أحسنت صنعا .يا للفاجعة ! لنر هل هناك حق – كما يظن كثير من الاباء – يخول وضع الابناء تحت الحذاء طوال الحياة ! لقد تركت الآنسة البيرا بيتها – بالتأكيد – لأنها عاشت سنوات فى ظل تفرغ عائلتها كى تجعل حياتها مستحيلة . يا للفتاة المسكينة ! فى النهاية كل حياة عبارة عن سر غامض ، لكن الوجه يظل يؤدى وظيفة المرآة للروح .

– بأى رأس يمكن تصور أن البيرا يمكن أن تكون من النساء إيّاهن . يا الهى كيف يمكن ! .

دون ليونثيو بات غير مستريح من نفسه بعض الشيء .

القرار الثانى لدون ليونثيو كان الاقتراب – بعد العشاء – من جديد من مقهى دونيا روزا ليرى ما اذا كانت الآنسة البيرا قد عادت إلى هناك .

– من يعلم ! اولئك الفتيات المحزونات سيئات الحظ ، اللائى حدثت مشاكل بينهن وبين أهلهن ، هن أشد أنصار المقاهى تحمسا حيث تعزف الموسيقى هناك .

دون ليونثيو تعشى بمنتهى السرعة ، ونظف أسنانه بالفرشاة ، وأرتدى – مرة أخرى – المعطف والقبعة ، وسار نحو مقهى دونيا روزا ، لقد خرج ناويا أن يعيد الكرة فى جولة جديدة بمقهى دونيا روزا .

* * *

ماوريثيو سيقوبيا ذهب لتناول العشاء مع أخيه ارمنخيلدو ، الذى جاء إلى مدريد ليرى امكانية حصوله على منصب سكرتير فرع النقابة الوطنية المركزية فى قريته .

– كيف تمضى شؤون حياتك ؟

– يا فتى تمضى – اذن . . اعتقد أنها تسير سيرا حسنا .

– نعم هذا المساء كنت مع دون خوسيه ماريا ، الذى يعمل بالسكرتارية الخاصة لدون روسيندو ، وقال لى : انه يؤيد تعيينى بكل اهتمام . وسنرى ما يفعل الجميع هل تعتقد – أنت – أنهم سعينوننى ؟

– لا أدرى يا فتى . أحياناً أجد أن الامور ملك يمينى ، ثم يبدو لى أننى لن أنال الا ركلة فى ظهرى . وهذا الوضع الذى يجعل الواحد معلقا لا يدرى له دورا هو أسوأ الأمور .

– لا تفقد الأمل ، وقد خلقنا الله جميعا من نفس الطينة ، وأنت تعرف أن من يريد شيئا سوف يكلفه تحقيقه بعض العناء.

– نعم ، هذا ما أظنه .

الأخوان تعشيا بعد ذلك ، وتقريبا أمضيا كل الوقت صامتين .

– اسمع ، حكاية الألمان تقترب من قطع الرؤوس .

– نعم فأنا أشم رائحة قرون تحترق ! .

* * *

دون ابراهيم دى اوستولاثا اى بوفارول تصنع عدم الاستماع

للامر وعاد الى تعديل التلفيعة ، ووضع يده على مسند الكرسى وواصل :

- نعم أيها السادة المبجلون ، من تشرف بالحديث أمامكم ظن أن أحدا لن يقلب فى وجهه الصفحة (ألا يحمل موضوع قلب الصفحة هذا لهجة شعبية قليلا ، روحا مبتذلة إلى حد ما ؟) مطبقين المفهوم التشريعى الذى يشغلنا ، ستكون النتائج المنطقية السالفة . . (أليست العبارة طويلة نسبيا ؟) ويمكننا - من ثم - أن نؤكد انه كما لكى نستعمل شيئا يجب أن نملكه ، فانه بالتوازى لممارسة أى حق مهما كان يجب امتلاكه أيضا (وقفة)

جار الجانب الآخر من الجدار يسأل زوجته عن اللون ، وزوجته تخبره أن اللون كان طبيعيا .

- والحق لا يمكن امتلاكه - كما هو معروف - دون سابق حيازة له . أعتقد أن كلماتى واضحة مثل المياه المنسابة لجدول شفاف . (اصوات : بالطبع ، بالطبع) اذن لممارسة حق ينبغى حيازته ، لأنه لا يمكن ممارسة شىء ، ليس ملك يمينك (طبعا ، طبعا !) ، كيف يناسب أن نفكر ، فى حسم علمى ، ممارسة حق . . . لم تتم حيازته بعد ؟ (تمتمة ملحة من الموافقة والاستحسان) .

جار الجانب الآخر من الجدار يسأل :

– هل وضعت لها القصرية بنفسك ؟

– كنت مستعدة بها ، لكنها (عملتها) وحدها . اشتريت عليهة سردين لأن أمك قالت أن زيت علب السردين أحسن لهذه (المسائل) :

– ولا يهمك ، نأكله على العشاء ، وعلى الارض السلام . أما موضوع زيت علب السردين ، فتلك من تخاريف أمى .

الزوج والزوجة يبتسمان فى حنان . . يتعانقان . . يقبل كل منهما الآخر .

فكر دون ابراهيم فى مواجهة التمتمة الملحة للموافقة والاستحسان حول وجوب التوقف قليلا ، مع خفض جبهته ، وجعل بصره شاردا نحو الحقيبة وكوب الماء .

– لا أظن أنه من الضرورى ايضاح – أيها السادة المبجلون – أن استعمال الشىء – وليس استعمال أو ممارسة حق استعمال الشىء ، بغرض انه لم يوجد بعد – الذى يؤدى . . إلى امتلاكه لمن يشغله ، أمر واقع لكن ضده ألف دافع (رائع) ،

ابتسم دون ابراهيم ابتسام الظافرين ، وبقى لحظات لا يفكر فى شىء . ففى الأعماق – ومن الخارج أيضاً – كان رجلا بالغ

السعادة . هل لن يعيروه التفاتا ؟ ماذا يعطيهم أكثر ؟ اذن من أجل أى شىء كان التاريخ ؟

– فالتاريخ – فى الأول وفى الآخر – يقيم العدل . واذا كان العبقرى فى هذا العالم لا يوضع موضع الاعتبار ، فلم نشغل أنفسنا وخلال مائة عام سنصير جميعا صلعا ؟

دقات عنيفة للجرس خلعت دون ابراهيم من غفوته اللذيذة . كانت الدقات راعدة ممزقة .

أى بربرية ! أى أسلوب للإزعاج ! ذلك هو الخلق المهذب للناس . لم يكن ينقصنى سوى قطع حبل افكارى .

زوجة دون ابراهيم التى كانت تقوم بشغل الابرة أمام الموقد نهضت وذهبت لفتح الباب .

أصاخ دون ابراهيم السمع . من دق الباب ؟ لابد أن يكون جار الجانب الآخر من الجدار .

– زوجك موجود ؟

– نعم يا سيدى انه يقوم بتجربة خطابه .

– هل يمكن أن يستقبلنى ؟

– نعم هذا يكفيه .

السيدة ترفع صوتها :

– ابراهيم ! جارنا .

– دعيه يدخل – يا امرأة – لا توقفيه بالباب .

دون ليونثيو ما يسترى كان شاحبا .

– هيا ، يا جار الهنا ! ماذا حملك إلى بيتى المتواضع ؟

كان صوت دون ليونثيو يرتعد .

– انها ميتة .

– ايه ؟

– انها لميتة .

– ماذا ؟

– نعم يا سيدى ، انها ميتة : لقد لمست جبهتها ، وانها لباردة مثل الثلج .

فتحت زوجة دون ابراهيم عينيها فى ذهول .

– من ؟

– العجوز الملاصقة لنا .

– العجوز الملاصقة لنا ؟

– نعم .

تدخل دون ابراهيم .

– أم اللوطى ؟

فى نفس الوقت الذى كان دون ليونثيو يجيبه بالإيجاب ، كانت زوجته تلومه .

– من أجل الإله – يا ابراهيم – لا تتكلما هكذا .

– وهى ميتة ، بشكل حاسم ؟

– نعم ، دون ابراهيم . انها ميتة تماما . انها مخنوقة بمنشفة حمام .

– بمنشفة حمام ؟

– نعم يا سيدى ! منشفة قطيفة .

– يا للهول !

دون ابراهيم بدأ يصدر أوامر ، ويتحرك من جانب لآخر طالبا من الجميع الهدوء .

– خينوبيبا ، ارفعى سماعة التلفون واطلبى البوليس .

– ما رقم البوليس ؟

- وكيف لى أن اعرفه ؟ انظرى فى الدليل . وأنت ايها الصديق مايسترى . ضع نفسك للحراسة على السلم ، ولا تسمح لأحد بالصعود أو الهبوط . وأمامك هذه العصا احملها وأنا سأدعو الطبيب .

عندما فتحوا الباب لدون ابراهيم فى شقة الجار الطبيب ، سأل فى هيئة شديدة الهدوء :

- الدكتور موجود ؟

- نعم يا سيدى ، انتظر لحظة .

دون ابراهيم كان يعرف يقينا أن الطبيب فى شقته . وعندما خرج اليه ليراه ، لم يدر بشكل أكيد كيف يبدأ . من ثم ابتسم له :

- كيف حال البنت ؟ هل تحسنت معدتها ؟

* * *

دون ماريو دى لابيقا . ما أن انتهى من العشاء حتى دعا (الوى روبيو انتوفاقاستا) الجامعى ذا الثلاث سنوات الدراسية . كان من الواضح أنه كان يشتهى معايرته .

- ما رأيك فى تدخين سيجار ؟

- لا بأس يا سيدى ، وشكرا جزيلا .

– يا للهول ، ألا تقول لا أبدا ؟ !

الوى روبيو انتوفاقاستا ابتسم فى انكسار :

– لا ، يا سيدى !

ثم أضاف :

– المسألة أننى سعيد جدا لأنى وجدت عملا ، ألا تعرف ذلك يا سيدى ؟

– ولأنك تعشيت ؟

– نعم يا سيدى وأيضاً لأنى تعشيت .

* * *

السيد ساورس كان يدخن سيجارا أهداه له (البذرة المشقوقة) .

– كم يلذ لى طعمه ! انه يحمل نكهتك !

نظر السيد ساورس فى عيون صديقه :

هل نذهب لنأكل من (ابو فروة) ؟ ليس لى رغبة فى العشاء لأن وجودى معك يفقدنى الشهية .

– حسنا ، هيا !

– هل تتركنى أدعوك ؟

المصوراتى والبذرة المشقوقة انصرفا ، يدا شديدة الالتصاق بيد ، وسارا فى شارع البرادو مصعدين ، على الرصيف الايسر حيث توجد بعض موائد البلياردو ، بعض المارة تدير رؤوسها نحوهما عند رؤيتهما .

– هل ندخل كى نتفرج على البلياردو ؟

– لا ، إنس ذلك ! فعلت ذلك هنا منذ أيام وكادوا يلجمون عصا البلياردو فى فمى .

– دواب ! المسألة أن هناك بعض الناس غير المهذبين .

– أمر مثير ! لابد أنهم سببوا لك رعبا هائلا . بربرية ! حقيقى (بذيرة) .

البذرة المشقوقة شعر باستياء .

–(بذيرة) هذه ، أطلقها على أمك .

السنيور ساورس أصابه هذا القول بهيستيريا .

– أى ، ماما العزيزة ! أى ، ماذا يكون قد حدث لك .

أى يا الهىَ .

– آسف – بذرة – لن أفتح سيرة ماما مرة أخرى .

– أى ، المسكينة ! اسمع – بذرة – هل تشترى لى زهرة ؟ أحب أن تشترى لى زهرة ؟ أحب أن تشترى لى زهرة كاميليا حمراء ، فكونى معك يلزمنى بحمل لافتة (ممنوع !) .

البذرة المشقوقة ابتسم فى فخار شديد ، واشترى زهرة كاميليا حمراء للسنيور ساورس .

– ضعها فى ثنية جاكتتك .

– فى المكان الذى تحب .

* * *

بعد أن تأكد الطبيب أن السيدة ميتة ، وميتة جيدا ، بدأ يوجه عنايته الصحية لدون ليونثيو مايسترى ، الذى أصيب بنوبة عصبية . تقريبا كان فاقدا للوعى ، دافعا لأقدامه فى ضربات عبر الهواء نحو كل الاتجاهات .

– أى ، دكتور ! انظر ، هل من الممكن أن يموت هذا الرجل بين أيدينا ؟

دونيا خينوبيبا كودارادو دى اوستالاثا كانت فزعة .

– لا تقلقى يا سيدتى ، فهو لم يحل به أى مكروه ، إنه مرعوب رعبا عظيما ، ولا شىء أكثر .

دون ليونثيو كان جالسا على أريكة وقد ابيضت عيناه ، وتطاير من فمه الزبد . وأثناء ذلك كان دون ابراهيم قد انتهى من تنظيم الجيران .

– هدوء ! هدوء كاما . كل رب عائلة عليه وبكل دقة تفتيش بيته . فلنساعد قضية العدالة ، مانحين لها كل دعم تصل اليه ايدينا .

– أمرك يا سيدى ، هذا هو الكلام التمام . أحسن شىء الآن أن يوجد آمر لنا ، ونحن نسمع ونطيع .

جميع جيران الجريمة – وكانوا من الاسبان – رددوا بشكل او بأخر نفس العبارة السابقة .

– وبالنسبة لهذا ، عدوا له كوبا من مغلى زهر الزيزفون .

– أمرك يا دكتور .

* * *

دون ماريو والجامعى الوى اتفقا على الذهاب للنوم مبكرين .

– حسنا ، أيها الصديق ، غدا ، إلى العمل ! ايه ؟

– نعم ، يا سيدى ، لسوف ترضى عن عملى .

– هذا ما انتظره . وغدا منذ التاسعة ستنال الفرصة للبرهنة

على ذلك لى . إلى أين تتجه ؟

– طبعا للبيت ، فالى أى مكان آخر أذهب ؟ سأعود لأنام وحضرتك أيضا تنام مبكرا ؟

– طول العمر . أنا رجل عادات شديدة الانتظام .

الوى روبيو أنتوفاقاستا أحس بأنه منافق ، وكونه منافقا ربما هو الوضع الطبيعى له .

– اذن ، اذا لم يكن لديك مانع ، أنا أصحبك أولا إلى بيتك .

– كما تحب ، أيها الصديق الوى . وأنا شاكر جدا .

وكما هو مفهوم فانك واثق من أنه لازال هنا أمل فى اصطياد سيجار اخر او بعض السجاير !

– صدقنى ، سنيور بيقا – ليس من أجل السجاير أصحبك .

– لا تكن غبيا او متدروشا فكلنا كنا طباخين قبل ان نصبح رهبانا ؟

دون ماريو ومصحح مطبعته الجديد ، قاما بجولة رغم برودة الليلة ، فدون ماريو لا يؤثر فيه البرد ولا الحر ولا الجوع اذا تركوه يتكلم على سجيته .

بعد مشى طال ، دون ماريو والوى روبيو انتوفاقاستا تقابلا

مع مجموعة من الناس المجتمعين فى مدخل أحد الشوارع بصحبة شرطيين لا يسمحان بمرور أحد .

- هل حدث شيء ؟

استدارت اليهما امرأة .

- لا أدرى يقولون أنه قد وقعت جريمة ، وانهم قتلوا عجوزين باللكمات .

- يا للهول !

تدخل رجل فى الحوار .

- لا تبالغى يا سيدتى لم يكونا عجوزين ، لكنها عجوز واحدة .

- وهل يبدو ذلك قليلا فى عينيك ؟

- لا ، يا سيدتى ، يبدو لى كثيرا أزيد من اللازم ، لكن لو كان المقتول سيدتين لصار أعظم .

اقترب شاب من التجمهر .

- ماذا يجرى ؟

امرأة أخرى أخرجته من شكوكه .

- يقولون أنه وقعت جريمة ، وأنهم خنقوا شابة بمنشفة من

القطيفة . ويقولون انها كانت فنانة .

* * *

الاخوان ماوريثيو وارمنخيلدو قررا شرب كوبين من الجعة في الهواء الطلق .

– انظر ، هل تعرف ما أقول ؟ المسألة ، أن لدينا اليوم ليلا رائعا للتسلية والنزهة . فاذا نفذوا وعدهم لك فها نحن أولاء نحتفل به مقدما ، واذا لم – في هذه الحالة اسمعني ! – فاننا سنتعزى عن ذلك اذا لم يكن اليوم ، فغدا أو حتى بعد عام . هل ستمضي الليل تقلب في الموضوع وتعيد وتزيد في نفس المسألة داخل رأسك . أنت عملت ما في وسعك والآن ينقص فقط انتظار ما يفعله الاخرون .

وارمنخيلدو كان مشغولا .

– نعم ، اعتقد ان الصواب في جانبك ، فهكذا طوال اليوم تفكير في نفس الشيء ، لا يعطيني شيئا إلا العصبية . فلنذهب حيث تريد . أنت تعرف مدريد أفضل مني .

– ما رأيك في تناول كأسين ؟

– ماشي ! لكن هكذا على جلدة البطن ؟

– ولا يهمك ! سنعثر على شيء . في هذه الساعة ، الشيء

الزائد على الحاجة هو الغلمان .

ماوريثيو سيقوبيا وأخوه ارمنخيلدو ذهبا يشمشمان فى البارات بشارع ايتشيجراى . ماوريثيو يقود وارمنخيلدو يدفع .

– فلنفكر ؛ أننا نحتفل بتعييني . ولهذا أدفع .

– حسنا ، اذا لم تعد إلى القرية الآن ، انذرنى حتى اكون فى عونك فى استمرار الاحتفال .

ارمنخيلدو فى أحد المطاعم الشعبية فى شارع فرناندس وجونثالث ، يضرب مرفق ماورثيو .

– انظر إلى هذين الاثنين ، أى متعة ونهم !

ماوريثيو أدار رأسه .

– ها ، ها ، هذا يجعل مارجريت جوتيير [١] المسكينة تمرض ، تأمل هذه الكاميليا الحمراء فى ياقته . ذو هيئة حسنة المرأى . هنا من لا يعرف الجرى يطير .

من الطرف البعيد للمطعم زأر صوت :

– لا تجاوز الحدود أيها المصوراتى .

نهض البذرة المشقوقة :

---

(١) بطلة «غادة الكاميليا» لاسكندر دوماس .

– فلنر ما ذا كان يخرج لنا أحد من الشارع !

* * *

كان دون ابراهيم يردد على مسامع قاضى التحقيق :

– انظر – يا سيدى القاضى – نحن لم نستطع كشف شىء من الغموض . كل جار فتش بيته ، ولم نكتشف أى شىء يلفت النظر .

أحد جيران دون ابراهيم . واسمه دون فرناندو كاثويلا ، مندوب فى المحاكم ، نظر فى الأرض ، وكان هو من اكتشف شيئا (١) .

القاضى استجوب دون ابراهيم .

– فلنبحث عن معلومات . الضحية : هل كانت لها عائلة ؟

– نعم يا سيدى القاضى : ابن .

– أين هو ؟

– أوف ، أى واحد يعرف أين هو يا سيدى القاضى . أنه شاب ذو عادات سيئة .

---

(١) كما سنعرف بعد فقد اكتشف عشيق زوجته قابعا فى سلة للملابس المتسخة !

– زير نساء ؟

– لا يا سيدى القاضى ، زير نساء لا .

– لعله مقامر ؟

– لا ، وأنا أعرف أنه : لا .

القاضى نظر إلى دون ابراهيم .

– سكير ؟

– لا ، لا أيضا لا .

اصطنع القاضى شبح ابتسامة ، بعض الشىء مغتاظة .

– اسمع على أى شىء تطلق عبارة (عادات سيئة) . هل تطلقها على عادة جمع الطوابع ؟

انقبض دون ابراهيم .

– لا يا سيدى أنا أطلق العبارة على أشياء كثيرة منها ، على سبيل المثال : أن يكون الانسان لوطيا .

– آه ، هيا ، هيا . هل ابن الضحية لوطى ؟

– نعم ، يا سيدى القاضى ، انه لوطى .

– حسنا يا سادة . شكرا للجميع ، انسحبوا إلى غرفكم من فضلكم ، واذا احتجت لاحدكم سأستدعيه .

الجيران انصرفوا إلى بيوتهم فى طاعة . دون فرناندو عند وصوله إلى شقته التقى بزوجته فى بحر من النحيب .

ـ أى ، فرناندو ! اقتلنى لو شئت ، لكن لا ينبغى أن يدرك ابننا ما حدث .

– لا ، يا بنية ، كيف أقتلك ورجال الشرطة والقضاء فى البيت. هيا ، هيا إلى السرير ، الشىء الوحيد الذى ينقصنا الآن أن تكون نتائج التحقيق أن عشيقك العزيز هو قاتل دونيا مارقوت !

وللتسرية عن الناس المنجمهرين فى الشارع ، وقد ازداد عددهم حتى وصل إلى مئات الاشخاص ، بدأ غجرى صغير فى السادسة من عمره غناء الفلامنكو مصاحبا بدقات كفيه . كان غجريا حبوبا ،وصوته واضحا جداً . .

بينما كان المعلم «الخياط»
يقص بعض البنطلونات .
مر به فارس غجرى .
كان يبيع التينيا (ذات اللون الوردى) .

وعندما أخرجوا دونيا مارقوت لحملها إلى المشرحة صمت الطفل الغجرى فى احترام .

الفصل الثالث

دون بابلو ، بعد تناول الطعام ، يأخذ طريقه إلى مقهى هادىء فى شارع سان برناردو ، كى يلعب دور شطرنج مع (دون فرنسيسكو روبلس أى لوبس باتون) . وحوالى الخامسة أو الخامسة والنصف يخرج بحثا عن دونيا بورا للنزهة قليلا ثم الاستقرار فى مقهى دونيا روزا ، وتناول وجبة العصر المكونة من مشروب الشيكولاتة ، الذى يبدو له انه مائع لكثرة مائة وقلة تمرينه .

على مائدة قريبة بجوار النافذة ، جلس أربعة رجال يلعبون الدومينو : دون روكى ، دون اميليو روديقس روندا ، دون تيسيفونتى الغنام وسنيور رامون .

(دون فرنسيسكو روبلس أى لوبس باتون) طبيب أمراض سرية ، له ابنة اسمها امبارو متزوجة من اميليو رودريقس رونـدا ، طبيب أيضا . دون روكى زوج دونيا بيسى ، أخت دونيا روزا دون روكى موسى باتكس ، حسب أخت زوجته يعد أسوأ شخص فى العالم . دون تيسيفونتى الغنام اى سولانا نقيب بيطرى ، سنيوريتو نموذج للقروى ، مدلل قليلا ، فهو يلبس خاتما من الزمرد . وأخيرا السنيور رامون صاحب مخبز مهم فى المنطقة .

الاصدقاء الستة لكل الأمسيات عبارة عن مجموعة هادئة ،

رسمية تجمعهم الترهات من الاحاديث بجانب طيب العشرة فهم لا يتجادلون ، ويحادثون الناس على الموائد الاخرى فوق دردشتهم أثناد اللعب ، الذى لا يمارسونه بأدنى اهتمام فى جميع الاحوال .

دون فرنسيسكو فقد فيلا وشيكا .

– الأمور تسوء .

– تسوء حقا ، او فى مكانك لكنت سلمت .

– أنا لا أسلم .

دون فرنسيهسكو ينظر إلى صهره الذى يلاعب البيطرى .

– اسمع ، اميليو ! كيف حال البنت ؟

البنت هى امبارو .

– بخير حال ، بخير . غدا اجعلها تنهض .

– شىء مبهج . هذا المساء أمها ستزوركم .

– حسن جدا ، وحضرتك ستكون معها ؟

– لا أدرى ، وسنرى عما اذا كنت استطيع .

حماة دون اميليو اسمها دونيا سوليداد كاسترو دى روبلس .

السنيور رامون امكنه ايجاد وسيلة للتخلص من الدبش الذى كان يهدده بابتلاع مكسبه . دون تيسيفونتى يستهلك دعابته الدائمة :

– المحظوظ فى اللعب . .

– بالعكس يا نقيبى ، أظن انك تفهمنى .

دون تيسيفونتى · وهذا حق – لم يكن محظوظا لا فى لعب ولا فى حب . يبقى طوال الوقت منغلقا على نفسه فى بيته لا يخرج الا ليلعب دورين دومينو .

دون بابلو – الذى كسب الدور – ذاهل لا يعير الشطرنج أى اهتمام .

– اسمع ، روكى ، بالامس أخت زوجتك كانت فى حالة هياج وغضب .

– انها هكذا دائما ، وأنا اعتقد أنها ولدت بنفس الحالة ، ان اخت زوجتى دابة محتالة . ولو لم اكن واضعا بناتى فى حسبانى ، لمزقتها اربا منذ زمن . ولكن وفى النهاية : الصبر وتفنيط الورق ! هؤلاء الخالات البدينات أنصاف السكارى ليس من عادتهن التعمير طويلا .

دون روكى ، يفكر – فقط بالجلوس والانتظار – سيصير

مقهى (اللذة) مع كوم من الاشياء الاخرى ملكا لبناته فى يوم من الايام . وبالتروى ، فان مع دون روكى كل الحق ، فضلا عن أن المسألة جديرة بعبء المعاناة ، ولو طال ذلك إلى خمسين عاما . فباريس تستحق زيارتها تقديم القرابين والصلوات .

تجتمع دونيا ماتيلدى ، ودونيا اسونثيون فى كل الاماسى بمحل ألبان بشارع فوين كرال ، ولا تفعلان شيئا اكثر من الأكل والأكل فحسب .

صاحبة محل الالبان ، دونيا رامونا براقادو صديقة لهما . انها عجوز مطلية بالالوان ولكنها كائن ظريف جدا ، وقد كانت فنانة من أيام الجنرال بريم . . [١] دونيا رامونا التى استقبلت وسط فضيحة ارثا مقداره عشرة آلاف دورو من أحد الماركيزات – والذى كان سناتورا وتولى مرتين نائب وزير الخزانة – كان لديها حس ناضج ، فبدلا من صرف الثروة الموروثة من عشيقها المرحوم دفعتها خلو رجل لمحل الالبان الذى كان مزدهرا ولديه زبائن مضمونون بشكل أكيد .

فوق ذلك فقد كانت قادرة على انتزاع النقود من تحت البلاطات وواحدة من التجارات الرائجة التى كانت تدر عليها ربحا

(١) الجنرال المذكور عاش من ١٨١٤ حتى ١٨٧٠ ، أدار سبعة انقلابات . انتخب رئيسا للجمهورية ١٨٦٩ واغتيل فى العام التالى .

أفضل – وهى لا تعرف الخسارة وتلعب بكل ما تقدر – الاحتيال والمشى بالنميمة من خلف نصبتها فى محل الالبان ، فهى تنفث بالكلمات المذهبة وبالاكاذيب الجيدة التلفيق فى أذن احدى الشابات التى تريد أن تشترى حقيبة ، واضعة بعد ذلك يدها بالقرب من خزانة أحد الشبان ممن يفضلون اراحة أنفسهم من العناء وتناول كل شىء جاهزا ومقشرا ، هناك بعض الاشخاص الذين يصلحون بنفس البراعة لخلق الاسرار ثم لافشائها .

فى ذلك المساء كان سمر محل الالبان بهيجا .

– دونيا رامونا. احضرى لنا بعض الكعك ، فأنا التى ستدفع

– لكن – يا ابنتى – هل كسبت اليانصيب ؟

– هناك أكثر من نوع من اليانصيب – دونيا رامونا . فقد تلقيت خطابات من باكيتا وصل اليوم من بلباو . واسمعى لما سأقول .

– هيا نرى ، فلنر ! .

– اقرأى أنت ، فكل يوم يضعف بصرى ، اقرأى من تحت هنـا .

دونيا رامونا تنظف عدسات نظارتها وتقرأ .

– زوجة خطيبى ماتت ، بسبب انيميا حادة مرحى ، مرحى ! هكذا – دونيا اسونثيون – تصبح الأمور (تمام) .

– تابعى القراءة ، تابعى من فضلك .

– . . وخطيبى يقول أننا لم نعد فى حاجة لتجنب الانجاب ، واذا كنت فى حالة تسمح ، فانه يرغب فى الزواج . لكن يا بنية ، اذا كنت أنت الزوجة المحظوظة ! .

– نعم ، شكرا لله ، فلى حظ كبير مع هذه الابنة .

– والخطيب هو استاذ الجامعة ؟

– نعم ، دون خوسيه ماريا دى ساماس ، استاذ علم نفس ومنطق واخلاق .

– أذن ، ألف مبروك ، لقد أوقعته فى الفخ .

– نعم ، نعم ! فالأمور لا تسير سيرا سيئا .

دونيا ماتيلدى أيضا كانت لديها أخبارها الطيبة التى كان عليها أن تقصها . لم يكن خبرا نهائيا مثل خبر باكيتا ، لكن – وبدون شك – فهو خبر طيب . الخبر يتعلق بابنها الفلورينتينو

دى مارى نوستروم [1] فقد اتيح له عقد رابح جدا فى برشلونة لكى يعمل فى صالون بشارع الفن ، فى عرض فنى مبهرج يسمى : أنغام السلالة . وبسبب مضمونه الوطنى ، فانهم ينتظرون أن تموله الدولة .

– بالنسبة لى فانى شديدة الارتياح بأن يجد عملا فى عاصمة كبيرة ، ففى القرى يكثر الجهل ، وأحيانا يلقون أمثال هؤلاء الفنانين بالحجارة ، كما لو لم يكن الفنان انسانا مثل كل البشر . فمرة . فى خادراكى ، اضطرت الشرطة للتدخل ، واذا لم يكونوا قد وصلوا فى الوقت المناسب لنزعوا جلد ابنى المسكين . انهم بلا رحمة ولا ثقافة ، والشىء الوحيد الذى يعجبهم هو الزعيق الخشن .والتفوه ببذاءات ضد النجوم ، يا رحيم يا رب ! أى فزع جعلوا المسكين يمر به ! . .

. . دونيا رامونا معها فى الرأى .

– نعم ، نعم ، فى عاصمة كبيرة مثل برشلونة أفضل بكثير ، هناك يلقى فنه تقديرا واحتراما أكثر .

– أى نعم ! فعندما يقول لى أنه بصدد جولة فى الارياف ،

---

(١) يظهر اسم هذه الشخصية بالاتينية ومعناه ـ بحرنا المزدهر) وطوال العمل يوظف الكاتب الاسماء للسخرية .

ينخلع قلبى ، مسكين أنه بكل حساسيته عليه ان يعمل من أجل جمهور بهذه الدرجة من التأخر ، وكما يقول هو شخصيا ، فانهم مليئون بالشر . شىء مرعب !

–نعم ، هذا حقيقى ، لكن أخيرا فالآن الامور تسير سيرا حسنا .

– نعم ، لو استمرت ! .

* * *

لوريتا وبابلو تعودا الذهاب لتناول القهوة فى بار فخيم حيث لا يتجرأ أحد ممن يمرون به على الدخول اليه . البار موجود خلف (جران بيا) ، والوصول إلى الموائد – ولم تكن أكثر من نصف دستة ، وكلها مغطاة بمفارش وتتوسطها زهرية – كان لابد من المرور على نصبة البار ، وكانت خالية تقريبا الا من فتاتين ترتشفان شيئا من الكونياك ، وخمسة شبان مثل الفراريج يلعبون الزهر فى حمق بكل ثروتهم المنزلية .

– وداعا يابلو ، طبعا أنت لا تتكلم مع أحد منذ أن بدأت تحب.

– وداعا مارى تيرى . وألفونسو ؟

– مع عائلته ، انه سوداوى المزاج جدا هذه الأيام .

لوريتا تقطب جبينها عندما جلسا على الأريكة . لم تمسك

بيد بابلو كعادتها . وفى الحقيقة ، أحس بابلو باحساس ما من الارتياح .

– اسمع ، من كانت تلك الفتاة ؟

– صديقة .

لوريتا اكفهرت فى حزن .

– صديقة مثلما أنا الآن ؟

– لا ، يا بنية .

– فكيف تقول صديقة !

– حسنا ، واحدة من معارفى .

– نعم ! واحدة من معارفك . . اسمع بابلو .

ظهرت لوريتا فجأة بعيون بللتها الدموع .

– ماذا ؟

– أحس بتعاسة هائلة .

– ولماذا ؟

– بسبب تلك المرأة .

– اسمعى يا صغيرتى ، ابقى صامتة ، ولا تنهارى .

لوريتا تتنهد .

– وفوق ذلك تتشاجر معى ، طبعا !

– لا فوق ذلك ولا تحته ، لا يابنية ، ولا تعكرى مزاجى أكثر من الضرورى .

– هل ترى ؟

– أرى ماذا ؟

– هل ترى كيف تتشاجر معى ؟

غير بابلو من التكتيك

– لا ، نينا ، أنا لا أتشاجر معك ، وانما تضايقنى مشاهد الغيرة . لكن ماذا نصنع ، كتب على أن أمر بها طوال الحياة .

– مع كل خطيباتك بنفس الطريقة ؟

– لا لوريتا ، بعضهن أكثر ومع بعضهن الآخر أقل . .

– ومعى ؟

– معك أكثر من الجميع دون استثناء .

– طبعا ، لأنك لا تحبنى . الغيرة لا تتملك منك الا اذا كنت تحب كثيرا ، كثيرا جدا ، كما يحدث لى الآن معك ، نظر بابلو إلى لوريتا نظرته إلى صرصور نادر المثال . انقلبت لوريتا إلى آنسة

مليئة بالود .

– اسمنعنى ، بابليتو .

– لا تنادينى بابليتو . ماذا تريدين ؟

– إيه يا ابنى ، أما انك سوقى !

– نعم ، لكن لا تكررى ذلك ، غيرى النغمة قليلا . لقد قال لى نفس الشىء أناس كثيرون .

أبتسمت لوريتا .

– فيما يتعلق بى لا يعنينى أن تكون سوقيا . أنت تعجبنى كما أنت الآن ، فقط أحس بشىء من الغيرة ، اسمع بابلو إذا توقفت عن حبى فى يوم من الأيام ، قلها لى .

بابلو ألفونسو بدأ يدرك أنه يصاب بالملل عند صحبة لوريتا . أحس بذلك أثناء شرب القهوة ، هى جميلة جدا ، جذابة جدا ، ودودة جدا ، أيضا مخلصة جدا ، ولكنها قليلة التنوع واحدية النغمة .

* * *

فى مقهى دونيا روزا – كما فى كل مقهى – جمهور ساعة تناول القهوة ليس نفس جمهور تناول وجبة العصر . كلهم

مألوفون . وبالتأكيد أنهم يجلسون فى نفس الاماكن والجميع يشربون فى نفس الأكواب ، ويتعاطون نفس الكربوناتو ، يدفعون نفس البيزيتات ، يعانون على قدم المساواة نفس البذاءات من المالكة ، لكن مع ذلك – ولعل أحدا يعرف السبب ، فان جمهور الثالثة مساء يختلف كليا عن الجمهور الذى يصل عندما تعلن الساعة السابعة والنصف . ومن الممكن أن الشىء الوحيد الذى يجمع بينهم انهم يحفظون فى أعماق القلب أنهم جميعا الحراس القدماء للمقهى ، وعين العناية الساهرة عليها . والآخرون الذين يفدون بعد الغداء بالنسبة لجمهور العصر ، هؤلاء بالنسبة للأولين ، ليسوا الا دخلاء بالنسبة للمعتدلين ، وأما غيرهم فلا تفكر ! الافضل السكوت .

المجموعتان على المستوى الفردى والجماعى لا نظير لهما واذا حدث لأحد افراد جمهور ساعة القهوة أن انتظر قليلا وتأخر فى الانصراف ، فأن الوافدين من جمهور وجبة العصر ينظرون اليه بازدراء شديد ، لا شىء أكثر ولا شىء أقل من الازدراء ، تماما مثلما ينظر جمهور ساعة القهوة إلى من يصل مبكرا من جمهور وجبة العصر . فى مقهى جيد التنظيم يشبه جمهورية افلاطون تقوم هدنة لمدة ربع ساعة حتى لا يتقاطع فى التقاء من يأتى مع من ينصرف ، ولا حتى عند الباب الدوار .

فى مقهى دونيا روزا - بعد ساعة الغداء - الشخص الوحيد المعروف باستثناء المالكة وجهاز العاملين هو الآنسة البيرا ، التى هى فى الحقيقة ليست أكثر من قطعة أثاث تضاف لأثاث المقهى .

- كيف الحال ، البيريتا ؟ هل قضيت لية طيبة النوم ؟

- نعم ، دونيا روزا . وحضرتك ؟

- أنا . عادى ، يا بنية ! لا شىء أكثر من عادى ، فلقد قضيت الليلة فى جيئة وذهاب إلى الحمام . تنبهت إلى اننى تعشيت بشىء ، جعلنى أتعب ، وأفسد جهازى الهضمى .

- يا إلهى ! وهل أنت أحسن ؟

- نعم يبدو لى : نعم . لكن بقى الجسم مهدودا .

- لا أستغرب ذلك ، فالاسهال يقتل .

- أنا معك ، لقد فكرت فى ذلك : فمن اليوم حتى الغد اذا لم اتحسن سأطلب الطبيب . بهذا لن أستطيع العمل فى المقهى أو فى أى شىء اخر . وهذه الأشياء كما تعرفين ليست فوق . .

- طبعا .

باديا بائع السجائر يحاول أن يقنع أحد الزبائن بأن سجائره الملفوفة ليست من تبغ الأعقاب .

– انظر ، حضرتك ، تبغ أعقاب السجائر يمكن التعرف عليه فهم يغسلونه دائما مما يجعل طعمه غريبا ، بالإضافة إلى أن تبغ الأعقاب هذا له رائحة الخل التى يمكن ادراكها على بعد مائة فرسخ . وهنا حضرتك يمكن أن تدخل أنفك ، ولن تلاحظ شيئا غريبا ، ولن أحلف لك أن هذه السجائر بها تبغ ذو جودة عالية . أنا لا أحب خداع زبائنى ، فهذه السجائر بها ماركة كوارتيرون مولف جيدا وليس به عروق خشبية . وطريقة لفها ، حضرتك ترى أنه لا توجد هنا ماكينة . كل شىء يدوى . جسها حضرتك أذا أحببت .

الفونسو ، صبى المراسيل ، يستقبل تعليمات من أحد السادة الذى ترك سيارته عند الباب .

– لنر اذا كنت قد فهمت جيدا ، حتى لا تقع أقدامنا فى الحفل . تصعد للدور الذى به الشقة . اضرب الجرس . اذا فتحت لك الباب هذه الآنسة ؛ حملق فى الصورة جيدا انها طويلة وشقراء ، قل لها : ذاكرى جيدا نابليون بونابرت . فاذا قالت لك : انكسر فى واترلو ، اعطها الخطاب وانصرف . فاهم

– نعم يا سيدى .

– حسنا سجل حكاية نابليون هذه ، وأيضا اجابتها . امض

واحفظها فى الطريق ، وهى بعد قراءة الخطاب ستتذكر لك ساعة : السابعة ، السادسة ، كيفما كانت .. أحفظها جيدا ، وأحضر جريا إلى هنا وابلغنى .

– أمرك يا سيدى .

– حسنا هياه اذا حملت الرسالة باتقان لك دورو كامل .

– نعم يا سيدى لكن اسمع ! واذا فتح لى الباب شخص اخر غير الآنسة ؟

– نعم ، حقا ، حقا ! اذا خرج اليك شخص آخر ، اذن لا شىء . قل أنك أخطأت ، واسأله : هل يعيش هنا السيد بيريث ؟ وسيقولون لك لا ، أنصرف فى سلام . واضح ؟

– نعم يا سيدى .

* * *

كونسوريثو لوبث ، مدير المقهى طلبته بالتليفون ماروخيتا راميرو خطيبته القديمة ، وأم التوأمين .

– لكن ماذا تفعلين – أنت – فى مدريد ؟

– لقد جاء زوجى لاجراء عملية .

بقى لوبث قليلا مقطوع الصوت ، ولقد كان رجلا سريع

البديهة ، إلا أن هذه المكالمة أخذته بمفاجأتها له .

– والأولاد ؟

– صاروا رجالا صغارا ، وفى هذا العام يدخلون المدرسة الثانوية .

– كيف مر الوقت ؟

– يا ، يا !

كان صوت ماروخيتا يرتعش تقريبا .

– اسمع .

– ماذا .

– الاتريد أن ترانى ؟

– لكن . .

– طبعا تظن أننى أصبحت عجوزا محطمة .

– لا يا امرأة الحكاية اننى الآن . .

– الآن ، لا . هذه الليلة تخرج من عندك ! زوجى سيبقى بالمستشفى وأنا فى بنسيون !

– أيهم ؟

– فى الكويادنسى فى شارع ماجدالينا .

كانت أصداغ لويث تصدر اصواتا فى أذنه كطلقات الرصاص .

– أسمعى . وكيف أدخل ؟

– طبعا من الباب ، فقد استأجرت لك الغرفة رقم ٣ .

– اسمعى ، وكيف أقابلك ؟

– يا خيبتك ، لا تكن غبيا هكذا . أنا من سيبحث عنك .

عندما علق لويث سماعة التليفون استدار نحو النصبة ، فأطار بمرفقه خزانة (ليكور كاملة بها زجاجات كونترو ، وكاليسى ، وبنندكتاتين ، وكوراكاو ، وقشدة قهوة ، بيرمنت) . وكان انفجار ! .

بيتريتا خادمة فيلو اقتربت من بار ثلستينو أورتث للبحث عن حقنة شرجية لان خابييرين كان عنده أمساك . والطفل المسكين يتردد عليه الامساك بين الحين والحين ، ولا يخلصه منه شىء أقل من الحقنة الشرجية .

– اسمعى ، بيتريتا ، هل تعلمين أن شقيق سيدتك انقلب إلى رجل ؟

– ابتعد عنه – حضرتك – سنيور ثلستينو . فهو (واقع) جدا هذه الايام . هل هو مدين لك بشىء ؟

– نعم اثنان وعشرون بيزيتا .

اقتربت بيتريتا من المخزن الخلفى :

– سآخذ حقنة شرجية . اشعل لى النور .

– أنت تعرفين أين توجد ؟

– لا اشعل النور ، احيانا اتشنج فى الظلام .

عندما دخل ثلستينو لاشعال النور تصدت له بيتريتا .

– اسمع ، هل اساوى اثنين وعشرين بيزيتا ؟

ثلستينو اورتث لم يفهم السؤال .

– ايه ؟

– عما اذا كنت اساوى اثنين وعشرين بيزيتا ؟

صعدت الدماء إلى رأس ثلستينو اورتث .

– انت تساوين امبراطورية .

· واثنين وعشرين بيزيتا ؟

– وثب ثلستينو اورتث على الفتاة .

– اقبض – حضرتك – ثمن قهوة سنيوريتو مارتين .

فى المخزن الخلفى لبار ثلستينو دخل ملاك ؛ ويتحول الآن إلى اعصار بأجنحة .

– ولماذا تفعلين ذلك من اجل السنيوريتو مارتين ؟

اولا ، لانى ارغب فى ذلك ، وثانيا لانى احبه اكثر من أى شىء فى العالم . كل ما أحب ان اعرفه هل اقول ذلك لخطيبى الأول .

بيتريتا بالخدود متوردة والصدر خافقا ، والشعر (منفوشا) والعيون مليئة بالبريق كان لها جمال غريب مثل لبؤة حديثة الزواج .

– وهل يبادلك حبا بحب ؟

– لا ، لا اسمح له .

* * *

فى الخامسة ينفض سمر مقهى شارع سان برناردو ، وعند الخامسة والنصف او قبل ذلك تفرق كل فتى إلى حقل زيتونه : دون بابلو ، ودون روكى ، كل منهما فى بيته ، ودون فرنسيسكو وصهره فى العيادة ودون تيسيفونتى فى المذاكرة ، والسنيور رامون يراقب اغلاق المخبز منجم ذهبه .

فى المقهى على مائدة نائية بقى رجلان يدخنان فى صمت احدهما يسمى بنتورا اقوادو طالب محاسبة .

– اعطنى سيجارة .

– التقطها .

مارتين ماركو يشعل السيجارة .

– تسمى بوريتا ، وهى السحر فى امرأة . انها ناعمة كطفلة ، رهيفة كاميرة . أية حياة مقززة !

بالنسبة لـ (بارتولوميه) [1] وفى تلك الساعات فهو يتناول وجبته المحببة بعد خروجها من الفرن فى «العصارى» مارتين يتذكر آخر كلماتها .

– وداعا مارتين ها انت ذا تعرف اننى معتادة على الوجود فى البنسيون ، وما عليك الا ان تتصل بالتليفون ، اليوم لا تكلمنى لاننى مرتبطة مع صديق .

– حسنا .

– وداعا اعطنى قبلة .

– لكن ، هنا ؟

– نعم ، ايها العبيط ، سيعتقد الناس اننا زوج وزوجة .

---

(١) يقصد به بلتورا اقوادر المذكور صديق مارتين ماركو ، وخطيب خوليتا ابنة اخت دونيا روزا .

مارتين يرضع السيجارة – تقريبا – بجلال – بعد ذلك تنفس بقوة .

– فى النهاية . . اسمع بينتورا ، اترك لى اثنين دورو فاليوم لم اذق للطعام طعما .

– لكن يا رجل ! هكذا لا يمكن العيش .

– اعرف ذلك جيدا .

– ولا تجد شيئا هنا أو هناك ؟

– لا شىء ، مقالان ثم اجرهما مائتا بيزيتا مع تسعة فى المائة التخفيض .

– حسنا فأنت حاذق ، خذ طالما معى ! الآن ابى يشد الحبال خذ خمسة دورو ، ماذا ستفعل باثنين .

– شكرا ، ودعنى ادعوك بنقودك .

مارتين ماركو ينادى على الجرسون .

– قهوتين عادى .

– ثلاث بيزيتات .

– اقبض ، من فضلك .

الجرسون مد يده فى جيبه واخرج له الباقى : اثنين

وعشرين بيزيتا . مارتين ماركو وبينتور اقوادو صديقان منذ زمن ، صديقان حميمان كان زميلى دراسة فى كلية الحقوق قبل الحرب .

– هيا بنا .

– حسنا ، كما تحب فلم يعد لدينا شىء نصنعه هنا .

– يا رجل ، الحقيقة ان ليس لدى أى شىء لاعمله فى أى مكان آخر . أين تذهب ؟

– سأذهب للتجول قليلا لتضييع الوقت .

مارتين ماركو ابتسم .

– انتظر حتى آخذ قليلا من الكربوناتو ، فكما ان الهضم صعب فالكربوناتو خير ما يتناول .

* * *

خوليان ساورس سوبرون الملقب بالمصوراتى ، اثنان وخمسون عاما ، من مواليد بيقاديو . محافظة اولبييدو ، وخوسيه خمينس فقيراس ، الملقب بالبذرة المشقوقة ، ستة واربعون عاما من مواليد ميناء سانتاماريا محافظة قادش موجودان يدا فوق يد فى قبو ادارة الأمن العام فى انتظار نقلهما إلى السجن .

– أى بيبى ، كم هو طيب ان يأتونا بقهيوة .

– نعم ، كويب مثلث ، اطلبه ، فلعلهم يقدمونه لك .

السنيور ساورس مشغول اكثر من بيبى . البذرة المشقوقة ، خمينس فقيراس ، من المشاهد انه يعتاد الموقف .

– اسمع ، لماذا يمسكوننا هنا ؟

– لا أعلم الم تهجر آنسة محترمة بعد ان تركت لها ابنا ؟

– أى بيبى ، أى مزاح رائق عندك !

– هس – يا فتى – فمصيرنا واحد هنا .

– نعم ، هذا حق ايضا لكن ما يؤلمنى هو اننى لم استطع ابلاغ (ماميتا) [1] قبل المجىء إلى هنا .

– ستعود إلى سيرتها ؟

– لا ، لا .

اعتقلوا الصديقين ليلة أمس فى بار فى شارع (بيننتورا دى لابيقا) . رجال البوليس الذين ذهبوا اليهما ، دخلوا البار . قلبوا النظر قليلا فيما حولهم . وتوجهوا اليهما مباشرة

---

(١) تصغير (ماما) . ويشيع التصغير فى الاسماء اضافة (تيا) للمؤنث ، ، و (تيو) للمذكر .

كالرصاصات. أى خلق َأى احتراف ، لابد وقد اعتادا عليه !

– اصحبانا .

– اى ، لماذا تقبضون على ؟ اننى مواطن شريف لا اورط نفسى فى شيئ ، ومعى اوراقى الشخصية سليمة .

– هذا حسن . اشرح كل هذا لهم عندما يسألونك . الق هذه الزهرة من عروة جاكتتك .

– اى ، لماذا ؟ ليس على مصاحبتكم . انا لا اعمل شيئا شريرا .

– لا تثر فضيحة من فضلك . انظر فى هذه الناحية .

السنيور ساورس نظر . كانت تتدلى السلاسل الفضية للكلابشات من جيب الشرطى .

بيبى ، البذرة المشقوقة كان قد انتهى من النهوض .

فلنذهب مع هؤلاء السادة يا خوليان ، وسيتم ايضاح كل شىء .

– هيا ، هيا ، ما أغرب الامر ، أى ذوق هذا !

فى ادارة الامن لم يكن من الضرورى تفتيشهما ، فقد تم ذلك من قبل ، فقط كان ينقص عمل بطاقة لكل منهما كتبت فيها ثلاث او اربع كلمات لم يتمكنا من قراءتها .

– لماذا تقبض علينا ؟

– الا تعرف السبب ؟ !

– أنا لا أعرف شيئا . وكيف أعرف ؟

– سيقولون ذلك لك .

– اسمع ألا استطيع إخطار أحد باننى مقبوض على ؟

– غدا ، غدا .

– المسألة أن (ماما) هرمه جدا . المسكينة ستصاب بقلق شديد .

– امك ؟

– نعم . عندها الآن ستة وسبعون عاما .

– حسنا ، انا لا أستطيع ان أفعل شيئا ولا أن أقول شيئا ايضا ، وغدا كل شىء سيتضح .

فى الزنزانة ، حيث تم حبسهما عاينا غرفة هائلة الاتساع مربعة ، منخفضة السقف ، سيئة الإضاءة بمصباح ذى خمسة

عشر «واط» محاط بقفص صغير من القضبان السلكية المتقاطعة

في البداية لم يكن ممكنا رؤية أى شىء . بعد مرور فترة وجيزة عندما تعود النظر على الاضاءة مضى يتكشف لكل من السنيور ساورس ، وبيبى البذرة المشقوقة وجوها معروفة : شذاذ ، لصوص محترفو استدانة ممن يؤمنون بان السلف تلف والرد خسارة والدبابير الذين يقتحمون الأخطـار مثل الأعاصير لا ترى لها وجها .

– أى بيبى كم هو طيب لو يأتوننا بقهيوة فى تلك الساعات .

كانت الرائحة بشعة داخل الزنزانة ، رائحة نتنة نفاذة ، تجعل عظام الأنف تغير .

* * *

– مرحبا ، كم انت مبكر اليوم ! أين كنت ؟

– حيث مكان وجودى الدائم : أتناول قهوة مع الأصدقاء .

دونيا بيسى تقبل صلعة زوجها .

– آه ، لو تعلم كم أشعر بالرضا عندما تعود مبكرا !

– أهلا ، أهلا بأعراض الشيخوخة ، يا أم «الجديرى» !

دونيا بيسى تبتسم ، دونيا بيسى المسكينة تبتسم دائما .

– هل تعلم من سيزورنا هذا المساء ؟

– ببغاء ، هكذا أراها عين اليقين .

دونيا بيسى لا تشعر بعدم الارتياح أبدا .

– لا ، إنها صديقتى مونت سرات .

– عنصر طيب .

– وطيب جدا .

– الم تقص عليك معجزة أخرى جديدة لذلك القسيس فى بيلباو ؟

– اغلق فمك ! لا تكن من اهل البدع . لماذا تركز على ترديد هذه الأشياء اذا لم تكن مؤمنا بها ؟

– هل ترى نفسك ؟

دون روكى يزداد اقتناعه يوما بعد يوم ان زوجته ليست أكثر من بلهاء .

– هل ستصحبنا فى جلستنا ؟

– لا .

– أى منك يا ابنى !

يدق جرس الباب الخارجى . دخلت صديقة دونيا بيسى البيت فى الوقت الذى تردد خلاله ببغاء الدور الثانى كلمات آثمة .

– انظر روكى ، ان هذا لا يمكن تحمله . اذا لم تصحح تلك الببغاء ملافظها سأبلغ عنها (١) .

– لكن يا بنية ، هل تدركين السخرية والضحك اللذين سيثوران فى قسم الشرطة لو ذهبت تشتكين ببغاء ؟

الخادمة تصطحب دونيا مونت سرات الى الصالة .

– سأبلغ سيدتى بحضورك تفضلى بالجلوس .

طارت دونيا بيسى لتحية صديقتها ، اما دون روكى فبعد ان نظر اليهما قليلا من وراء الستارة الشفافة اقترب من الموقد وسحب أوراق اللعب .

أن يخرج (الولد) قبل الخامسة فهذه بشرى خير . وأن يخرج (الآس) فهذا فوق ما أحتمل فلست شابا بعد .

دون روكى له قواعده فى قراءة الحظ عن طريق ورق اللعب . خرج (الولد) ثالث ورقه .

---

(١) تحمل لغة الكاتب نغمة سخرية دائمة ، إلا انه مع ذلك يلمح لصفتين لعصر الدكتاتورية فى أوله . تشنج دينى وقومى . وقد استغل ذلك لتسوية الثأر الشخصى . فالكل يبلغ السلطات ضد الكل باستخدام البلاغ الكيدى .

– مسكينة يا (لولا !) مما ينتظرك . اننى أشفق عليك يا فتاة فى النهاية . .

(لولا) اخت خوسيا لوبيث ، خادمة قديمة لعائلة روبلس كان لدون روكى شأن معها ، قد حلت الآن محلها أختها الصغرى . (لولا) فى بيت دونيا ماتيلدى تقوم بكل شىء . دونيا ماتيلدى تعيش على معاش الطفل المحاكى للنجوم .

دونيا بيسى ودونيا مونت سرات يتناقشان حتى المرفقين . دونيا بيسى مفتونة ، فى الصفحة الاخيرة من الكيروبين التبشيرى ؛ مجلة نصف شهرية يظهر اسمها واسماء بناتها الثلاثة .

– سترينه بعينك ، وستعرفين انه ليس شأنى بل حقيقة كبرى . روكى ! روكى ! .

من الطرف الآخر من البيت يصرخ دون روكى .

– ماذا تريدين ؟

– اعط الخادمة الورقة التى جاء بها ذلك الشئ الخاص بالصينيين .

– ايه ؟

دون بيسى تعلق لصديقتها .

– أى ، ايها الإله القدوس ! هؤلاء الرجال لا يسمعون شيئا . رافعة صوتها ، تنادى على زوجها مرة اخرى .

– اعط البنت . . تفهمنى ؟

– نعم ؟

– اعط البنت الورقة حيث شىء الصينيين .

– أية ورقة ؟

– شىء الصينيين يا رجل ، الخاص بالتبشير .

– ايه ، لا افهم ماذا تقولين عن الصينيين ؟

دونيا بيسى تبتسم لدونيا مونت سرات .

– زوجى هذا طيب جدا ، لكنه لا يدرك شيئا . سأروح أنا لاحضار الورقة ، لن أتأخر اكثر من نصف دقيقة . هل تسمحين لى بلحظة ؟

عند وصول دونيا بيسى الى الغرفة حيث يجلس زوجها إلى المائدة ممارسا شعائر الوحدة سألته :

– ألم تسمعنى يا رجل ؟

لم يرفع دون روكى عينيه عن أوراق اللعب .

– ستكونين ثقيلة الظل اذا تصورت ان أنهض من مكانى من

أجل الصينيين .

فتشت دونيا بيسى سلة أدوات الخياطة حتى وجدت عدد مجلة الكيروبين التبشيرى الذى كانت تبحث عنه ثم همهمت بصوت خفيض وعادت إلى صالة الزوار الباردة حيث لا تطيق الجلوس .

سلة أدوات الخياطة بعد تنقيب دونيا بيسى بها ، بقيت مفتوحة وبين قطن الرفو وعلبة الأزرار (وكانت من قبل مستودعا لحبوب سعال منذ عام رقصة البولكا) برزت واحدة من مجلات دونيا بيسى .

دون روكى عاد إلى الوراء بكرسيه والتقط المجلة .

(هذا) هو قسيس بيلباو صاحب المعجزات .

وشرع دون روكى فى قراءة المجلة .

روساريو كسادا (مدينة جيان) شفاء أخت لها من التهاب قوى بالقولون ، ٥ بيزيتات .

رامون ارميدا (قرية لوقو) نظير مساعدات عديدة فى نشاطه التجارى ، ١٠ بيزتات .

ماريا لويسا دل بايى (مدريد) ازالة عمش من العين دون مباشرة اى علاج عند طبيب العيون ، ٢٥ بيزيتا .

وادى لوبى قيترس (المدينة الملكية) شفاء صبى عمره ١٩ عاما من جروح ناجمه عن سقوطه من البلكون من سلاملك ٢٥ بيزيتا .

مارينا لوبيث اورتيقا ، (مدريد) تم ترويض حيوانها المنزلى ، ٥ بيزيتا .

ارملة عظيمة الايمان (بيلباو) التى وجدت صرة اشياء اضاعها لها أحد الموظفين المنزليين ٢٥ بيزيتا .

بقى دون روكى فى انشغال .

– لن يقولوا لى ذلك ، هذا ليس بالجد ؛ انها نكتة !

– الا تحسين ببرد دونيا مونت سرات ؟ ان هذا البرد فى بعض الايام يتحول إلى ثلاجة .

– بحق الإله ! برد ؟ لا ، بيسيتاثيون ، هنا كل شىء تمام . حضراتكم عندكم منزل جميل تتوافر به كل الراحة ؛ (رست هاوس) كما يقول الانجليز .

– شكرا ، مونت سرات ، انت دائما مجاملة جدا .

دونيا بيسى ابتسمت ، وبدأت فى البحث عن اسمها فى القائمة ، دونيا مونت سرات طويلة ومسترجلة وذات هيكل عظمى بارز خالية من رشاقة الهندام ذات شوارب ، ثقيلة اللسان

قصيرة النظر ، ذات عضوية فى نادى السفهاء .

وبالفعل كما كانت تؤكد دونيا بيسى كان يبرز اسمها واسم بناتها الثلاث فى الصفحة الاخيرة من الكيروبين التبشيرى .

دونيا بيسيتاثيون لكلرك دى موسى ، لتنصير وتعميد اثنين من الصينيين باسماء ، اقناسيو ، وفرانسيسكو خابيير ، ١٠ بيزيتات . الآنسة خوليتا موسى لكرك ، لتعميد صينى باسم مانويل ، ٥ بيزيتات . الآنسة بيسيتاثيون موسى لكلرك لتعميد صينى باسم بينتورا ، ٥ بيزيتات . الآنسة امل موسى لكلرك لتعميد صينى باسم أو قستين ٥ بيزيتات .

– ايه ؟ ما رأيك ؟

دونيا مونت سرات تبدى موافقتها وتهنئتها .

– طبعا ، ان هذا رائع . وكما يبدو لى : رائع . لابد من بذل عمل كبير . إنه شىء مفزع ، التفكير فى ملايين الكفار الذين علينا تنصيرهم . إن بلاد الكفار لابد أن تكون مكتظة بهم مثل اعشاش النمل .

– هذا ما اظنه !

– مع هؤلاء الظرفاء والذين هم الصينيون الصغار الحجم إذا نحن لم نحرم أنفسنا من بعض الحاجات سيروحون جميعا على

هواهم ، وعلى الرغم من جهودنا المسكينة فان عدم الايمان يعج بالصينيين ألا تعتقدين ذلك ؟

– فعلا ، فعلا !

– إن الشعور بذلك يجلب القشعريرة تصورى كم من اللعنة تثقل كاهل الصينيين . جميعا يتحركون مغلق فى وجوههم طريق الخير لا يدرون ما يصنعون . . .

– مخيف !

– والصغار ، يا امرأة ، والذين لا يعرفون المشى . سيظلون دائما متوقفين حيث هم كديدان فى نفس المكان ؟

– حقيقى .

– كم من الحمد علينا ان نتوجه به إلى الله لاننا ولدنا إسبانا فلو ولدنا فى الصين ، فعلى الأقل لذهب أولادنا إلى الجحيم دون مغفرة .. أينجب الانسان لهذا ؟ مع كل ما نعانى من أجل الإنجاب ، ومع كل ما نناضل فى تربيتهم صغارا .

دونيا بيسى تتنهد فى حنان .

– مسكينات بناتى وكم هن غريبات على الخطر الذى تعرضن له . اقل سوءا أن ولدن فى اسبانيا لكن تأملى لو شاء

حظهن ان يكن قد ولدن فى الصين . فالاحتمالان كانا متساويين أليس حقيقيا ؟

* * *

جيران المرحومة دونيا مارقوت مجتمعون فى بيت دون ابراهيم . ينقص الاجتماع فقط دون ليونثيو مايسترى ، المحبوس بامر القاضى وسأكن السلامللك (د) ، دون انتونيو خارينيو ، الموظف بشركة القاطرات المسافر حاليا وساكن (الدور الثانى ، ب) دون اقناسيو قلداكانو والذى هو مجنون (المسكين !) وابن الضحية دون خوليان ساورس الذى لا يعرف احد أين يمكن أن يوجد . وفى الشقة الوسطى (أ) توجد اكاديمية حيث لا يسكن احد . ومن الباقين لم يتخلف احد . وكلهم منفعلون تأثرا بما جرى وقد حضروا هذا اللقاء بناء على طلب دون ابراهيم لتبادل الانطباعات .

فى بيت دون ابراهيم - ولم يكن متسعا - لم يكن هناك مكان لقدم ، وكان على أغلبهم الحضور واقفين على أقدامهم متكئين على الجدران او على الأثاث ، فهم يشبهون الساهرين حول جثمان ميت !

- ايها السادة (هكذا بدأ دون ابراهيم) لقد سمحت لنفسى

بتوجيه الرجاء اليكم لحضور هذا الاجتماع ، لأنه قد حدث فى البيت الذى نسكنه شىء قد تجاوز حدود ما هو طبيعى .

- شكرا لله (قاطعته المعانة اجتماعيا دونيا تيريزا كورالى ساكنة الدور الرابع ، (ب) . . .)

- لا شكر إلا له (اجاب دون ابراهيم بوقار) .

- آمين (ردد عدد منهم بصوت منخفض) .

- بالأمس (واصل دون ابراهيم دى اوستولاثا) عندما قام جارنا دون ليونثيو مايسترى الذى نرغب جميعا فى ان تبرق براءته حالا بكثافة تعمل مثل نور الشمس .

- لا ينبغى علينا ان نعترض طريق العدالة [1] - صاح دون انتونيو بيريث بالينثويلا ، موظف بالنقابات ويسكن فى الدور الاول ، (ث) : علينا ان نمتنع عن ابداء الرأى لبعض الوقت . انا رئيس مجلس ادارة البناية ، ومن واجبى ايقاف أى عقبة ضد السلطات القضائية .

اسكت حضرتك - يا رجل! - قال له دون كاميلو بيريث

---

(١) يسخر الكاتب من التطرف الدينى والعنصرى لدى الاسبان فى أول عصر فرانكو وبعد انتصاره على الجمهوريين الذين كان ينظر اليهم على انهم خونة وملحدون .

السكات ، جار الشقة الوسطى ، (د) : دع دون ابراهيم يكمل .

– حسنا ، دون ابراهيم استمر حضرتك ، أنا لا أريد مقاطعة الاجتماع فقط اريد احتراما للسلطات القضائية المبجلة ، واعتبارا لجهدها لصالح النظام .

– هس ! هس . . دعوه يستمر !

دون انتونيو بيريث بالينثويلا صمت .

– كما كنت اقول فانه عندما ابلغنى امس دون ليونثيو مايسترى الخبر السيىء للحادث الذى وقع ضد شخص دونيا مارقوت سوبرون دى ساورس التى هى الآن فى امجاد الله لم يكن لدى الوقت لاطلب من صديقنا الطيب والمتميز الدكتور دون مانويل خوركيرا ، والحاضر معنا الآن ، كى يعلن تشخيصا مضبوطا ودقيقا لحالة جارتنا . الدكتور خوكيرا فى سرعة تنطلق من رفعة التزامه بشرف المهنة وضع نفسه تحت تصرفى ، وجميعا دخلنا مسكن الضحية .

دون ابراهيم بلور موقفه البلاغى الفصيح .

– اعطى نفسى الحرية كى أطلب من حضراتكم أن تضموا صوت الشكر من جانبكم لصوت شكرى للدكتور اللامع خوكيرا والذى فى تضامن مع الدكتور اللامع ايضا ، دون رافائيل مأسأسانا والذى يجعله تواضعه فى هذه اللحظات شبه مختبىء

وراء الستارة . انهما معا يشرفاننا بجوارهما لنا .

– رائع جدا (نطق بهذا فى نفس الوقت دون اكسوبيريو استريميرا القس ساكن الدور الرابع (ث) ودون لورنثو سوفييرو مالك بار الفونسقرادينو الذى يسكن فى احدى شقق الدور الأرضى) .

نظرات التصفيق من كل المجتمعين كانت تتنقل من طبيب إلى آخر . كان ذلك اشبه بحلبة مصارعة ثيران عندما يصحب المصارع الذى اجاد الاداء زميله السيىء الحظ وسط الحلبة ليستقبل معه حماس الجماهير .

– من ثم ، حسنا ايها السادة (صاح فى انشائية دون ابراهيم) عندما تمكنت من أن أرى أن عون العلم كان عديم الكفاءة فى مواجهة الجريمة البشعة المقترفة شغلنى همان ، كمؤمن حسن الإيمان أسلمت الأمر لله ، كذلك ان لا أحد منا – وأرجو العزيز السنيور بيريث بالينثويلا أن لا يرى فى كلماتى أدنى ظل من المساس المشجوب بأى جهة) ، أن لا أحد منا – كنت أقول – يُرى متورطا فى هذا الامر القبيح المخل بالشرف ، وألاّ تعدم دونيا مارقوت شرف الجنازة التى نتمناها جميعا لأنفسنا عند وصول الساعة ، وان نكون «سدادين» لدين الجوار .

دون فيديل اترايرا ، الممرض بالسلاملك ، أ ، والذى كان مبهرجا ، كانت على طرف لسانه صيحة (برافو !) ، لكن لحسن الحظ أمكنه ان يتراجع عن نطقها .

– اقترح – اذن – ايتها الجيرة المتعاطفة ، وفى حضوركم ان تعطوا لاقتراحاتى المتواضعة عناية ونورا . .

دونيا خوانما انترينا ، ارملة سيسينون ، المعانة اجتماعيا فى الدور الاول ، ب ، نظرت نحو دون ابراهيم : اى طريقة للتعبير عن ذات النفس ! أى جمال ! آية دقة ! وكأنه كتاب مفتوح ! دونيا خوانا عند تعثر نظرتها مع نظرة السيدة استوالاثا ، حولت النظرة نحو فرنسيسكو لوبيث ، صاحب صالون الحلاقة النسائى (كريستى وكيكو) المقام فى الشقة (ث) بالسلاملك . والذى كان لمرات عديدة مستودع أسرارها ، وحوض بانيو لدموعها .

عندما التقت النظرتان دار بينهما حوار سريع مصاحب للنظرتين .

– ايه ؟ كيف الحال ؟

– رائع يا سيدتى !

واصل دون ابراهيم دون أن يهتز منه رمش .

– بأن نحمل على عاتقنا ، أفرادا وجماعة تذكر دونيا مارقوت فى صلواتنا ، وأن نتعاون فى اقامة شعائر الجنازة من أجل روحها .

– أنا موافق (قال دون خوسيه لسنينا صاحب شقة ، د . بالدور الثانى) .

– وأنا اوافق تماما (تلاه فى القول دون خوسيه ماريا اولبيرا ، نقيب بالحكومة العسكرية ويسكن فى الدور الاول ، أ) .

– هل تفكرونه حضراتكم جميعا بنفس الطريقة .

دون أرترو ريكوتى ، موظف بالبنك الهسبانو امريكانو ، جار بالدور الرابع ، د . تحدث بصوته المتزاوج النغمة :

– نعم يا سيدى .

وصوت بالايجاب دون خوليو مالويندا ، البحار التجارى على المعاش بالدور الثانى ، ث ، والذى يبدو بيته مثل دكان روبابيكيا ملىء بالخرائط والرسوم المحفورة ونماذج بواخر ، وكذلك دون رافائيل سايس ملاحظ عمال البناء بالدور الثالث . د .

– نعم ، نعم .

وقال دون كارلوس لوكى التاجر مستأجر الشقة ، د. بالدور الأول .

– دون أدنى شك ، فان سنيور اوستولاثا معه الحق ، ويجب علينا أن نكون العون المطلوب لجارتنا الراحلة .

دون بدور بابلو تاوستى ، مالك ورشة اصلاح الأحذية (عيادة الأحذية الحريمى) ، لم يحب أن يسير ضد التيار .

– أنا كل ما تقولون ، يظهر لى طيبا .

وتحدث دون فرناندو كاثويلا مندوب المحاكم ، وساكن الشقة الوسطى ، ب ، والذى التقى ليلة امس بصديق زوجته مختبئا فى استكانة شديدة فى سلة الملابس المتسخة ، بينما كان الجميع يبحثون – بأوامر دون ابراهيم – عن المجرم .

– انها فكرة مناسبة ومرنة ، فلنتعاون فى تنفيذها .

أغلق التصويت دون لويس نواليخو ، ممثل احدى شركات الغزل المحلية بمدريد ، وقاطن الشقة الوسطى ، ث .

– أقول نفس ما قالوا .

– شكرا جزيلا ، سادتى ، فأنا أرى اننا جميعا متفقون ، وكلنا تحدثنا وعبرنا عن وجهات نظرنا المتوافقة . واثنى على تضامنكم الودود ، وأضعه بين يدى القس البار جارنا اسكوبيريو استريميرا ، كى ينظم كل الطقوس طبقا لمعرفته الصلبة كرجل كنيسة فى القانون الكهنوتى .

دون اكسوبيريو أومأ ايماءة عجيبة .

– أقبل وصيتكم .

وصل الشىء إلى نهايته وبدأ الاجتماع ينفض شيئا فشيئا . بعض الجيران كانت لديهم اعمال معطلة أو على الاقل فكروا انه من كان – من المحتمل – ان أعماله معطلة هو دون ابراهيم . وآخرون – فمن كل جمع هناك البعض – ممن كانوا متعبين من قضاء ساعة على أقدامهم . دون قومر سندو لوبث ، موظف وجار السلاملك ، ث ، والذى كان الحاضر الوحيد الذى لم يتكلم. مضى يسأل نفسه وهو ينزل السلم :

– ومن أجل هذا تحملت عناء الخروج باذن من المكتب ؟

* * * *

دونيا ماتيلدى ، عند عودتها من محل ألبان دونيا رامونا ، تقول للخادمة :

– غدا ، اشترى كبدا من اجل الغداء ، يا (لولا) ، حيث أن دون تيسيفونتى يقول انه مفيد جدا للصحة .

دون تيسيفونتى هو الوحى بالنسبة لدونيا ماتيلدى . وهو أيضا ضيفها .

– كبد طرى حتى يمكن عمله مع طبيخ الكلى ، مع قليل من

النبيذ والبصل المخرط .

لولا دائما تقول (حاضر) ، ثم بعد ذلك تشترى من السوق أول شىء يقابلها و يتفق مع مزاجها .

سيوانى يخرج من بيته . فى كل الأمسيات ، وابتداء من السادسة والنصف ، يبدأ فى عزف الفيولين فى مقهى دونيا روزا ، وتبقى زوجته ترقع القمصان والجوارب فى المطبخ . الرجل وزوجته يعيشان فى بدروم فى شارع دى رويث - بدروم رطب وعفن ، يدفعان ايجاراً له خمسة عشر دورو ، لكن يجعل الأمور اقل سوءا انه على بعد خطوة من المقهى ، فلا يضطر سيوانى إلى دفع شىء فى الترام .

- وداعا سونسولس . إلى اللقاء .

المرأة ، حتى عينها لا ترفيعها عن الخياطة .

- وداعا ألفونسو ، اعطنى قبلة .

سونسولس (١) عندها ضعف فى النظر ، وجفونها حمراء ، وتبدو دائما كأنها لم تكد تنفض من البكاء . المسكينة ، مدريد لم تناسبها . فعندما كانت حديثة الزواج كنت تراها

---

(١) الاسم يحمل نغمة السخرية . فمعناه (شموس) بينما هى منطفئة ضعيفة النظر .

حسناء ، مشرقة ، يسعد الانسان بمرآها ، لكنها ، الآن ، رغم عدم دخولها فى سن الشيخوخة حتى هذه اللحظة ، تراها وقد صارت حطام امرأة . لقد خرجت حساباتها خطأ ، اعتقدت ان الطعام - ولا سيما السجق - يتوافر اكثر من الحاجة بمدريد ، فتزوجت بمدريداوى ، والآن المشاكل ليس لها حل وادركت مدى الخطأ الذى وقعت فيه . فى قريتها بمحافظة أبيلا ، كانت آنسة بحق ، تأكل حتى تملأ بطنها . فى مدريد ، هى تعيسة ، تلجأ إلى سريرها فى معظم الليالى دون عشاء .

* * *

مكاريو وخطيبته يتشبث كل منهما بيد الآخر ، ويجلسان على دكة فى (عشة) السيدة فروكتوسا عمة ماتيلدى والبوابة بشارع فرناندو السادس .

- وداعا وإلى اللقاء .

ماتيلديتا ومكاريو يتحدثان فى همهمة .

- وداعا يا عصفورى ، سأذهب للعمل .

- وداعا يا حب ، وإلى اللقاء غدا ، وسأظل طوال الوقت زفكر فيك .

مكاريو يضغط طويلا يد الخطيبة ، وينهض وتمر به رعدة لدخول (شغته) من الدكه فى جسمه !

– وداعا يا سيدة فروكتوسا ، وشكرا جزيلا .

– وداعا يا ولدى . . العفو !

مكاريو شاب كله ذوق حتى انه يقدم الشكر يوميا للسيدة فروكتوسا (١) .

ماتيلديتا لها شعر يشبه «شوشة» كوز الذرة ، وعندها قصر نظر . انها صغيرة الحجم وظريفة رغم دمامتها . وهى تقدم دروسا فى البيانو كلما اتيحت لها الفرصة . انها تعلم الاطفال الحان (تانجو) تحفظها فى ذاكرتها ، ولها تأثير عاطفى كبير .

فى بيتها تساعد أمها وأختها خوانيتا دائما . انهما يطرزان لحساب التجار .

ماتيلديتا عندها تسعة وعشرون عاما .

* * *

---

(١) يسخر منه لان ذلك معناه أن يتطفل على السيدة فروكتوسا يوميا للاختلاء بخطيبته حتى يتجنب دعوتها إلى مكان يدفع فيه بعض النقود .

بنات دونيا بيسى ودون روكى - كما يعرف قراء الكيروييين التبشيرى - عددهن ثلاث ، والثلاث شابات لهن مظهر حسن ، الثلاث ثقيلات الظل .

الكبرى اسمها خوليتا ، عندها اثنان وعشرون عاما ، وشعرها مصبوغ اشقر ، طويل ، متموج تشبه جيان هارلو (١) .

والوسطى اسمها بيسيتاثيون ، نفس اسم الام ، وهى كستنائية الشعر ، بعيون عميقة وحالمة .

والصغرى اسمها (أمل لديها خطيب رسمى(٢)، يستقبلونه فى البيت ويتكلم مع ابيها فى السياسة . (أمل) تعد (جهازها) ، واكلمت التاسعة عشرة منذ قليل .

خوليتا ، فى تلك الايام كانت شديدة الغرام بمرشح لوظيفة محاسب . الخطيب اسمه بنتورا اقوادو سانس ، وقد امضى سبع سنوات يقدم طلبات لمكاتب المحاسبة دون جدوى ، هذا بدون وضع سنين الحرب فى الاعتبار .

---

(١) جيان هارلو : نجمة سينمائية امريكية كانت نموذجا لنجمة الاغراء فى ثلاثينات هذا القرن .

(٢) كلما قامت علاقة بين شابين ، اطلق عليهما خطيبان ، وان لم تتم الخطوبة رسميا .

– لكن – يا رجل – لم لا تقدم – كخطوة – فى الحكومة .

هكذا اعتاد ان يسمع من والده ، وهو صاحب مزارع لوز فى تراقونا .

– لا ، يا بابا ، انها لا لون لها .

– لكن – يا ابنى – فى مكاتب المحاسبة لن تجد فرصة ولو بمعجزة .

– فرصة ؟ أمامى الفرصة عندما احب المشكلة اننى لا اقبل إلا «مدريد» أو «برشلونه» ، فالعمل المحاسبى لا قيمة له إلا فى المدينتين .

– حقا ! لكن ما لها بلنسية ، أشبيلية ، سرقسطة ، اظن ان مركز المحاسب كبير فيها ايضا .

– لا يا بابا انك تقع فى خطأ جوهرى . اننى اعددت لى مكانا أعيش فيه ، فاذا أحببت أن اتركك . . .

– لا يا رجل ، لا ، لا تصل إلى نتائج بغير مقدمات ، ابق . فى النهاية ، سنبدأ ذلك من جديد ؟ !

– شكرا ، بابا ، فأنت رجل ذكى ، وكنت محظوظا جدا بكونى ابنا لك .

– من الممكن ، فأى اب آخر كان قد ارسلك إلى الجحيم منذ زمن بعيد . لكن حسنا ، ما أقوله لنفسى ، آه لو صار ابنى محاسبا فى يوم من الايام !

– «لم تبن بغداد فى ساعة يا عباد» . صبرا يا بابا !

– لا يا ابنى فى (ساعة لا) ، لكن فى سبع سنوات كان من الممكن بناء بغداد اخرى بجوارها ! ايه ؟

بنتورا يبتسم .

– لا تشغل نفسك يا بابا ، سأصل إلى مركز محاسب مدريد ، واحدة (لكى) ؟

– ايه ؟

– سيجارة (لكى) ، غير سوداء ، تحب ؟

– لا ، أفضل سجائرى السوداء .

دون بنتورا اقوادو دسبخلس يفكر فى ان ابنه لن يصل أبدا إلى وظيفة محاسب ، مدام يدخن سجائر بيضاء مثل آنسه . فكل المحاسبين الذين عرفهم اناس جادون ، ذوو فطنة ، ورصانة ، لهم اساس ، ويدخنون السجائر السوداء .

– هل تحفظ القانون المدنى ؟

– احفظ ، لا . الحفظ تأثيره سيىء .

– ومجموعة القوانين التى تنظم المحاسبة .

– هذه ، نعم . اسأل فى أى شىء شئت .

– لا ، ليست لدى أسئلة ، وانما حب الاستطلاع !

بنتورا اقوادو سانس يصنع بأبيه ما يشاء . ويثقل عليه دائما بمسألة الخطأ الجوهرى وانه اعد لنفسه مكانا يعيش فيه .

الابنة الثانية لدونيا بيسى تشاجرت مع خطيبها منذ وقت قصير . مدة علاقتهما اكملت عاما كاملا . خطيبها القديم يسمى مانويل كورديل استبان طالب طب . والآن ، من اسبوع ، الفتاة تخرج مع شاب آخر ، ايضا طالب طب (مات الملك ، يحيا الملك) .

بيسى عندها بديهة عميقة للحب فى اليوم الأول سمحت لصاحبها الجديد ان يضغط على يدها بهدوء معين .

اثناء توديعه لها عند باب بيتها لقد تناولا معا وجبة (العصارى) ، شاى وحلوى فى مقهى (قاريباى) . الشىء الثانى ، انها سمحت له بالقبض على ذراعها اثناء عبور الشارع ، وكانا يرقصان نصف متلاصقين فى مرقص كاسا بلانكا . الشىء الثالث ، سحبت يدها التى حملها صاحبها طول المساء ، وهما يستمعان إلى الموسيقى ويتبادلان النظرات فى صمت بمقهى

ماريا كريستينا . .

– الكلاسيكى ، عندما يبدأ رجل وامرأة فى المحبة (١) (بعد تفكير طويل ، تجرأ على قول ذلك) .

الشىء الرابع ، لم تقدم اية مقاومة عندما يحتضن ذراعها ، لكن مع الظهور بأنها لا تدرك ان ذلك يحدث .

– السينما ، لا . غدا .

الشىء الخامس ، فى السينما ، اختلس قبلة من يدها . والشىء السادس ، فى حدائق الرتيرو ، خلال برد مرعب ، انتحلت له عذرا ، ولا عذر له ، عذر المرأة التى تلقى (قنطرتها) التى يمكن سحبها .

– لا ، لا من فضلك لا ، اتركنى ، اتوسل اليك ، لم أحضر اصبع أحمر الشفايف ، يمكنهم رؤيتنا . .

كانت مختنقة ، وترتعش فتحات انفها اثناء التنفس ، لقد كلفها جهدا هائلا أن تتجاهل ذلك ، ولكن هكذا بقى الامر أكثر تهذيبا .

---

(١) يعلق على سحب يدها معتذرا بأن السلوك الكلاسيكى (المحترم) عندما يبدأ رجل حب امرأة أن يحمل يدها بين يديه طوال الاستماع للموسيقى . يسخر من تفاهة العلاقات بين الفتى والفتاة وسطحيتها . انها صورة متكررة فى اسبانيا (عصر فرانكو) .

الشيء السابع ، في بونوار في سينما بيلباو لف ذراعه حول وسطها وهمس في أذنها :

– بيسى ، نحن وحدنا ، بيسى يا حبيبتى ، يا حياتى .

هي تاركة رأسها يسقط على كتفه ، تحدثت بخيط من صوت ، خيط رفيع من صوت نحيف متكسر ملىء بالعاطفة .

– نعم الفريدو . كم أنا سعيدة !

الفريدو وانقولو ايتشباريا ، كانت ترتعد اصداغه في دوار ، كما لو كان يعانى الحمى ،والقلب بدأ يدق بسرعة غير معتادة .

– الغدد فوق الكلوية . انها هناك تلك الغدد فوق الكلوية ؛ وهى الآن تطلق شحنتها من الإدرينالين .

وثالثة البنات ، أمل انها خفيفة مثل عصفورة السنونو ، خجولة مثل حمامة ، لها صدفتها مثل كل أم الخلول ، لكنها تعرف ان امورها تسير بخير في طريقها كزوجة المستقبل ، وتتكلم قليلا ، وبصوت ناعم ، وتقول لكل من هب ودب :

– كما تحب ، انا اقوم بما تحب انت .

خطيبها اقوستين رودريقس سيلفا ، يعرفها منذ خمسة عشر عاما وهو صاحب مخزن تجارى في شارع الميجور .

والد البنية مسحور بصهره القادم ويرى فيه انسانا ناجحا . والام كذلك .

– صابون ماركة «السحالى» ! من قبل الحرب ، من ذلك النوع الذى لا يملك اقتناءه احد ، ولديه كل ما تطلب منه فقط الذى ينقصه هو الوقت ليحمل اليك ما تشاء .

صديقات البنية ينظرن اليها بشىء من الحسد . أى امرأة محظوظة ! صابون سحالى !

دونيا ثيليا تكوى بعض الملاءات عندما دق التليفون .

– آلو ؟

– دونيا ثيليا ، حضرتك ؟ أنا دون فرنسيسكو .

– أهلا دون فرنسيسكو . ماذا لديك من أخبار طيبة ؟

– كما ترين ليس لدى الكثير . هل ستكونين بالبيت ؟

– نعم ، نعم ، انا – كما تعلم – لا أتحرك من هنا .

– من أجل هذا ، سأكون عندك فى التاسعة .

– عندما تحب ، فأنت تعلم انك فقط تأمر ، هل انادى على . . . ؟

– لا ، لا تنادى احدا .

– أمرك .

دونيا ثيليا علقت التليفون ، وطقطقت اصابعها ، والقت بنفسها فى المطبخ لكى تلقى إلى بدنها كأسا من الانيس ، حلو المذاق . لقد مرت أيام كان فيها كل شىء بأحسن حال . لكن السيىء ، انه ايضا ، تجىء ايام تقلب لها ظهر المجن ، فلا تبيع ولا حتى مقشة واحدة .

* * *

دونيا رامونا براقادو ، فى لحظة مغادرة دونيا ماتيلدى ، ودونيا اسونثيون محل البانها ، ارتدت المعطف وتوجهت إلى

شارع الاخشاب ، حيث تحاول (لف دماغ) فتاة تعمل موظفة تعبئة فى مطبعة .

- فيكتوريا موجودة ؟

- نعم ، هناك ترينها حضرتك .

خلف مائدة كبيرة ، كانت تجلس فكتوريا تلف بعض الكتب.

- اهلا ، ابنتى فيكتوريا ! هل تحبين ان تمرى بعد العمل على محل الالبان ؟ ستحضر بنات اخوتى ، ويمكننا ان تلعب الورق . انا اعتقد اننا سنقضى وقتا ممتعا ، وسنتسلى كثيرا .

احمرت وجنتا فيكتوريا .

- طيب ، حاضر ، كما تحبين يا سيدتى .

لم يكن بين فكتوريا والبكاء سوى انفجار الدموع ، هى تعرف جيدا اين تتجه اقدامها واى طريق تضع نفسها فيه . فيكتوريا تمضى حول الثانية عشرة من عمرها ، ولكنها كانت فى نضج امرأة فى العشرين أو الثانية والعشرين . البنية لها خطيب ، انهوا خدمته العسكرية لانه مصاب بالسل ، المسكين لم يستطع العمل ، ويمضى طوال اليوم فى السرير ، دون اية قوى لاداء أى شىء ، فى انتظار فيكتوريا بعد عودتها من العمل

لعيادته .

– كيف حالك ؟

– افضل .

عندما كانت تخرج أم الخطيب من الغرفة ، تقترب منه فيكتوريا وتقبله .

– لا تقبلينى ، فأنقل اليك هذا .

– لا يهمنى ، باكو ، ألا يعجبك تقبيلى ؟

– يعجبنى طبعا يا امرأة !

– اذن ، ما عدا ذلك لا يهم . انا قادرة على تقبل أى شىء من أجلك .

فى أحد الأيام كانت فيكتوريا شاحبة ومأخوذة اللون . سألها باكو :

– ماذا يحدث لك ؟

– لا شىء ، كنت فى حالة فكر .

– فكر ، فى ماذا ؟

– انك يمكن ان تتخلص من هذا بادواء ، وبأن تأكل حتى الشبع .

– من الممكن ولكنك تعرفين البير وغطاه .

– أنا استطيع البحث عن نقود .

– أنت ؟

صار صوت فيكتوريا متهاويا كما لو كانت سكرى .

– أنا ، نعم ! المرأة الشابة مهما كانت قبيحة توزن بالنقود .

– ماذا تقولين ؟

فيكتوريا كانت هادئة جدا .

– أقول بالضبط ما تسمع . اذا كنت ستشفى فانني سأخالط أى ديك غنى يقبلنى كعشيقة .

بالنسبة لباكو ، ارتفعت قليلا درجة حرارته ، وارتعشت جفونه ، اما فيكتوريا فقد بقيت فى حالة استغراب قليلا عندما قال لها باكو :

– طيب ، ماشى !

لكن فى العمق ، احبته فيكتوريا فى هذه اللحظة أكثر .

* * *

فى المقهى دونيا روزا كانت فى زوبعة من الشجار والغضب . فالذى حطمه لوبث من زجاجات (الليكور) تحول إلى ملحمة

وفى خشونة تفرغ الغضب بالقناطير .

– اهدئى يا سيدتى ، فانى سادفع ثمن الزجاجات .

– طبعا ، هذا طبيعى ! هذا سيكون خيرا وبركة ، اذا دفعته لى من جيبى . لكن ليس هذا هو الأمر فحسب . والفضيحة التى اثرتها ؟ والرعب الذى سببته للزبائن ؟ والاثر السيىء لتناثر الاشياء فوق الارض ؟ ايه ؟ كيف يمكن دفع كل هذا ؟ هذا من يدفعها لى ؟ دابة ! ما أنت إلا دابة ، أحمر (١) قليل الادب ، شوارعى ! الحق على عندما لم ابلغ عنكم (٢) ، وعنكم جميعا ! قلها : اننى طيبة اذا لم افعل ! أين عيناك ؟ فى أى مصيبة كنت ذاهلا ؟ انتم جميعا مثل الثيران ! انت والجميع ! لا تعرفون اين تضعون اقدامكم !

كونسورثيو لوبث ، أبيض مثل الورق ، كان يسعى لان يتماسك ويهدأ .

– كان نحسا يا سيدتى ، ودون رغبة منى .

– طبعا ، يا رجل ! ما كان ينقص هو ان تفعلها عمدا ! اذن نهاية الدنيا ! لو فى مقهاى ، وتحت انفى شخصيا ، يتم كسر

---

(١) و (٢) احمر ، كما كررنا من قبل ، تعنى معاديا للحكومة ، شيوعيا مهينا . اما البلاغ فكان أسلوب العصر فى تحقيق الثأر الشخصى .

الاشياء لى لان مزاج احدهم كسرها ، وهو ليس أكثر من (تافه) اسمه مدير المقهى . . ! لا ، نعم ، فكل شىء سنرتكبه ونصل اليه ! هذا اعرفه أنا ! لكنكم لن تروا هذا اليوم أبدا ! فاليوم الذى يفيض بى الكيل ستذهبون جميعا إلى السجن ، واحدا بعد الآخر ! وأنت أول الحثالة ! لكن قلها ان الواحدة لا تريد ، لكن لو كانت دمائى منحطة مثل دمائكم . . . !

اثناء مشاجرة علنية أمام كل المقهى الصامت فى انصات لصرخات المالكة ، تدخل المقهى سيدة فارعة الطول وبدينة قليلا ، ليست فى شرخ شبابها لكنها لا زالت تحتفظ بحيويتها تماما ، فيها جمال وتدلل وتيه ، ثم تجلس على مائدة امام النصبة . عندما رآها لوبث فقد الدم القليل الذى تبقى له : ماروخيتا .

مع عشر سنوات أضيفت لعمرها صارت امرأة رائعة ، متدفقة الأنوثة ، فياضة الملاحة ، مليئة بالصحة والسلطة . فى الشارع ، كل من يراها يستطيع تشخيص حالتها : ثرية من الأرياف ، متزوجة أفضل زواج ، حسنة الملبس والمأكل ، متعودة على اصدار الأوامر من منصة الرياسة ، وفرض ارادتها المقدسة .

ماروخيتا نادت على أحد الجرسونات :

– أحضر لى قهوة .

– باللبن ؟

– بدون ، من هذه السيدة التى تصرخ ؟

– أنها سيدة المكان ، المالكة .

– قل لها ان تحضر ، لو سمحت .

الجرسون المسكين كانت ترتعد الصينية بين يديه .

– لكن ، ضرورى الآن ؟

– نعم قل لها تحضر لانى استدعيها .

الجرسون ، بايماءات السجين الذى يساق إلى الاعدام يمشى نحو (النصبة) .

– لوبث ، قهوة سوداء . اسمعى يا سيدتى ، بعد اذنك .

دونيا روزا التفتت اليه .

– ماذا تريد ؟

– لا ، أنا لا أريد شيئا ، انها تلك السيدة تنادى على حضرتك.

– أيهن .

– تلك ذات الاساور والجواهر ، تلك التى تنظر الينا .

– تنادى على أنا ؟

– نعم قالت لى : المالكة ، لا أدرى ماذا تريد . يبدو عليها انها سيدة مهمة ، ذات امكانيات . قالت لى ، قل للمالكة ، لو سمحت – ان تحضر إلى .

اقتربت دونيا روزا من المائدة مقطبة الجبين نحو ماروخيتا . لوبث حجب عينيه بيديه .

– مساء الخير ، تبحثين عنى حضرتك ؟

– هل أنت المالكة ؟

– فى خدمتك .

– اذن عنك ابحث . دعينى اقدم لك نفسى : انا سنيورا قوتييرث ، دونيا ماريا راميرو دى قوتييرث .

تفضلى حضرتك بطاقتى ، فيها عنوانى أنا وزوجى نعيش فى تومييوسو فى أقليم المدينة الملكية حيث توجد ضياعنا التى منها نرتزق .

– مفهوم ، مفهوم .

– لكننا الآن ضقنا بالريف ، الآن نرغب فى تصفية كل ذلك للقدوم للعيش فى مدريد . الزراعة ، منذ الحرب ، صارت سيئة

جدا ، دائما يوجد حسد ونوايا سيئة ، وأنت سيدة العارفين .

– نعم ، نعم .

– اذن واضح ، فضلا عن أن الاولاد كبروا ، وبعد المدارس الجامعة – ما يجرى دائما – واذا لم نجىء فقدنا تعليمهم .

– طبعا ، طبعا ، عندكم أولاد كثيرون ؟

سنيورا قوتييرث كانت تكذب قليلا .

– نعم ، نعم . عندنا خمسة اولاد . الاثنان الكبار على وشك بلوغ العاشرة . صاروا رجالا . وهما توأمان من زواج آخر . لقد تحولت إلى ارملة وأنا فى شرخ شبابى انظرى إلى التوأمين .

عندما رأت دونيا روزا صورة الولدين فى تعميدهما الاول احست احساسا غامضا بان الوجهين ليسا غريبين عليها .

– وطبيعى ، عند قدومنا لمدريد نود معرفة ما يمكننا هنا بشكل تقريبى .

– هيه ، هيه .

اخذت دونيا روزا تهدأ تدريجيا ، فليست هى نفسها عندما اقتربت من المائدة . دونيا روزا – مثل كل من يصرخون كثيرا – تصير عود خبيزة اخضر عندما يتم اكتسابها بين اليدين .

– زوجى فكر انه ربما لا يكون سيئا امتلاك قهوة ، والعمل بها ، ويظن ان ذلك يمكن ان يكون ناجحا .

– ايه ؟

– نعم ! الامر واضح ، فنحن نفكر فى شراء مقهى ، اذا لم يبالغ صاحبه فى ثمنه .

– أنا لا أبيع .

– لم يقل لك أحد شيئا . ومع ذلك فلا يمكن قول ذلك ابدا .

كل شىء حسب ظروفه . كل ما اقوله لك فقط فكرى فى الأمر – زوجى الآن مريض وسيجرون له عملية ناسور فى الشرج ، لكننا نود البقاء بعض الوقت فى مدريد ، وعندما يشفى سيحضر للتحدث مع حضرتك . الثروة ملك مشترك بيننا ، لكنه المتصرف فى الأمور . اثناء ذلك يمكنك التفكير لو احببت . لا نطلب أى ارتباط يفيدك ، فلم نوقع أية ورقة .

صوت تلك السيدة التى تريد ان تشترى المقهى جرى مثل البارود المبذور بين الموائد .

– من ؟

– تلك .

– يبدو عليها انها سيدة ثرية .

– طبعا ، يا رجل ، حتى تشترى قهوة لن تكون ممن يعيشون على المعاشات .

عندما وصل الخبر إلى النصبة ، «لوبث» الذى كان فى حالة احتضار اطار زجاجة اخرى . . استدارت له دونيا روزا بكرسيها ومعها الجميع . ورعد صوتها مثل قذيفة مدفع .

– حيوان ، انك لحيوان !

استغلت ماروخيتا الفرصة لتبتسم قليلا فى وجه لوبث . لقد فعلها بطريقة فطنة ، حتى ان احدا لم يدرك كيف . ومن المحتمل ان لوبث نفسه لم يدرك أيضا .

– خذى ! كيف تريدين شراء مقهى . والان يمكنك انت وزوجك مشاهدة هذا القطيع من الغنم .

– يحطمون أشياء كثيرة ؟

– كل ما تضعينه بين ايديهم . انا اعتقد انهم يتعمدون ذلك .

* * *

لويس ، مارتين كان ينظر فى فترينة محل مجوهرات ، و (ناتى) كانت بالداخل ، لقد ذهبت لكى يصلحوا لها «بروش»

احدى اساورها ، ناتى غير معروفة ، تبدو وكأنها امرأة اخرى . تلك الفتاة النحيفة السمراء ذات الهيئة المنتمية للحركة النسائية المطالبة بالمساواة اللغوية [١] ، بحذاء رجالى ودون طلاء للوجه ، والتى كانت فى أيام الجامعة ، صارت الآن فتاة رشيقة مهندمة اللباس ، انثوية الحذاء ، معجونة بالغزل والدلال ، وأيضا منحوته فى تفنن . كانت هى من تعرفت عليه .

– ماركو !

مارتين نظر اليها بخوف . مارتين ينظر بخوف إلى كل الوجوه التى تبدو له شبه معروفة ، دون ان يصل إلى تحديد هويتها . انه دائما يفكر انهم سيحتقرونه وسيقولون له أشياء غير مرضية ، ومن المحتمل لو اكل افضل لما مر به ذلك .

– انا روبلس ، الا تتذكر ، ناتى روبلس ؟

بقى مارتين فى حالة جمود وذهول .

– أنت ؟

– نعم ، يا ابنى ، أنا .

---

(١) فى اللغة الاسبانية بعض الصفات واسماء المهنيين (طبيب ، موسيقى . . . الخ) بصيغة المذكر للجنسين . وقد قامت حركة تطالب بالتأنيث لهذه الالفاظ ، وقد تم ذلك بالفعل . والكاتب يريد القول . انها تشبه الرجال .

غزت مارتين بهجة عظيمة .

- أى بربرية انت ! ناتى ، كيف حالك ؟ لك مظهر دوقه ، (ضحكت ناتى) .

- يا فتى ، لتعلم اننى لست دوقه ، ولا تعتقد اننى لست كذلك لعدم رغبتى ، لكن كما ترى فاننى وحيدة بلا أى ارتباط . هل انت على عجل كعادتك ؟

تهته مارتين لحظة ، الحقيقة ، لا ، فأنت تعرفين اننى لست رجلا مهما الآن حتى اتحرك بسرعة .

وضعت ناتى ذراعها فى ذراعه . عبيط كعادتك !

مارتين ارتبك قليلا ، ثم حاول ان يتخلص من الارتباك .

- يمكن ان يرونا .

ناتى اطلقت ضحكة مقهقهة ، قهقهة جعلت الناس تدير رؤوسها فى اتجاهها . صوت ناتى فى غاية الجمال ، عال وموسيقى فى ترطيب ، صوت يشبه جرسا فى غاية الرهافة .

- عفوا يا فتى ، لم أكن اعرف انك مخطوب !

ناتى دفعت مارتين بكتفها ، ولم تطلق ذراعه ، بالعكس تشبثت به بقوة .

– هل تواصل نفس الأشياء كعادتك ؟

– لا ، ناتى ! اعتقد أن الأشياء أسوأ .

شرعت الفتاة فى السير .

– اعرض عن هذا ، لا تكن ثقيل الظل ، إن حاجتك الماسة الآن هى اغتيالك . هل لازلت تنظم الشعر .

يشعر مارتين بشىء من الخجل بسبب استمراره فى نظم الشعر .

– هذا نعم . وهو من سوء الحظ ، حسب ظنى .

– بل من أسوأ الحظ ! (عادت ناتى للضحك) .

– أنت عبارة عن خلطة من ثقل الدم والتصعلك والخجل والاجتهاد .

– لا أفهمك .

– وماذا فى ذلك ؟ كما تحب .

القت ناتى ومارتين عصا الترحال فى مقهى «قران بيا» المليء بالمرايا ، وناتى بكعبها العالى صارت اطول منه .

– هل نجلس هنا ؟

– نعم ، هذا طيب جدا ، ما تحبين .

نظرت ناتى فى عينيه ، وقالت :

– ايه يا فتى ، كم أنت غزل ! يبدو علىّ اننى ساكون آخر غزوة من غزواتك .

كان عطر ناتى يؤرج المكان بالحسن . .

كان يوجد مسكن دونيا ثيليا الجار ، أرملة كورتس ، فى شارع القديسة انقراسيا على الشمال قرب ميدان تشامبيرى .

زوجها دون عبد الله كورتس لوبث ، المشتغل بالتجارة ، كان قد مات بعد الحرب بقليل ، نتيجة المعاناة الاليمة خلال سيطرة الحمر (الجمهوريين) ، هذا حسب ما نشرته صحيفة الابجدية .

عاش دون عبد الله طوال حياته رجلا مثاليا ، مستقيما ، شريفا ، بسلوك لم تمسه شائنة ويعد حسب ما يقول الناس مثلا أعلى للرجال . وكان دائما غارقا فى هواية الحمام الزاجل . وعندما مات قامت بتأبينه احدى المجلات المهتمة بتلك الهواية فى تكريم ودور ، بنشر صورة كاملة له وضع تحت اقدامها ما يمكن قراءته : دون عبد الله كورتس لوبيث ، أحد الأعيان اللامعين لعالم الحمام الهسبانى ، ومولف كلمات النشيد : حلّقى دون قيود ، يا حمامة السلام المجيد ، ورئيس سابق لجمعية محبى

الحمام بمدينة المرية ، ومؤسس ومدير تحرير للمجلة التى كانت عظيمة : حمام وابراج (نشرة شهرية بأخبار الحمام فى العالم أجمع) ، والذى نهدى اليه بمناسبة وفاته الضريبة الحارة للإعجاب مع حزننا . وكانت الصورة محاطة تماما بطوق سميك للحداد . وقد حرر هذه العبارة فى قدم الصورة دون ليوناردو كاسكاخو المايسترو القومى .

وتحيا زوجته فى شظف من العيش على ايجار بعض الكبائن (الغرف) المبنية بطريقة متكلفة ، لبعض أصدقاء ثقة . طراز الكبائن تكعيبى ، ومطلية باللون البرتقالى مع اللون الازرق ، وحيث يحل محل الحد الأدنى من الجو المريح ، الإرادة الطيبة لتوفيره ، مع الفطنة والرغبة العارمة لتحقيق الرضى وتوفير الخدمة .

فى الغرفة الأمامية التى لها شىء من الاعتبار ، والمحجوزة لافضل الزبائن يطل دون عبد الله من إطار مطلى بماء الذهب الصناعى ، وقد برز شاربه مفتولا ، ونظرته ذات حلاوة ، ليشبه شيطانا او صعلوكا للحب والعمل الإرهابى كى يحمى تلك الغرفة متيحا الفرصة لالتهام ارملته .

ان بيت دونيا ثيليا يلخص الحنان فى كل جانب ، حنان يكون احيانا له نكهة العنب غير الناضج ، وفى مناسبات اخرى

يكون ساما بعض الشىء . دونيا ثيليا تضم فى بيتها اليها طفلين صغيرين ، هما ابنا ابنة اخت لها ماتت بسبب انعدام طعم الحياة وانقباض النفس ، والنقص الكامل للفيتامينات ، وذلك منذ اربعة او خمسة أشهر مضت . والطفلان عند وصول أى ثنائى رجل وامرأة يصرخان مبتهجين من اعماق ممر البيت :

يعيش ! يعيش ! هاهو ذا سيد جديد . الملاكان الصغيران يعرفان انه كلما دخل سيد جديد وفى ذراعه آنسة ، كان هناك الطعام الساخن فى اليوم التالى :

دونيا ثيليا ، عند اول يوم اطل عليها بنتورا ومعه خطيبته ، قالت له :

– الشىء الوحيد الذى اطلبه من حضرتك هو الدماثة والرهافة ، فها انت ذا ترى هذين المخلوقين الصغيرين . فلا تقلبا علىَّ البيت رزسا على عقب بالضجيج .

– لا تحملى هما يا سيدتى ، فلن يكون شىء من ذلك ، وفى دمى اخلاق الفارس .

بنتورا وخوليتا يضعان أنفسهما فى الغرفة عند الثالثة والنصف أو الرابعة ، ولا يخرجان حتى تدق الثمانية ، وخلال ذلك لا يسمع لهما حس . هكذا كان وجودهما مثل العسل على قلب

دونيا ثيليا .

في أول يوم كانت خوليتا أقل خجلا عن المعتاد ، كانت تبحلق في كل شيء ، وتعلق على كل شيء .

– نجفة مرعبة تشبه صندوق حقن ، هل رأيت ؟

بالنسبة لبنتورا لم يكن الشبه واضحا بين النجفة وصندوق الحقن .

– لا يا امرأة ، كيف ذلك . لا تكوني في حمق أوزة ، اجلسي هنا بجواري .

– سأفعل .

دون عبد الله كان ينظر إلى الثنائي – تقريبا – في عنف وقسوة .

– اسمع ، من يمكن ان يكون هذا ؟

– وكيف أعرف ؟ له وجه ميت . انه ينبغي ان يكون قد مات نهائيا .

تواصل خوليتا التجول في ارجاء الغرفة . ربما عصبيتها هي التي كانت تدفعها للتحرك في الغرفة من جانب لآخر . وبالتالي ، فلم تلاحظ عليها تلك العصبية .

- لا يدور ببال أحد وضع أزهار من الكريشة المصنوعة من القطن ! انهم يغرسون الأزهار الصناعية فى نشارة الخشب بالتأكيد لانهم يظنون ان ذلك يصير جميلا جدا ، أليس كذلك ؟

- نعم ، من الممكن .

لم تكن خوليتا لتتوقف حتى بمعجزة .

- انظر ، انظر ! هذا الكبش أعور ، مسكين !

بالفعل الكبش المطرز فوق الوسادة كانت تنقصه عين ، بنتورا أخذ هيئة جادة ، لأن ما يحدث أصبح تلك الحكاية التى لا تنتهى ابدا (الباب يحتاج مسمار ، والمسمار عند النجار ، والنجار يحتاج قمحة ، والقمحة عند الفلاح والفلاح . . . الخ) .

- هل تحبين أن تهدأى ؟

- أى منك يا ابنى ، كم أنت خشن !

كانت خوليتا تفكر فى أعماقها :

- اى سحر فى ان نسمو إلى الحب على أطراف أصابعنا .

خوليتا كانت فنانة ، وبدون شك فنانة اكثر بكثير من خطيبها .

* * *

عندما خرجت ماروخيتا راميرو من المقهى ، دخلت مخبزا

واستعملت تليفونه لتتصل بوالد ابنيها التوأم :

– أعجبتك ؟

– نعم ، اسمعى ماروخا ، لكنك مجنونة !

– لا ، كيف اكون مجنونة ! انا حضرت حتى تعايننى وترانى، فلم احب ان تقابل بمفاجأة هذه الليلة ، وتصاب باحباط .

– طيب ، طيب .

– اسمع حقيقى هل أعجبك حتى اليوم ؟

– امرأة . . .

– اسمع من هذا الآخر ، لم انجب اولادا .

– لكن ، وهو ؟

– عنده سرطان فى حجم بيت . الطبيب قال لى انه لا أمل فى شفائه .

– مفهوم ، خلاص ! اسمعى .

– ماذا ؟

– حقيقى تفكرين فى شراء المقهى ؟

– إذا احببت انت : أشتريه . عندما يموت ونتزوج . هل

تريدها هدية زواج ؟

– لكن ، امرأة !

– صحيح يا فتى ، لقد تعلمت الكثير . فضلا عن ذلك فانا غنية وافعل كل ما يطابق مزاجى . فهو يترك لى كل شىء ، وقد ارانى الوصية . خلال خمسة أشهر لن اترك نفسى اختنق بخمسة ملايين .

– نعم ، نعم . . .

– تحملين فى الحقيبة صور الولدين ؟

– نعم .

– وصورى ؟

– لا ، لا احمل صورا لك ، فعندما تزوجت احرقتها ، هكذا ظهر لى افضل .

– هناك ، هذه الليلة اعطيك الف صورة لى .

– ستحضر متى ، على وجه التقريب ؟

– عندما نغلق ، الواحدة والنصف او الثانية إلا ربعا .

– لا تتأخر . ايه ؟ تعال مباشرة .

– حاضر .

– هل تتذكر المكان ؟

– نعم .

– غرفة ٣ ، ايه ؟

– نعم ، اسمعى سأغلق الآن ، حيث ان الدابة ، تقترب من هنا .

– وداعا ، وإلى اللقاء ، القى اليك بقبلة .

– نعم .

– استقبلها ، استقبل كل قبلاتى وليس واحدة فقط بل ألف . . .

كانت صاحبة المخبز المسكينة فى حالة من الرعب المخيف ، عندما انهت ماروخيتا راميرو المكالمة التليفونية وودعتها مقدمة الشكر لها ، المرأة لم تستطع الرد على تحية الوداع أو الشكر ولو حتى بايماءة .

* * *

انهت دونيا مونت سرات زيارتها .

– وداعا ، ايها الصديقة بيسيتاثيون ، رغم اننى كنت أود ان اقضى كل اليوم إلى جوارك انصت إلى حديثك العذب .

– شكرا جزيلا .

– ليس مجاملة ، ولكنها الحقيقة . عندى حفلة دينية لاعداد نفسى لصلاة الغد .

– آه ، من أجل ذلك !

– نعم ، فقد فاتتنى حفلة الامس .

– لقد تحولت إلى علمانية . فى النهاية . ادعو الله ألا يأخذنى بعقابه !

لم تكد دونيا مونت سرات تصل إلى الباب حتى خطر ببال دونيا بيسيتاثيون ان تقول لصديقتها ما رأيك فى رفع الكلفة بيننا فى الحديث .

– هل تحبين حضرتك ، ان نتوقف عن استخدام كلمة حضرتك فيما بيننا ، ما رأى حضرتك ؟

دونيا مونت سرات ودودة جدا ، ولو قالت لها صديقتها ذلك لبادرت بقولها : طبعا ، طبعا بالتأكيد .

دونيا بيسيتاثيون تفكر ايضا فى ان تقول لها :

– واذا تخلصنا من كلمة حضرتك ، فمن الافضل ان اناديك مونسى ونادينى بيسى . حقيقى ؟

وكانت دونيا مونت سرات ايضا ستوافق على ذلك ، فبالتروى فى الموقف فالاثنتان صديقتان وشبه محنكتين . ولكن ، الاشياء هى الأشياء ، فمع الباب المفتوح لم تستطع ان تقول اكثر من :

– وداعا صديقتى ، ولا تبيعى ود من احبوك .

– لا ، لا ، الآن سأرى كيف ازور هذا المكان كثيرا .

– ان «شاء الله يصدق» !

– نعم ، اسمعينى بيسيتاثيون ، لا تنسينى ، فقد وعدتينى بقطعتين من صابون السحالى بسعر جيد .

– لا ، لا ، لا تحملى هما .

دونيا مونت سرات تخرج من بيت دونيا بيسى تحت نفس الشعار الذى دخلت به ، لقد انصرفت عندما كان ببغاء الدور الثانى يردد الفاظه الآثمة الجارحة .

– أى فزع ! ما هذا ؟

– ولا كلمة ! هذا يا ابنتى ببغاء هى والشيطان سواء .

– حقيقى ، فأنا الآن لا اعرف ما افعل .

رابيليه ببغاء ذات خبث بالغ ، ببغاء شريرة بلا مبادىء فيها

ذكورة لم تعرف الخصاء ، لا تهزم فى سباق . ربما فى فترات يكون اكثر هدوءا ، فيقول كلاما مهذبا لببغاء رهيفة مثل : البرتغال والشيكولاته . ولكنه لانعدام الضمير عنده . عندما تغيب صاحبته ولا يظن منه النطق ، يبدأ فى نطق الالفاظ الجارحة والآثمة بصوت محشرج لعجوز عانس . ملاك ، وهو طفل رقيق القلب لاحد الجيران ، كان يحاول هداية رابيليه إلى الطريق المستقيم ، لكنه لم ينجح فى شىء من ذلك ، ذهبت جهوده سدى ، وسقط عمله فى الفراغ . بعد هذا . انخفضت روحه المعنوية وتخلى عن المهمة تدريجيا ، ومن ثم ، وجدت الببغاء نفسها بدون مؤدب ، فمضت تتكلم بكلام يخجل الناس من سماعه . وكما هو المنتظر ، فقد لفت احد الجيران ، دون بيو ناباس بيريث ، مراقب بالسكك الحديدية ، نظر صاحبته للامر .

– انظرى حضرتك ، امر ببغائك غطى ووطى ، صار كستنائيا غامقا . لم اكن اود ان اقول شيئا لحضرتك ، لكن الحقيقة ، لم يعد هناك اى حق فيما يحدث . فكرى – حضرتك – فى اننى عندى «كتكوتة» يطلبونها للزواج . ليس جميلا ان تسمع هذه الأشياء . هذا – على الاقل – ما اعتقده انا .

– صحيح ، دون بيو ، معك الحق الذى هو فوق حق القديسين ، سألفت نظره . رابيليه هذا لا يمكن تصحيح اخطائه .

* * *

الفريدو انقوادو ايتشباريا يقول لعمته دونيا لوليتا ايتشباريادى كاثويلا :

– بيسى فتاة – لسوف ترينها – على احدث طراز ، طيبة المزاج ، ذكية ، جميلة ، وانا اعتقد اننى احبها كثيرا .

عمته دونيا لوليتا كما لو كانت مذهولة . الفريدو يشك فى ان الامر ليس محققا لعنة لها .

– عمة ! يبدو لى انه لا يعنيك ما أحكى لك عن علاقاتى .

– نعم ، نعم ، كم انت أبله ، كيف تظن انه لا يعنينى ؟

بعد ذلك بدأت السيدة دى كاثويلا تقوس يديها وتقترف أشياء غريبة وانتهت بان انفجرت فى البكاء العنيف ، الدراماتيكى ، المدوى . فزع الفريدو .

– ماذا جرى لك ؟

– لا شىء ، لا شىء اتركنى !

حاول الفريدو تعزيتها والتسرية عنها .

– لكن ، امرأة ، يا عمتى ، ماذا عندك ؟ هل ذكرتك بشىء ؟

– لا ، لا اتركنى ، اتركتى أبكى .

حاول الفريدو ، أن يمزح معها ، ليرى هل من الممكن رفع

روحها المعنوية .

– خير يا عمة ، دعك من الهيستريا ، فانت ، وقد انتهى الامر ، ليس عندك ثمانية عشر عاما . وأى إنسان يراك الآن سيظن انك تعانين متاعب غرامية . .

لم يقل لها ذلك قط من قبل . السيدة دى كاثويلا ، اصفر وجهها وابيضت عيناها . بووم ! سقطت على وجهها فوق الأرض – العم فرناندو لم يكن فى البيت ، فلقد كان فى اجتماع مع كل الجيران لانه قد وقعت جريمة فى الليلة الماضية فى البناية ؛ وكانوا يودون تبادل الانطباعات ، والاتفاق على بعض الاشياء .

ألفريدو أراح العمة لوليتا فى أريكة ، ورش بعض الماء على وجهها . وعندما استراحت طلب الفريدو من الخادمات اعداد فنجان من مغلى زهور الزيزفون لها .

وعندما استطاعت دونيا لوليتا الكلام ، نظرت إلى الفريدو وقالت له بصوت بطىء وكئيب :

– هل تعلم من سيشترى سلة الملابس المتسخة ؟

بقى الفريدو بعض الوقت مستغربا للسؤال .

– لا أعلم ، أى تاجر روبابيكيا !

اذا تعهدت باخراجها من البيت ، فاننى سأهديها لك . فأنا لا

احب ولا حتى رؤيتها . كل ما يعطونه لك ثمنا لها حلال عليك .

– طيب .

انشغل بال الفريدو بطريقة خاصة ، فعندما عاد عمه ناداه (على انفراد) وقال له :

– انظر يا عم فرناندو ، اظن انك يجب ان تحمل العمة إلى الطبيب، فمن وجهة نظرى : انها تعانى من ضعف عظيم فى الاعصاب . فوق ذلك ، فلديها نزوات . لقد قالت لى ان ازيح من البيت سلة الملابس المتسخة [١] ، فانها لا تطيق حتى رؤيتها .

دون فرناندو لم يتأثر ، ويقى باردا كما لم يكن الامر خطيرا. الفريدو عندما رآه هادئا بهذه الطريقة ، فكر فى ان لهما شأنهما . وانه من المستحسن الا يقحم نفسه فى الامر . وقال لنفسه :

– انظر ، من يجن فليجن . فقد قلت له كل شىء بوضوح ، فاذا لم يعيروا ما أقول انتباها فسيصير الامر اسوأ بالنسبة لهما ، فبعد ذلك سوف يأتى الندم وقت لا ينفع الندم .

* * *

---

(١) يمكن ان نتذكر ان العم فرناندو اثناء بحثهم عن المجرم الذى قتل دونيا مارقوت ، ضبط عشيق زوجته العمة لوليتا فى سلة الملابس المتسخة ، وطبعا الفريدو لا يعرف ذلك .

أمى الحبيبة . .

اكتب إلى حضرتك بعض الكلمات كى ابلغك بالخبر الذى اعرف انه سيسعدك . وقبل الخبر اتمنى ان تكون صحتك فى أفضل حال مثل صحتى حاليا ، ونحمد الله ولتبقى فى متعة عمرا طويلا فى صحبة الشقيقة الطيبة باكيتا وزوجها وابنائها .

وبعد ، ما اريد ابلاغك اياه ، هو اننى لم اعد وحيدا فى العالم ، طبعا ما عداكم ، وقد التقيت بالمرأة التى يمكن ان تساعدنى على تأسيس عائلة واقامة بيت ، وان تصحبنى فى العمل ، والتى ستمنحنى السعادة ، ان شاء الله ، بفضائلها كمسيحية صالحة . وسنرى عما اذا كان يمكنك ان تزورى ابنك الذى يفتقدك كثيرا ، وذلك فى الصيف القادم .

ولا تفكرى فى تكاليف السفر ، فبمجرد قدومك سأرد لك تلك التكاليف وزيادة . وسوف ترين كيف ان خطيبتى مثل الملاك .. انها طيبة (ومبسوطة) وذات ذكاء وشرف . واسمها نفسه يوحى بحقيقتها : أمل [١] . انها امل بان يسير كل شىء جيدا . وأسألى الله - حضرتك - كثيرا ان يدعم سعادتنا القادمة ، وان تكون تلك السعادة هى المشعل الذى يضىء شيخوختك .

---

(١) أمل هى الصغرى من بنات دونيا بيسى ودون روكى الثلاث وكاتب الرسالة خطيبها الرسمى .

ولن اضيف شيئا اكثر بهذا الخطاب ، واقبلى ايتها الام العزيزة قبلة ابنك الذى يحبك كثيرا ، ولا ينساك ابدا .

كانت هذه الرسالة فوق المائدة . كانت تحمل هذا العنوان : اقروسيل ، تجارة وعطور ، شارع ميجور ، ٢٠ ، مدريد ، الخطاب مكتوب بخط جميل لخطاط يعطى كل حرف نيلا وزهيرة [١] . ولمسات متعددة . وكانت الرسالة قد تم الانتهاء من كتابتها وتوقيعها .

* * *

كاتب الرسالة عندما انتهى من كتابتها ، نهض واشعل سيجارة ، وقرأها بصوت عال .

– اعتقد انها عظيمة ، وقد وفقت كثيرا فى موضوع (المشعل الذى . . .) [٢] .

بعد ذلك اقترب من المائدة ، وقبل – غزلا ومتفانيا مثل فرسان المائدة المستديرة – صورة ذات اطار من الجلد ، وعليها اهداء يقول : إلى خاصتى ، او قوستين حياتى مع كل قبلات امل .

---

(١) و (٢) لا شك ان الاسبان ورثوا عن العرب بعض فنون الخط العربى ، وهو هنا يشير إلى كتابة فنية لرسالة تتبع بعض قواعد تلك الفنون . –

– حسنا ، لو جاءت امى ، لن اجعلها تتركنى وتعود .

* * *

فى احدى الامسيات ، وفى السادسة فتح بنتورا باب الغرفة ، ونادى على السيدة بصوت منخفض .

– سنيورا !

تركت دونيا ثيليا الغلاية التى كانت تعد فيها كوبا من القهوة من اجل وجبة العصارى .

– حالا اكون عندك ، هل ترغب فى شىء ؟.

– نعم ، من فضلك .

خفضت دونيا ثيليا الغاز حتى تنضج القهوة ببطىء ، وهرعت اليه مسرعة واضعة (فوطة) المطبخ فوق كتفها ، ومجففة يديها بذيل ثوبها .

– هل تنادى على ، سنيور اقوادو .

– يمكن ان تعيرينى ضمادة .

– ايضا نلاحظ اهمية الاحساس البلاغى عند كثير من شخصيات الرواية ، وهو ارث عربى ظاهر فى الحياة اليومية والادب والسياسة يمكن اضافته لفنون الخط ، وغيرها من التأثيرات العربية فى شخصية الاسبانى وسلوكه .

التقطت دونيا ثيليا الضمادة من فوق خشبة تقطيع اللحم والخضر فى غرفة الطعام ، وقدمتها للخطيبين ، ثم انصرفت للتفكير فى الامر ، دونيا ثيليا ترتعد فرائصها وتتألم عندما تعير شيئا يكلف جيبها ، وعندما تفكر ان المتسامرين فى بيتها يشدونها نحو الارض ، وان الامور لا تسير فى صالحها . مضت تقول لنفسها فى محاولة لرؤية الامور بعين اخرى :

– لا ، لا ، فايضا يمكن ان تكون الفتاة مجروحة .

وإذا وضعنا تجارة دونيا ثيليا جانبا ، فانها امرأة ودودة نحو الناس الذين تعرفهم . انها صاحبة نزل لمواعيد الاحبة فى غاية العاطفية .

* * *

مارتين وزميلته ، فى أيام الجامعة ، قضيا ساعة طويلة يتبادلان الكلام :

– وانت ، الم تفكرى مرة فى الزواج .

– لا ، يا فتى ، الآن لا . سأتزوج عندما يكون هناك زوج ثرى ، فالزواج الذى لا يخرجك من الفقر لا معنى له . ويوما ما أتزوج ، فهناك وقت لكل شىء .

– كم انت نائمة فى سعادتك ! انا اظن انه لا يوجد وقت لاى

شىء ، واظن ايضا انه اذا كان لدينا وقت فائض فذلك لآننا لا نستطيع ان نعمل به شيئا .

(تشنج انف ناتى فى طلاوة) .

– أى ، ماركو ، يا ابنى ! لا تبدأ فى انشاء تلك العبارات العميقة .

(ضحك مارتين).

– لا تسخرى منى ، ناتى .

نظرت اليه الفتاة نظرة مليئة بالخبث و فتحت حقيبتها واخرجت حافظة معدنية للسجائر .

– تحب سيجارة ؟

– شكرا ، ففعلا ليس معى سجائر . اى حافظة سجائر جميلة !

– نعم ، ليست قبيحة ، انها هدية .

مارتين يفتش فى جيوبه .

– كان فى جيبى علبة كبريت .

– خذ نارا ، ايضا اهدونى هذه القداحة .

– يا امجاد الله !

ناتى تدخن باسلوب اوروبى جدا ، محركة يديها فى انسياب ورشاقة . وبقى مارتين معلقا نظره بها .

اسمعى ، ناتى ، اظن اننا نشكل ثنائيا شديد الغرابة . انت محل تصويب كل العيون ولا تنقصك اية تفصيلة ، اما انا فمصابيح البقع تضىء ملابسى ، ومرافقى تنفذ من اكمامى .

هزت الفتاة كتفيها :

- ياه ، لا تعر الامر اهمية ، هذا احسن يا ابله ، هكذا لن يعرف الناس اى دور نلعب معا .

شرع مارتين يحزن شيئا فشيئا فى تدريج لا يمكن ادراكه ، بينما كانت ناتى تنظر اليه فى حنان لا حدود له ، حنان لم تكن ترغب فى ان يلاحظ عليها مثله مقابل الدنيا وما فيها .

- ماذا يجرى معك ؟

- لا شىء هل تتذكرين عندما كنا نحن زملاءك فى الجامعة نطلق عليك اسم (قشدة) ؟

- نعم .

شرعت ناتى تحزن شيئا ما .

- هل تذكرين عندما طردك قاسكون من محاضرة علم

الادارة ؟

- نعم .

- هل تذكرين عندما قبلتك فى الحديقة الغربية ؟

- كنت اعرف انك ستسألنى عن ذلك . نعم ، ايضا اتذكر . لقد مر ببالى فى ذلك المساء انك كنت أول رجل قبلنى فى شفتى . . . كم من الوقت مر ! اسمع ماركو .

- اقسم لك اننى لست صعلوكة .

تأثر مارتين .

- لكن ماذا يجعلك تقولين ذلك ؟

الفصل الرابع

– مضت ساعة منذ ان بدأ الشرطى . خوليو غارثيا موراثو يذرع شارع أبيثا جيئة وذهابا (١) . وعلى ضوء فوانيس الشارع كان يشاهد فى حركته ذات الاتجاهين المتعاكسين لمسافة محدودة لا تجعله يبتعد كثيرا . ان الرجل يمشى ببطء ، كما لو كان فى حالة تأمل ، ويبدو انه كان يعد خطواته ، اربعون مصعدة واربعون هابطة ثم يعود لتكرار العد ، احيانا يستمر فى العد حتى الستين ، فيصل إلى الناصية .

الشرطى خوليو غارثيا موراثو جليقى . لم يكن يفعل شيئا قبل الحرب . لقد تفرغ لصحبه ابيه الاعمى من حفل دينى إلى حفل دينى آخر . كان الاب يغنى مدائح للقديس سبران مع عزف على القيثارة . واحيانا عندما يتضمن الحفل شيئا من النبيذ فان خوليو يغنى قليلا بعض الاغانى الدينية رغم انه فى الاغلب كان يفضل الرقص تاركا الغناء لغيره .

وعندما جاءت الحرب (الاهليه) صار رجلا مليئا بالحياة مثل عجل شاب راغب فى القفز ، أو مثل مهر وحشى لا يتوقف عن الوثب ، والغرام بالسردين الدسم والشابات الناهدات ونبيذ

---

(١) احد افراد حرس الشرطة ، ظهر قبل ذلك فى بار ثلستينو وهو الوحيدالمعجب بأفكار نيتشه التى يرددها ثلستينو ، لكن اعجاب القروى شبه الابله ، أما شارع ابيثا فهو الشارع الذى تسكنه فيلو اخت مارتين ماركو ، وزوجة دون روبرتو .

ربيرو . وقد استدعى للخدمة العسكرية . وفى جبهة اقليم استورياس اصابه طلق نارى مزق احد ضلوعه ، ومنذ ذلك اليوم الاسود فى حياته ، بدأ ينحف ويضعف ، ولم يرفع رأسه بعدها قط . والاسوأ ، ان الاصابة لم تكن كبيرة حتى تتحول إلى عاهة مستديمة تؤدى إلى اعفائه من الخدمة ، ومن ثم عاد للحرب فلم يتح له الابلال جيدا .

وعندما وضعت الحرب أوزارها ، بحث عن توصية من قواده والتحق بخدمة الشرطة ، لقد خاطبه ابوه :

– من حيث الجسم ، لم تعد صحيح البدن ، بجانب انك لا يعجبك ان تعمل ، فكم تكون محظوظا لو عينوك شرطيا مسلحا .

لقد اصبح والد خوليو غارثيا موراثو هرما ومتعبا وغير راغب فى العودة للعزف والغناء فى الاحتفالات الدينية .

– انتهى الامر ، سأبقى فى البيت . وبما ادخرته استطيع الاستمرار فى الحياة ، لكن وحدى فليس لدى ما يعولنا نحن الاثنين . .

بقى خوليو – لعدة ايام – يفكر فى الامر مرارا وتكرارا ، وفى النهاية ، عندما وجد اباه مصمما على رأيه اصدر قراره .

– لا شرطى مسلح ، نجوم السماء اقرب ، فهو لمن كان عريفا أو «سيرجنت» اما أنا فأكتفى بشرطة الحراسة .

– وهذا ليس سيئا ، المسألة التى أريد ان تفهمها اننى لا أستطيع اعالتنا معا وكنت أتمنى لو . . . !

شرطى الحراسة خوليو غارثيا موراثو ، تحسنت صحته إلى حد ما ، وشيئا فشيئا ، مضى فى تحسنه حتى انه كان يحصل على نصف «ربعة» زائدة من اللحم (١) . لم يعد قط إلى نفس قوته التى كان عليها .

هذا حقيقى ، ومع ذلك فلم يكن لديه ما يشكو منه . لقد بقى فى معسكره الكثير مجندلين يسفون التراب ، فابن عمه سانتياجينو – دون ان تذهب بعيدا – اصابه طلق نارى اخترق الجربندية التى كان يحملها مليئة بالقنابل اليدوية ، وكانت اكبر قطعة عثروا عليها منه لا تتجاوز الأربع أصابع . .

الحارس خوليو غارثيا موراثو ، كان سعيدا بمهنته ، فقد كان ركوبه الترامواى مجانا ، مجالا لجلب انتباهه . فقد كان يفكر :

– بالطبع فالواحد منا هو السلطة . وفى معسكر الشرطة .

---

(١) االكاتب يكافح من اجل بقاء الكلمات العربية فى الاسبانية ومن بينها الربعة ، ويقصد بها وزن معين . الربعة = ١١,٥ كجم .

احبه الجميع لانه مطيع ومنظم ، ولم يحدث قط ان تجاوز الاوامر مثل كثيرين من شرطة الحراسة ، ممن يعتقدون انهم جنرالات . كان الرجل ينفذ ما يعهد اليه بتنفيذه . لم يشعر بضرورة ان يعطى الوجه القبيح لاحد . نفذ كل ما طلب منه فليس لديه شىء آخر ليفعله ، بل لم يحدث له أن فكر فى أى شئ أبعد من ذلك . وكان يحدث نفسه :

– انجاز الاوامر لا يجعل احدهم يفتح فمه ضدى .وايضا فان الآمر هو الآمر . ومن اجل هذا يحملون النجوم والاشرطة بينما لا احمل – أنا شيئا .

لقد كان الرجل منسجما مع نفسه وغير راغب فى اية تعقيدات .

– فطالما يعطوننى الوجبات الساخنة كل يوم ولا يتجاوز ما اعمله أكثر من التنزه فى مطاردة النساء اللائى يبعن بعض الاغراض فى الاماكن العامة . . .

* * *

فيكتوريا تشاجرت مع امها فى ساعة العشاء .

– متى تتركين ذلك المسلول ؟ فيا للخيبة ! ماذا تظنين انك نائلة من هذا ؟

– أنا أنال ما يحلو لى !

– نعم ، ميكروبات ، وربما – أيضا – تورم فى البطن يفاجئك فى أحد الأيام !

– أنا اعرف ما أفعل ، وما قد يحدث لى فهو مشكلتى أنا .

– أنت ؟ وماذا تعرفين أنت ؟ أنت لست إلا مخبولة لا تعرف الأرض من السماء .

– انا أعرف ما احتاج .

– نعم ، لكن لا تنسى : اذا حدث لك شىء فلا تطأ قدمك عتبة هذا البيت .

انسحب الدم من وجه فيكتوريا .

– هل هذا ما قالته لك الجدة ؟

نهضت الأم وضربتها صفعتين من أعماق الروح ، فيكتوريا لم تتحرك .

– صعلوكة ! سيئة التربية ! فعلا صعلوكة ! هذا ليس اسلوب الحديث مع ام

جففت فيكتوريا الدم الذى انبثق من اسنانها .

– كذلك ليس اسلوب الحديث مع ابنة . فاذا كان خطيبى

مريضا فانها تعاسة كافية لا ينقصها طوال اليوم ان تنعتيه بالمسلول .

– دعيها تذهب إلى السرير ! فعلا ليس لك الحق فى ان تكلميها بهذا الاسلوب .

ماذا تحب فى هذا الشاب ؟ دعيها تحب ما تحبه ، فكلما ضغطت عليها ستصير المسائل اسوأ . ايضا ، كم تظنين ان المسكين سيعيش !

ومن المطبخ كان يسمع النشيج المتقطع للفتاة فى سريرها ، الذى القت بنفسها عليه .

– اطفئى النور ، فالناس لا تحتاج النور للنوم .

– سامعة يا بنت ؟

بحثت فيكتوريا زحفا عن «كمثرى» النور وزطفأته .

* * *

دون روبروتو يدق جرس بيته . لقد ترك مفاتيحه فى البنطلون الآخر ، ودائما يحدث له نفس الشىء ، ولا يفعل اكثر من قوله : سأنقل المفاتيح إلى البنطلون عند تغييره ، سأنقل المفاتيح إلى . . . . فتحت له زوجته الباب .

– أهلا روبرتو .

– اهلا .

المراة تحاول ان تعامله بالحسنى وان تكون ودودة معه ، فالرجل يشتغل كعبيد السخرة حتى يحفظ لهم الرأس طافية فوق الماء .

– انك قادم من البرد ، البس «هذا النعل» ، الذى وضعته لك بجوار الفرن .

ارتدى دون روبرتو النعل والجاكتة القديمة التى يتدفأ بها فى البيت ، وهى قد كانت فى ازمان شبابها على الطراز الامريكى ، وذات لون بنى به خطوط بيضاء بشكل بالغ الاناقة .

– كيف حال الاولاد ؟

– بخير وهم نائمون الآن ، مع ان الصغير شن حربا قبل النوم ، لا أدرى هل به شىء من المرض أم . . .

تحرك الزوج والزوجة نحو المطبخ . المطبخ هو المكان الوحيد فى البيت الذى يمكن الجلوس به فى الشتاء .

– هل عاد ذلك المغفل للظهور (١) ؟

---

(١) يشير إلى أخيها مارتين ، فهما فى عداء تقليدى مثل عداء القطة والفار .

لقد تجنبت المرأة الاجابة ، فمن المحتمل انهما التقيا عند بوابة البناية ، وأية اجابة قد تتحول إلى مشاجرة شيطانية .

– لقد احضرت لك (سجقا) مقليا للعشاء .

ظهر الرضا على وجه دون روبرتو ، فالسجق المقلى من بين المأكولات التى يعشقها أكثر .

– رائع !

ابتسمت له المرأة بدلال .

– وببعض القطع النقدية التى اختلستها من المصروف اشتريت لك نصف زجاجة نبيذ . انك تعمل كثيرا ، وقليل من النبيذ بين الحين والآخر يعود بالصحة على بدنك .

دابة جونثالث – كما يسميه صهره – كان رجلا مسكينا ؛ رب عائلة وأبا شريفا ، اكثر تعاسة من دلو ، حتى انه انقلب إلى كائن حنون فى الحال .

– كم انت طيبة يا بنية . لقد فكرت كثيرا عما كان سوف يحدث فى حياتى بدونك : كنت لن أستطيع فعل شىء . لكن صبرا ! قليلا من الصبر . فالسنون الاولى دائما عجاف حتى تستقر امورى ، انها السنوات العشر الاولى . وبعدها ستكون الحياة «طبخا وغناء وسمنا وعسلا» ولسوف ترين .

قبل دون روبرتو زوجته فى وجنتها .

– هل تحبيننى كثيرا ؟

– كثيرا – يا روبرتو – وانت بذلك عليم . .

تعشى الزوجان حساء وسجقا مقليا واصبع موز لكل منهما . وبعد «الحلو» حملق دون روبرتو فى وجه امراته .

– اية هدية ترغبين منى شراءها لك غدا ! ؟

ابتسمت المرأة ، وقد فاضت منها السعادة والعرفان .

– أى ، روبرتو ! أية بهجة ! لقد ظننت انك ناس مثل العام الماضى .

– اسكتى يا «عبيطة» ! كيف انسى ؟ لقد كان العام الماضى ما كان ، لكن هذا العام . .

– هكذا ترى ! اننى الآن احس باننى اصبحت شيئا .

المرأة استمرت لبرهة واحدة تفكر فى اشيائها من اصغر الامور ، فكادت تنفجر عيونها من الدمع .

– قولى ! ماذا تحبين ان أهديك ؟

– لكن يا رجل ! فى تلك الظروف النحس التى نمر بها !

خفض دون روبرتو قليلا صوته ، وعيناه معلقتان

بالطبق امامه .

– لقد طلبت بعض المال على الحساب من المخبز .

نظرت اليه المرأة بحنان ، تقريبا بحزن .

– كم أنا بلهاء ! لقد اخذنا الكلام فنسيت ان اقدم لك كوب اللبن الخاص بك !

بينما كانت الزوجة تتوجه نحو الثلاجة يستمر دون روبرتو فى الحديث .

– لقد اعطونى أيضا عشر بيزيتات لشراء أى كلام فارغ للاولاد .

– كم انت طيب يا روبرتو !

– لا يا بنية ، أنت الطيبة .

شرب دون روبرتو كوب اللبن . زوجته تعطيه هذا الكوب كل يوم كعلاوة غذائية .

– بالنسبة للأولاد فكرت فى شراء كرة ، واذا تبقى شىء سأشرب قدح فيرموت فى أحد المقاهى . لم اكن انوى ان اقول لك شيئا عن ذلك لكنى لا استطيع ان احفظ سرا .

* * *

دونيا رامونا براقادو ، طلبها بالتليفون دون ماريو دى لابيقا، احد اصحاب المطابع . الرجل كان يستطلع أخبار أمر كان يسعى اليه منذ ايام عديدة .

– أه ، نعم ؟ فى أى منها ؟

– فى واحدة اسمها «طباعة المستقبل» ، وهى فى شارع الخشب .

– حسنا ، حسنا ، جيد افضل ، هكذا نبقى من نفس النقابة . حضرتك تعتقدين ان . . ؟ ايه ؟

– نعم ، لا تحمل هما ، فهذا عملى . غدا عندما تغلق مر علىّ هنا فى محلى (لبيع الالبان) ، وحينى بأية حجة تخترعها .

– نعم ، نعم .

– بالضبط . ستكون بين يدى غدا ، ولسوف نرى تلك الحجة . فالمسألة – فى رأيى – قد استوت والبنية على وشك الوقوع . انها مخلوقة قد ضاقت من فيض المصائب ، ولم تعد تتحمل ان نتركها «فى حالها» . فوق ذلك خطيبها مريض وتريد ان تشترى له دواء . أن هؤلاء الواقعات فى الغرام هن اسهلهن ولسوف ترى . انها رغيف خبز مأكول !

– وعلى الله التوفيق .

– لسوف ترى . اسمع – يادون ماريو ؟ فى هذه الامور لا أخفض ولا حتى ريال واحد . ايه ؟ كل الحق معى .

– طيب يا امرأة ، سوف نتكلم عن ذلك فيما بعد .

– لا ، سوف نتكلم ؟ لا ، كل الكلام قد قيل . هذا أو أتراجع عن اتمام الامر .

– حاضر . حاضر .

دون ماريو ضحك بطريقة تشعر الآخرين انه رجل مجرب جدا ، ودونيا رامونا ارادت ان تربط كل الحبال جيدا .

– موافق ؟

– نعم يا امرأة ، موافق .

وعندما عاد دون ماريو إلى المائدة قال الآخر :

– ستدخل العمل وتقبض ستة عشر بيزيتا . مفهوم ؟

– نعم ، يا سيدى ، مفهوم .

الآخر شاب مسكين حصل على بعض الدراسة ، لكنه انتهى بأنه لا يجيد شيئا ، فالرجل ليس له الحظ الاسعد ولا الصحة الأطيب ، واسرته تتناقل السل بالوراثة . فقد سرحوا أخا له

اسمه باكو (١) من الخدمة العسكرية لانه لم يكن قد تبقى منه غير شبح لروح لا تقوى على شىء .

بوابات البنايات قد مضى على اغلاقها بعض الوقت (٢) ، لكن جوالة الليل ما زالوا يتقاطرون ، فى بطء يتزايد كل لحظة فى طريقهم نحو الاوتوبيس .

الشارع ... عند اغلاق الليل يتجه إلى أخذ هيئة ما بين صورة النهم وصورة الغامض الاسرار بينما تجرى به الرياح كالذئاب التى تصفر بين البيوت .

الرجال والنساء ، اولئك الذين يبدأون فى الخروج عند هذه الساعة فى اتجاه مركز مدريد هم جوالة الليل الانقياء الذين يخرجون من اجل الخروج ، ويملكون بطالة العودة إلى البيوت مع خيوط الفجر ، انهم الزبائن المنفقون للمال فى الكباريهات والمقاهى بشارع جران بيا (٣) ، تلك المليئة بالنساء المعطرات

---

(١) واضح أن الجامعى المسكين الذى عينه دون ماريو فى مطبعته هو اخ لخطيب فيكتوريا .

(٢) عادة اسبانية استمرت من العهد العربى الاندلسى ، حيث ان لكل شارع خفيرا يحمل مفاتيح كل البنايات وتبدأ مهمته فى فتح الابواب للعائدين إلى بيوتهم بعد اغلاق بوابات كل البنايات ابتداء من الحادية عشرة . بدأت الآن هذه العادة فى التلاشى .

(٣) وسط مدينة مدريد ، حيث الملاهى و المسارح والحياة الليلية .

الجذابات فى اثارة ، اللائى لهن شعر مصبوغ ومعاطف فرو أخاذة سوداء اللون بياقات بيضاء بين الحين والحين . وان لم يكونوا جوالة الليل الأنقياء فهم صعاليك الليل ذوو الجيوب الخاوية على عروشها ممن يجتمعون فى ثرثرة للسمر ، او يتنقلون بين المقاهى الشعبية . انهم جميعا يقبلون أى شىء إلا البقاء فى البيت .

اما الآخرون من الساهرين كشىء عارض فهم زبائن السينما الذين يخرجون بين الحين والحين ، من ليلة إلى أخرى . انهم يعرفون هدفهم مثل رصاصة جيدة التصويب ، ولا يتصعلكون بحثا عن أى شىء يصادفهم . لقد مروا بالفعل قبل اغلاق البوابات . اولا زبائن دور سينما وسط البلد ، عجلون ، أنق فى ملبسهم حتى انهم يركبون التاكسى .

انهم زبائن كاياو ، وكابيتول، وقصر الموسيقى ممن ينطقون اسماء الممثلات نطقا يقترب من الصحة ، وأيضا بعضهم يدعى من وقت إلى آخر إلى السفارة الانجليزية لمشاهدة بعض الافلام فى دار السينما الكائنة بشارع اورفيلا ، انهم يعرفون كثيرا عن السينما. فبدلا من قولهم «فيلم رائع لجوان كروفورد» مثل العامة من زبائن السينما بالضواحى ، يقولون «كوميديا جميلة فرنسية جدا لرينيه كلير» أو «دراما عظيمة لفرانك

كابرا» (١) . لا أحد يعرف على وجه الدقة ما هو «فرنسية جدا» لكن لا يهم فنحن نعيش عصر الجرأة ، ذلك المشهد الذى يشهده بعض الرجال فى تأمل القلب النقى «مذهولين» منذ ذلك الحاجز دون فهم كاف لما يحدث لشدة وضوحه .

زبائن السينما فى الضواحى ، اولئك القوم لا يعرفون أبدا ماذا تعنى كلمة (مخرجين) ، يمرون بعد الاولين بقليل حينما تكون البوابات مغلقة . انهم غير عجلين كثيرا ، وملابسهم اقل اناقة ، على الاقل فى تلك الساعات الليلية . يتمشون بقصد النزهة إلى نار بايس ، التريبولى ، والسلامانكا ، حيث يرون افلاما مشهورة ، قد ذبلت سمعتها منذ اسابيع فى وسط البلد ، افلاما بها اسماء جميلة وشاعرية ، وتطرح الغازا انسانية ليست دائما ذات حلول .

زبائن سينما الضواحى عليهم إن ينتظروا زمنا قبل ان يروا الافلام اول عرض مثل : ريبة ، أو مغامرات ماركو بولو ، أو لو يشرق الصباح .

* * *

---

(١) جوان كروفورد ممثلة امريكية كانت مثلا تحتذيه الشابات ويعجب به الشبان فى الاربعينات ، أما فرانك كابرا ، فهو مخرج فرنسى . مشهور فى نفس الفترة ، ويشير هنا إلى نصف المثقفين الذين يستعرضون ثقافتهم بنسبة الفيلم إلى المخرج بدلا من نسبته إلى الممثلة الاولى كما يفعل العامة.

الحارس خوليو غرثيا موراثو ، فى احدى المرات وصل إلى الناصية فتذكر ثلستينو صاحب البار .

– هذا الثلستينو هو الشيطان بعينه . اى اشياء تقع له ! لكن ليس له وجه ابله ، انه رجل قد قرأ بحرا من الكتب .

ثلستينو اورتث ، بعد ان تذكر ذلك الامر الخاص بالغضب الاعمى والحيوانية ، سحب كتابه ؛ كتابه الاوحد من فوق زجاجات الفيرموت ، وحفظه فى الدرج . الاشياء التى تجرى ! ان مارتين ماركو لم يخرج بجبهة ممزقة إلى قطع بفضل نيتشه . نعم ، ان نيتشه يرفع الرأس .

* * *

من خلف ستائر شقتها بالسلاملك ، دونيا ماريا دى سييرا (أخت دونيا غارسيا موراليس دى بيريث ، زوجة دون كاميلو ، مزيل «الكللو» من الاقدام ، والذى يعيش فى نفس البناية التى يعيش بها دون اقناسيو قالدا كانو ، ذلك السيد الذى لن يستطيع حضور الاجتماع بمنزل دون ابراهيم بسبب انه مجنون) تتحدث إلى زوجها دون خوسيه سييرا ، المساعد بالاشغال العامة .

– هل نظرت إلى هذا الحارس ؟ لا يقوم بشىء سوى انه يذرع المكان جيئه وذهابا كما لو كان فى انتظار احد .

ولا حتى الاجابة تحظى بها من زوجها ، فعند قراءة الجريدة يصير مأخوذا كما لو كان يعيش فى عالم اخرس وغريب ، شديد البعد عن زوجته . اذ لم يبلغ دون خوسيه سييرا درجة كاملة من التجرد ، فانه ليس بمستطيع قراءة الجريدة .

– والآن يعود مرة اخرى فى اتجاهنا . الشىء الذى ينبغى معرفته : ماذا يفعل ! ان هذا الحى هادىء ، وأهله قوم منصاعون للنظام . هل هو من أجل تلك الخرائب عند ميدان ساحة مصارعة الثيران فيما وراء هذا الشارع حيث كل شىء اسود مثل فم الذئب .

خرائب الساحة القديمة لمصارعة الثيران تقع على مرمى حجر من الخطوات من سلاملك دونيا ماريا .

– هناك فالامر مختلف . هناك ، انهم قادرون حتى على قطع طريق الواحدة منا . لكن هنا ! بحب الله ! نعم ؛ هذا الحى فى نعومة زق الزيت . هنا لا تتحرك حتى الفيران !

دونيا ماريا التفتت باسمة . ابتسامتها لم يرها زوجها ، الذى واصل قراءة الجريدة .

* * *

لقد امضت فيكتوريا وقتا طويلا تبكى ، والمشاريع تتعثر ببعضها فى رأسها : منذ ان كانت راهبة حتى ألقت بنفسها إلى إلى

الحياة ، وكل شىء تراه أفضل من البقاء فى بيتها . لو كان خطيبها قادرا على العمل لاقترحت عليه ان يهربا معا ثم يعمل الاثنان ، فمن السيىء ألا يستطيعا جمع ما يكفى لأكل لقمة العيش . لكن خطيبها - وهو أمر حاسم الوضوح - لم يكن يصلح لشىء سوى الاستلقاء على السرير دون فعل شىء حتى الكلام .

لقد كان هلاكا ! امر الخطيب ؛ كل الناس تردد بأنه احيانا يشفى مع الاكل الوفير ، وبعض الحقن . وعلى الاقل ، اذا لم يشف تماما يمكن ان يدوم لسنوات طويلة ، ويتزوج ، ويمارس حياة طبيعية . لكن فكتوريا لا تعرف كيف تبحث عن النقود ، فهى تعرف ، لكن لم تنته من اتخاذ القرار . لو عرف باكو سيتركها فى الحال . اى طيش ! واذا قررت فيكتوريا اقتراف أشد الاعمال بربرية فمن اجل عيون باكو ، دون كل العالمين .

وفى بعض اللحظات تفكر فيكتوريا فى انها اذا قالت لباكو فانه سيقول لها : افعلى ما شئت ، فانه لا يعنينى ، لكن حالا تدرك انه لا ينبغى ان تقول ذلك لباكو . لا تستطيع فيكتوريا الاستمرار فى بيتهم ، انها مقتنعة جدا بذلك ! فأمها تجعل حياتها مستحيلة . وطول النهار مع نفس النشيد . لكن ايضا خروجها هكذا مسلمة امرها لله دون ان يمد أحد لها يد العون لهو أمر

ممكن جدا .

لقد عملت فيكتوريا حساباتها ، ورأت أن المسألة لها مكاسبها وخسائرها . أن تسير كل الأمور سيرا حسنا بدا مثل حلم . لكن الاشياء لا تسير كلها سيرا حسنا ابدا ومطلقا . واحيانا تسير اسوأ سير . المسألة فى امتلاك الحظ ، وأن يتذكر الواحدة احد ، لكن من سيتذكر فيكتوريا ؟ أنها لا تعرف احدا يحوز عشرة دوروات مدخرة ؛ احدا يضمن رزق يومه .

فيكتوريا منهكة جدا فى المطبعة فهى طوال اليوم على قدم ، وخطيبها كل يوم اسوأ ، وأمها سرجنت فرساى (مدرعات) لا تعمل شيئا إلا الصراخ ، وأبوها رجل طرى ، ونصف سكران لا يمكن الاعتماد عليه فى شيء . والذى كان محظوظا هى بيرولا ، التى كانت مع فيكتوريا فى المطبعة ، وكانت ايضا تلف طرود الكتب ، والتى حملها سيد ، وبجانب إتخاذها كمليكه له ، اشبع كل نزواتها ويحبها ويحترمها . اذا طلبت نقودا من بيرولا فانها لن تتذكر لها ، لكن طبعا ، يمكن لبيرولا ان تعطيها عشرين دورو ، فليس لديها أسباب كى تعطيها اكثر . فبيرولا الآن ، تعيش مثل دوقة . وكل العالم يناديها بالآنسة ، وهى تمضى فى ملابس انيقة ولها شقة بها «راديو» . لقد رأتها فيكتوريا مرة فى الشارع – وقد مضى عليها عام مع هذا السيد ، فرأت كيف يكون التغيير ، فلم تكن نفس المرأة ، حتى لقد بدا عليها انها قد نمت

فى كل شىء . فيكتوريا لم تكن تطلب الكثير . . .

* * *

الحارس خوليو غارثيا موراثو يتحدث مع (خفير الشارع) قمرسندو بيقا الأصلع .

– ليلة سيئة !

– هناك ليال اسوأ منها .

الحارس وخفير الشارع يتبادلان – منذ عدة أشهر – حديثا أعجبهما جدا ، حديثا يعودان اليه ليلة بعد ليلة فى شماتة صبورة

– اذن حضرتك تقول انك من جهة بورينيو ؟

– هذا بالضبط . فأنا من قربها ، من موس .

– اذن ، لى اخت متزوجة فى «ارض النجاة» واسمها روزاليا .

– من بوريلو ، ارض القرنفل .

– تلك هى ، نعم ، يا سيد !

– رائع ، ايه ؟

– نعم ، لقد تزوجت اختك احسن زواج .

* * *

سيدة السلاملك تواصل تكهناتها ، فهى سيدة ثرثارة إلى حد ما .

- والآن يجتمع بخفير الشارع . بالتأكيد ، هو يطلب منه معلومات عن أحد الجيران . الا ترى ذلك ؟

دون خوسيه سييرا يواصل القراءة فى تبتل الرواقيين مع اسلام للنفس بشكل مثالى .

- خفر الشوارع دائما يقفون على كل شىء . حقيقى ؟ فهم يعرفون من الاشياء ما لا يعرفه الآخرون . إنهم مفعمون بمعرفة ذلك .

دون خوسيه سييرا انتهى من قراءة مقال حول التأمين الاجتماعى وقانون انشاء المحاكم العرفية الاسبانية .

- من المحتمل ان كل بيت من هذه البيوت يخفى ماسونيا ،[1] فهم يجهلونهم فى الشارع !

دون خوسيه احدث صوتا نادر المثال بحنجرته ، صوتا يمكن

(١) فى ذلك الوقت (الاربعينات) كانت السلطات الاسبانية تطارد الماسونية لسببين لا علاقة لهما بخطورة هذه الجماعة المشبوهة . والسببان هما عدم السماح بممارية أى معتقد دينى غير الكاثوليكية ثم الطابع العالمى للماسونية المنافى للوطنية الاسبانية المتعصبة الناشئة فى مواجهة الاممية الشيوعية وأمثالها من الافكار .

ان يكون نعم ، او لا ، او ربما ، او من يدرى ، على حد سواء . دون خوسيه رجل ، عليه – وبالقوة – ان يتحمل زوجته ، ولذا احرز الوصول إلى البقاء ساعات كاملة واحيانا ربما اياما كاملة دون ان يقول اى شىء ما عدا من وقت لآخر يتلفظ بلفظة : هوم ! ثم فى نهاية برهة من الزمن يعود للتلفظ : هوم ! وهكذا دائما . كانت طريقة فطنة لكى يجعل زوجته تدرك انها ليست اكثر من حمقاء ، لكن دون ان يقول الكلمة بشكل مكشوف .

الخفير فى غاية السرور لزفاف اخته روزاليا ، فأهل بوريلو اناس فى غاية الاحترام فى كل المنطقة .

– عندها تسعة غلمان ، والعاشر فى طريقه .

– تم زفافها منذ زمن بعيد ؟

– نعم منذ زمن ، لقد تزوجت منذ عشر سنين تقريبا .

الحارس يتأخر فى اجراء العملية الحسابية ، والخفير لا يعطيه وقتا لذلك حيث يعود لالتقاط خيط الحديث .

– نحن اقرب إلى جهة كانييثا ، اننا من كوبيلو . ألم تسمع عن الصلع ؟

– لا يا سيد .

– اذن ، فلتعلم انهم نحن .

الحارس خوليو غارثيا موراثو وجد نفسه مضطرا إلى الاجابة بالمثل .

– يطلق عليّ وعلى ابى الذيول .

– مفهوم .

– نحن لا نأخذ الأمر بمحمل سيىء فكل العالم هكذا ينادينا.

– مفهوم .

– والذى كان غير راض عن الاسم هو اخى تلمو ، الذى مات بالتيفود . كانوا يطلقون عليه : الصفارة الأقرع .

– نعم ، فهناك اشخاص طبعهم سيىء جدا ، أليس حقيقيا ؟

– هناك من يسكن الشيطان فى دمائهم ، فأخى تلمو ، لم يكن يتحمل ركلة من احد .

– هؤلاء ينتظرهم دائما سوء المصير .

– هذا ما اقوله أنا ايضا .

الحارس والخفير كانا يتبادلان الحديث بالاسبانية دائما ، دون استعمال لغتهما الجليقية مطلقا ، فكل منهما يريد ان يظهر للآخر انه ليس مجرد قروى جلف .

الحارس خوليو غارثيا موراثو فى تلك الساعة يبدأ فى تلاوة الرثاء .

– بلدنا بلد طيب . ايه ؟

الخفير فمرسندو بيقا الاصلع جليقى من الصنف الآخر ، جليقى يرتاب قليلا ويحتاط ، وسيرة الرفاهية يحمر لها وجهه .

– ليس سيئا .

– ينبغى ان يكون طيبا فهناك يحيا الناس . ايه ؟

– فعلا ، فعلا .

من بار مفتوح على الرصيف المقابل تنساب انغام ذات ايقاع بطىء ، عزفت حتى تسمع . . او يرقصون عليها فى حميمية . أحد قادم ينادى على الخفير .

– خفير !

الخفير يبدو وكأنه يتذكر .

– فى هــذا البــار – على ما أظن – يقدمون البطاطس والذرة ، وفى المنطقة التى نحن منها بها ايضا نبيذ .

الرجل الذى يصل يعود للنداء عليه بشكل اكثر الفة .

– سندو

– حاضر !

* * *

عند الوصول إلى فتحة المترو عند نارباليس ، على بعد خطوات قليلة من شارع القلعة التقى مارتين بصديقته الاوروجواية ، والتى تسير برفقة احد الرجال . فى البداية تجنبها متظاهرا انه لم يرها .

– وداعا – مارتين ! ايها الثقيل الظل .

أدار مارتين رأسه ، فلم يكن امامه خيار آخر .

– وداعا – ترينيداد ! – لم أرك .

– اسمع ! تعال كى اقدمكما احدكما للآخر .

اقترب مارتين .

– هذا صديق طيب ، انه مارتين ؛ كاتب .

فتاة اوروجواى صعلوكة خالية من الظرف وعديمة التربية ، وليس لديها رغبات للعرفان ، صعلوكة غير قادرة على التملق بسبب انها لا شىء ؛ انها امرأة كريهة ، ذات جسم ملىء بالحبوب والدمامل ، ومن المحتمل انه صورة لروحها ؛ عاهرة موحلة بلا وعى بأصول المهنة أو ميول وغرام بها ، ولا حتى فطنة أو قليل من الجمال – وكان ذلك ممكنا – لو انها استطاعت ان تسعى اليه .

الفتاة الاوروجوابة امرأة ضخمة ذات شوارب كثة كما لو

كانت جوادا ، وهى قادرة على بيع ابيها نظير ستة ريالات ، ومتورطة مع سائق اسرة احد الماركيزات ، وهو يسحب منها حتى أخر فلس معها ويلسعها كل «علقة» حتى نزع جلد ظهرها – الفتاة الاوروجواية لها لسان أفعى ونميمة تقذفها كل برهة . ففى احد المواسم تصيب الشاذين جنسيا بالكلام السىء عنهم ، وفى موسم آخر تصب نميمتها على زميلاتها ، وفى موسم ثالث تلعن زبائنها الذين لم تكد تنفض من معاشرتهم ، وهكذا مع باقى الخلق . وفى هذا الموسم تفرغ همتها للشاذات جنسيا الحنونات ، عاهرات الروح المحبوبات ، الحلوات ، المحزونات . الصامتات مثل اغصان سنبل الطيب .

ينادون الاوروجواية هكذا لانها من بوينوس ايرس [1] وهى تخاطب رفيقها :

– هذا الذى تراه بين يديك ينظم اشعارا . لكن ما هذا ؟ هيا ايها الرجال ! ليحيى احدكما الآخر فقد فرغت من تقديم كل منكما لصاحبه . اطاع الرجلان ، واعطى كل منهما يده للآخر .

---

(١) بوينوس ايرس عاصمة الارجنتين ، وكان الاحرى ان تسمى الفتاة : الأرجنتينية ، والكاتب يشير ـ إلى جهل الاسبان بالبلاد التى اكتشفوها فى امريكا الجنوبية ، وهو جهل مخجل ، حيث ان اوروجواى جمهورية مستقلة شمال الأرجنتين .

– هذا شرف كبير . كيف حال حضرتك ؟

– مترع بعشاء بالغ الدسم ، ألف شكر .

الرجل الذى يصحب الاوروجواية من اولئك الذين يدعون الظرف ، ويتكلفون خفة الدم .

الثنائى : الرجل والفتاة بدآ يضحكان باصوات عالية . الاوروجواية ذات اسنان امامية متآكلة وسوداء .

– اسمع ! خذ قهوة معنا .

بـقى مارتين حائرا ، لقد فكـر فى ان الآخــر قد يسىء الظــن به .

– فى النهاية . . . لا يبدو لى .

– نعم ، يا رجل ! احشر نفسك هنا معنا ، فلا ينقصنا اكثر من ذلك !

– طيب . شكرا جزيلا ، لكن لبرهة قصيرة فقط .

– لا تستعجل – يا رجل – ابق كل الوقت الذى تحب فالليل طويل ! فلتبق فأنا اسعد بصحبة الشعراء .

دخلوا إلى مقهى فى الشفلان . وطلب الرجل قهوة بالكونياك للجميع .

– فلتأمر بائع السجائر بالحضور .

– امرك يا سيدى .

مارتين اجلس نفسه فى مواجهة الثنائى . والاوروجواية كانت سكرى قليلا . ولم يكن عليه الا ان ينظر اليها .

– اسمع ، ايها العجوز ! افتح عينيك مع حبك .

– مع حبى ؟

– نعم ، انت تعرف عمن اتكلم ، مع ماروخيتا .

– نعم ؟

– نعم ، يبدو لى ان لا شىء يسير سيرا طيبا معها ، فمن وجهة نظرى انها قد فرغت من استمالة قلوبهن ، وان الصيد وقع فى شباكها .

– هل تظنين .

– نعم ، يا جميل ! هذا ما اظنه . فأنا اعرف ما يزيد على الحاجة !

ظهرت على مارتين علامة الانشغال .

– مسكينة !

– نعم سحلية متلونة ! ولا تريد ان تقول شيئا ، ولا تظهر فى البيت اسبوعا «على بعضه» . آه ، لو علمت دونيا خيسوسا ! فكم هى طيبة ! وماروخيتا تقول ان امها ينبغى ان تجد طعامها .

كما لو كنا نحن الآخرين نعيش فى الهواء !

اقترب بائع السجائر .

– مساء الخير ، يا سيد «ازهار» هل نسيتنا ؟

انك لم تتح لنا رؤيتك منذ زمن . . . تحب حضرتك شراء شىء ؟

– اعطنا سيجارين من نوع جيد . اسمعى ايتها الاوروجواية ، هل معك دخان ؟

– لقد بقى معى القليل ، اشتر لى علبة .

– اعط ، أيضا ، علبة سجائر بيضاء لتلك .

* * *

* *

بار ثاستينو أورتث فارغ . بار ثلستينو اورتث صغير المساحة ، بواجهة خضراء غامقة ، تحمل اسم : الفجر – نبيذ ومأكولات . المأكولات الآن ليس لها مكان . سيدخل ثلستينو خدمة تقديم المأكولات عندما تتحسن احواله . لا يمكن عمل كل شىء فى يوم واحد .

امام «النصبة» كان الزبون الاخير . كان شرطيا يحتسى كأسه الردىء من الانيس .

– فعلا ، هذا نفسه ما اقوله لحضرتك ، فهم لا يقصون علىّ

حكايات من الصين .

عندما ينزاح الشرطى ينوى ثلستينو انزال الباب واحضار «مرتبته» ويبدأ فى النوم . ثلستينو رجل لا يحب السهر ، ويفضل النوم مبكرا ، وممارسة حياة صحية ، وعلى الاقل «صحية» بقدر ما يستطيع .

– اسمع حضرتك ! وماذا يمكن ان يعنينى من ذلك ؟

ثلستينو ينام فى باره لسببين : لانه هكذا اقل كلفة ، ولانه هكذا يتجنب السطو على المحل فى أحدى الليالى التى لا يخطر على باله ان يسرقوه فيها .

– الشر هناك اعلى . وهناك لا سبيل ، بالطبع وفى وقت قصير تعلم ثلستينو اقامة السرير الكبير ، الذى يسقط . من بين يديه ، إلى أسفل من أعلى مرة بعد مرة ، وذلك برص ثمانية إلى عشرة كراس وتدشين مرتبته – المصنوعة من شعر الخيول – عليها .

– أمر القبض على البائعات الجائلات فى المترو ، يبدو لى ظلما . فالناس لابد ان تأكل . واذا لم يوجد عمل فلابد من اكتشاف طريقة للعيش بقدر المستطاع . ان الحياة ارتفعت فوق السحاب ، هذا – حضرتك – تعرفه تماما مثلى ، والذى يصرفونه فى التموين ليس بشىء . ولا يصل حتى إلى ملء فم

. أنا لا أرغب فى أغضاب أحد ، لكن لو كان هناك بعض النساء يبعن سجائر او غيره فى المترو ، وفإن هذا لا يحدث من أجل ان تنطلقوا – حضراتكم ايها الشرط – وراءهن .

شرطى الانيس لم يكن جدليا .

– أنا مأمور .

– أعرف وأميز أيها الصديق .

عندما ينصرف الشرطى ، يرقد ثلستينو بعد ان ينصب سقالته ويشرع فى القراءة بعض الوقت ؛ فهو يحب ان يتسلى قليلا بالقراءة قبل اطفاء النور والاستغراق فى النوم ، ثلستينو فى السرير معتاد على قراءة الرومانث والخماسيات (١) ، اما نيتشه فيترك قراءته للنهار . لقد كانت لديه حصيلة هائلة من الرومانث يعرف محتوياتها من الالف إلى الياء جميعها جميلة لكن ما كان يعجبه اكثر فهو الرومانث الذى يحمل عنوان «البعث فى كوبا» ، وما يتعلق بجرائم العاشقين المتيمين دون خاثينتو دى القلعة ودونيا ليونرو دى الوردة لانجاز وعود الغرام (٢)

---

(١) الرومانث قصص شعبية تصاغ شعراء وقد ولدت مع ميلاد الموشحات . وتعد خرجات الموشحات الاعجمية هى أول صور الرومانث ، وعلاقة أوزانها بالموشحات والازجال من حيث الاوزان علاقة وثيقة ، وهى واحدة من التأثيرات العربية النبيلة فى الثقافة الاسبانية .

(٢) عاشقان مشهوران لهما قصة يحكيها الرومانث ، وقد اشتركا فى ارتكاب عدد من الجرائم لمواجهة اعتراض والد الفتاة على العلاقة .

وهذا الأخير رومانث من الطراز الكلاسيكى الذى يفتتح كما يأمر الله (١) .

«أيتها العذراء المقدسة
يا شعلة جنان السماء
يا ابنة الاب الازلى
وام الابن الاعظم
وزوجة الروح المنفوخ
بجدارة واقتدار
فى بطنك العذرى
حملت الكائن الوافر البركة
وفى نهاية الشهور التسعة
ولد الوليد الاكثر سماوية
لخلاص الانسان
وبقيت عذراء كما كنت
طاهرة لم تمسى
نقية نظيفة الثوب» .

---

(١) يفتتح الرومانث ذو القصة الطويلة افتتاحية دينية ، تماما مثل قصصنا الشعبى الذى يبدأ بالصلاة على النبى ، والثناء على الله ، ولعلنا لا نبالغ اذا نسبنا ذلك للتأثيرات الاسلامية التى اعادت تشكيل الشعائر المسيحية فى اسبانيا .

مثل هذا الرومانث القديم كان المفضل دائما ، واحيانا حتى يبرر الامر لنفسه قليلا ، فان ثلستينو كان يتحدث عن حكمة الشعب مؤلف الرومانث ، وبعبارات مبهمة شبيهة بذلك . وبالنسبة لثلستينو – أيضا تعجبه جدا كلمات العريف بيريث فى مواجهة الاحتضار كما ترددها قصة رومانث اخر :

«أيها الجنود ، ان بختى
أوقعنى فى تلك المأزق .
أهديكم أربعة دانق
حتى تتبرعوا لى بموتى
اسمعوا نداء بيريث وصوتى :
اطلقوا على النار فى المليان
مع أنى بلا جريمة يا اخوان .
ومن اجل هذه الملحمة
صوبوا نحوى دون مرحمة :
فى الصدر رصاصتين ، وأخريين فى جمجمتى» .

– يا سلام يا عمنا ! زمان ، كان هناك رجال ! يردد ذلك ثلستينو قبل ان يطفىء النور .

* * *

فى وسط الصالون شبه المظلم ، كان هناك عازف فيولين مسترسل الشعر ، بكل الشعرية يعزف منفعلا لاس ثارداس لمونتى (١) .

الزبائن يشربون : الرجال ويسكى والنساء شمبانيا ؛ النساء اللائى كن بوابات منذ خمسة عشر يوما ، انهن يشربن مشروب النعناع ذا السلافة المفلفلة . لا زال فى المحل حتى الآن كثير من الموائد التى لم يتم شغلها ، فالوقت لا زال مبكراً .

– كم يعجبنى كل هذا ، يا بابلو .

– اذن ، اشبعى حتى التخمة منه يا لوريتا فليس امامك شىء آخر تؤدينه .

– اسمع حقيقى ، حقيقى ، كل هذا يثير ؟

* * *

الخفير وجد عند مرمى النداء عليه .

– مساء الخير ، يا سنيوريتو

---

(١) لاس ثارداس LAS Czrdas ، رقصة شعبية هنغارية تتكون من حركتين موسيقيتين ، تم ادخالها فى ارشيف الموسيقى الكلاسيكية على يد فرانك لزت ، والمؤلف الايطالى مونتى كان له الفضل فى اعادة توزيع العمل ، وتعميم شعبيته لصلاحيته لفيولين . والكاتب يكشف التناقض الواضح بين جلال الموسيقى الكلاسيكية والزبائن ، وهم اثرياء حرب جهلة يصحبن نساء أميات .

- أهلا .

الخفير سحب المفتاح ودفع بوابة البناية وبعد ذلك مد يده كما لو كانت حركة غير مقصودة .

- شكرا جزيلا .

الخفير أشعل نور السلم ، وأغلق البوابة ، وانصرف يدق الارض بمقرعته ليواصل الحديث مع الحارس .

- هذا يأتى فى هذه الساعة فى كل الليالى ولا ينصرف إلا فى حدود الرابعة . ففى الدور الأخير يصاحب آنسة ، عبارة عن بحر من الحسن اسمها بيرولا .

سيدة السلاملك لم ترفع عينها عنهما .

- لابد انهما يقولان شيئا عندما لا ينفصلان . تصور ! عندما يذهب خفير الشارع لفتح احدى البوابات ، فان الحارس ينتظره .

الزوج القى بالجريدة .

- أيضا عندك مزاج لشغل نفسك بما لا يعنيك . لعله ينتظر احدى الخادمات .

- طبعا ، طبعا . كل شىء له عندك حل مستعجل .

* * *

السيد الذى يصاحب آنسة فى الدور الاخير ، خلع المعطف

وتركه فوق أريكة فى الصالة . الصالة صغيرة جدا ، ليس بها من الاثاث غير الاريكة التى تتسع لاثنين ، وفى مواجهتها رف خشبى تحت مرآة ذات اطار مذهب .

- كيف الحال ، بيرولا .

الآنسة بيرولا خرجت نحو الباب عندما سمعت المفتاح فى الباب .

- لا جديد ، خابير تشو . بالنسبة لى ، كل خير هو أنت .

الآنسة بيرولا فتاة شابة . ولها هيئة انسانة شديدة الرقة ، ومؤدبة جدا ، وفقط من عام واحد - على حد قولها - بدأت ترتكب السوء والمنكر .

من غرفة داخلية كان يصل صوت الراديوفى حذر وفطنة (١) موسيقى راقصة بطيئة كتبت لكى تسمع وترقص فى جو حميم ، ما فى ذلك شك . الموسيقى ناعمة وجميلة ومريحة .

- أنسة ! هل ترقصين ؟

- شكرا جزيلا أيها الفارس ، فأنا متعبة قليلا ، فقد رقصت

---

(١) وصلت رقابة فرانكو إلى الموسيقى حيث تم التركيز على الموسيقى الكلاسيكية كجزء أساسى من برنامج الاذاعة وحرم الجاز والموسيقى الحديثة ، وكذلك لا يجوز سماع بعض الموسيقى الا فى جو حميم بعيد عن الاماكن العامة .

طوال الليل .

الثنائى ضحك فى قهقهة ، ليست مثل قهقة الاوروجواية والسنيور «أزهار» ، بالطبع لا ، وألف لا . بعد ذلك تبادلا قبلة .

– بيرولا ، أنت لا زلت طفلة .

– خابيير ، وأنت تلميذ ببنطلون «شورت» [1] .

وحتى الغرفة الصغيرة فى خلفية الشقة ، تخاصرا فى مشيتهما كما لو كانا يتنزهان فى شارع متسع تظلله أشجار الاكاسيا المزهرة .

– سيجارة ؟

لهما نفس الشعائر كل الليالى ؛ الكلمات التى تقال ، ناقصة كلمة أو زائدة أخرى ، هى ايضا لا تتغير . الآنسة بيرولا ذات روح محافظة شديدة الرهافة تجعلك مثلها . بالطبع الآن لا يمكنك – يا خابيير – أن تشتكى ، فأنت تتخذها مليكة لك .

فيكتوريا لم تكن تطلب الكثير . فيكتوريا لم تكن تريد أكثر من ان تأكل وتظل تحب خطيبها ، اذا احرز الشفاء فى أحد الايام . فيكتوريا لم تكن لديها اية رغبة فى التصعلك ؛ ولكن عنوة يخنقون الفتاة . لم يسبق لها التصعلك قط . ولم يسبق لها مطلقا

---

(١) كما نلاحظ فاسم الشاب (خابيير) ، ولكن الفتاة نادته (خابير تشو) قبل ذلك . يلعب الاسبان كثيرا بالاسماء من باب التدليل وخاصة بين الشباب .

ان نامت مع أحد غير خطيبها . فيكتوريا عندها قوة إرادة ، ومع أنها كانت ذات ميول إلا انها تحاول المقاومة فى جهاد للنفس . ومع باكو تصرفت بشرف ، ولم تخدعه ولو مرة واحدة . قالت له فى أحد الايام قبل ان يمرض :

– بالنسبة لى ، يعجبنى كل الرجال ، ومن اجل هذا لا أنام مع أحد غيرك . ولو حدث لى ذلك فسيصبح الحكاية التى لا تنتهى أبدا .

الفتاة كانت محمرة الوجه خجلا ، وميتة من الضحك عندما ادلت باعترافها ، ولكن الخطيب لم تعجبه مزحتها فى شىء .

– اذا كنت عندك أى رجل آخر ، فأصنعى ما شئت . يمكنك ان تقومى بكل ما يخطر على بالك من أفعال .

فى أحدى المرات ، بعد مرض الخطيب ، طاردها فى الشارع سيد أنيق الملابس .

– اسمعى – حضرتك – يا آنسة ، إلى أين تذهبين بكل هذه السرعة ؟

أعجبت الفتاة هيئة ذلك الرجل ، فقد كان رجلا رهيفا ذا هيئة وسيمة ، وقدرة على حسن تقديم نفسه .

– اتركنى ، فانى ذاهبة للعمل .

– لكن يا أمرأة ، لم على أن اتركك . كونك ذاهبة للعمل لهو

أمر – فيما يبدو لى – جيد ؛ وهو علامة على انك مهذبة رغم انك شابة وجميلة . لكن ما السوء فيما لو تبادلنا قبل ذلك بعض الكلمات .

– طالما ان الامر لا يتجاوز ذلك ، نعم .

– وماذا هناك مما يتجاوز ذلك ؟

أحسست الفتاة أن الكلمات تهرب منها .

– ربما يكون هناك ما أرغب فيه أنا . . . السيد الانيق لم يتأثر .

– طبعا ! فأنت تفهمين ، ان الواحد منا ليس كسيحا ، وله ان يؤدى ما يعرفه .

– ويتجنب ما يتجنبونه .

– طبعا – يا امرأة – ويتجنب ما يتجنبونه .

السيد رافق فيكتوريا بعض الوقت . وبقليل ، قبل الوصول إلى شارع الخشب ، ودعته فيكتوريا .

– وداعا ، اتركنى ، فمن الممكن ان يرانا أحد العاملين فى المطبعة .

السيد قطب قليلا ما بين حاجبيه .

– حضرتك تعملين فى أحدى مطابع هذه المنطقة ؟

– نعم ، هناك فى شارع الخشب . من اجل هذا طلبت منك ان

تتركنى . نلتقى فى يوم أخر .

– انتظرى لحظة .

السيد ابتسم اثناء التقاط يد الفتاة .

– هل ترغبين ؟

فيكتوريا ابتسمت أيضا .

– وأنت .

السيد حدق فى عينيها

– فى أى ساعة تخرجين هذا المساء؟

فيكتوريا خفضت من نظرتها .

– الساعة السابعة . لكن لا تحضر لاخذى . لى خطيب .

– ويأتى لاخذك ؟

تلون صوت فيكتوريا بشىء من الحزن

– لا ، لا يأتى لاخذى . وداعا !

– بل إلى اللقاء !

– كما تحب : إلى اللقاء !

فى الساعة السابعة ، قابلت فيكتوريا السيد عند ناصية شارع الاسكوريال عند خروجها من مطبعة المستقبل .

– فقط لحظة يا آنسة . انى اتعهد بأن تلتقى بخطيبك . .

استغربت فيكتوريا لهجته الرسمية التى عاد لمخاطبتها بها .

– أنا لا أحب ان اكون شبحا بين حضرتك وبين خطيبك . أرجو حضرتك ان تفهمى اننى ليس لى أى غرض فى ذلك .

هبط الثنائى حتى شارع سان برناردو . السيد كان فى غاية الاحترام معها . لم يلتقط ذراعها حتى وهما يعبران الشوارع .

– يبهجنى ان تتمكنى حضرتك من احراز السعادة مع خطيبك . واذا كان الامر بيدى ، لجعلتكما تتزوجان غدا .

– ماذا يمكن ان يرغب الانسان لشخص يعزه غير ان يصير سعيدا ؟

سارت فيكتوريا كما لو كانت فوق سحابة . كانت بعيدة السعادة ، تلك السعادة الغامضة التى لا نكاد نشعر بدبيبها ؛ السعادة التى هى أيضا ممزوجة ببعض التعاسة ، وإلى حد ما بعيدة ومستحيلة .

– هيا نجلس هنا ، فالجو أبرد من ان يساعدنا على الاستمرار فى المشى . .

فيكتوريا والسيد دخلا مقهى سان برناردو ، وجلسا على مائدة بأخر المقهى ، أحدهما فى مواجهة الاخر .

– ماذا تحبين ان نطلب ؟

– قهوة ساخنة .

وعندما اقترب الجرسون ، قال له السيد :

– احضر اكسبريس باللبن للانسة ، وقهوة سادة لى .

السيد اخرج علبة سجائر بيضاء .

– تدخنين ؟

– لا ، أنا لا أدخن – تقريبا – أبدا .

– ما معنى تقريبا أبدا ؟

– حسنا ، المسألة أننى ادخن كل حين وحين ، مثلا فى أعياد الميلاد . . .

السيد لم يصر على دعوتها للتدخين ، وأشعل سيجارته ، وحفظ العلبة فى جيبه .

– المسألة ، انه اذا كان الامر بيدى لجعلتك وخطيبك تتزوجان غدا دون تأخير .

– ولماذا ترغب حضرتك فى تزويجنا ؟ ماذا تكسب من هذا ؟

– لن اكسب شيئا يا آنسة ، وكما ستفهمين فانه لن اكسب ولن أخسر شيئا سواء تزوجت أو بقيت آنسة . واذا كنت اقول ذلك فلأننى أتصور ان الزواج من خطيبك سوف يبهجك .

– بالفعل يبهجنى ، واذا كان كذلك فلماذا أكذب عليك ؟

– هكذا تفعلين خيرا فحينما يتصارح الناس فانهم يفهمون بعضهم البعض . والذى أنا بصدد الحديث معك حوله لا شأن له بكونك متزوجة أو غير متزوجة .

السيد سعل قليلا .

- اننا فى مكان عام محاطون بالناس وتفصل بيننا المائدة .

السيد احتك بركبتى فيكتوريا محركا رجليه قليلا .

- هل يمكن ان اتكلم مع حضرتك بحرية كاملة ؟

- طبعا ، مادام لا ينقص . . . . .

- لن ينقص أبدا . اذا قيلت الاشياء بوضوح . فالذى سأقوله أشبه بصفقة ، يمكن قبولها أو رفضها فى هذا الشأن لا يوجد أى ارتباط .

الفتاة اصابتها بعض الحيرة .

- يمكن الكلام ؟

- نعم .

السيد غير من وضعه .

- اذن ، انظرى يا آنسة ، فلنذهب إلى صلب الموضوع ، وعلى الاقل ستعرفين اننى لا ارغب فى خداعك مادمت اعرض عليك الأمور كما هى .

كان المقهى مزدحما ، واشتدت حرارة الجو بداخله ، فزلقت فيكتوريا قليلا معطفها القطنى إلى الوراء .

- المشكلة اننى لا أعرف كيف ابدأ أنت - يا آنسة - قد تركت اثرا عميقا فى نفسى .

– لقد كنت أتصور ما كنت ترغب فى قوله لى .

– يبدو لى انك مخطئة من فضلك لا تقاطعينى. وستقولين كل ما تريدين فى الآخر .

– حسنا ، واصل .

– جيد . كنت أقول لك يا آنسة انك تركت اثرا عميقا فى نفسى ، طريقة سيرك ، وجهك ، ساقاك ، حصرك ، صدرك .

– نعم أفهم ، كله !

ابتسمت الفتاة قليلا مع اتخاذ هيئة خاصة للتفوق .

– بالضبط كله ، لكن لا تبتسمى ، فأنا أتكلم معك بجدية .

عاد السيد إلى حك رجليه بركبتيها ، والتقط يدها ، فتركتها فيكتوريا تذهب اليه منبسطة وبطريقة تنبىء عن الحكمة .

– أقسم لك اننى اتكلم بجدية تامة . كل شىء فيك يعجبنى ، واتخيل جسمك : صلبا وفائرا ، ذا لون ناعم . . .

السيد ضغط على يد فيكتوريا .

– لست غنيا ، وما استطيع تقديمه لك قليل .

السيد استغرب من ان فيكتوريا لم تسحب يدها .

– لكن الذى سأطلبه منك أيضا ليس كثيرا .

السيد سعل مرة اخرى ، قليلا ايضا .

– أنا أريد أن ارى حضرتك عارية ، لا شىء أكثر من رؤية

حضرتك .

فيكتوريا ضغطت على يد السيد .

– يجب ان امشى ، فقد تأخرت .

– عندك حق لكن أجيبينى قبل ان تمشى . اود ان ارى حضرتك عارية ، أعدك بألا ألمس حضرتك ولا حتى مقدار اصبع . ولا احتكاك حتى بشعرة من ثوب . غدا سأذهب لآخذك . أنا اعلم انك امرأة مهذبة ، ولست اية شىء سيىء . احتفظى حضرتك بهذه ارجوك . ليكن ما يكون قرارك ، اقبلى هذه لشراء أى شىء كذكرى منى .

التقطت الفتاة ورقة بنكنوت اعطاها لها السيد ، ولم ترتعد نبضها عند التقاطها .

نهضت فكيتوريا وخرجت من المقهى . ومن إحدى الموائد القريبة حياها أحد الرجال .

– وداعا ، فيكتوريا ، أيتها الفخورة المعتزة بنفسها ، فمنذ تعاملك مع الماركيزات ، لم تعودى لتحية الفقراء .

– وداعا بيبى .

بيبى كان واحدا من ضباط أمن مطبعة المستقبل .

ما تزال فيكتوريا تبكى منذ برهة طويلة . المشاريع تتصارع فى رأسها تصارع ركاب المترو عند خروجهم من فتحات الخروج

منذ . ذهابها راهبة فى الدير حتى انتهائها من شهادتها . كل شىء بدا لها أفضل من الاستمرار فى تحمل أمها .

* * *

دون روبرتو يرفع صوته .

– بيتريتا ، احضرى لى الدخان من جيب الجاكتة !

(زوجته تتدخل)

– اسكت يا رجل ، ستوقظ الاولاد .

– لن يستيقظوا ، انهم مثل الملائكة ، فلا أحد يستطيع ايقاظهم . من نومهم الملائكى . .

– اذن سأقول لك ما احتاج قوله . لا تنادى على بيتريتا اكثر ، فلابد ان المسكينة منهكة .

– دعك منها ، هؤلاء لا ينهكن . أنت التى لديك اكثر الدوافع لتكونى منهكة .

– وسنوات اكثر !

دون روبرتو يبتسم .

– يا سلام يا فيلو ، لا تدعى الاشياء فالسنوات حتى الآن لم تثقل عليك بعد !

الخادمة تصل إلى المطبخ ومعها الدخان .

– احضرى لى الجريدة ، انها فى المدخل .

– حاضر ، سنيوريتو .

– اسمعى ، ضعى لى كوب ماء بجوار السرير .

– حاضر ، سنيوريتو .

تعود فيلو للتدخل .

– سأحضر لك كل شىء ، دعها تنام .

– تنام ؟ اذا اعطيتيها الآن اذنا بالخروج ، فلن تعود حتى الثانية او الثالثة ، وسوف ترين .

– هذا أيضا صحيح .

* * *

الآنسة البيرا تتقلب فى السرير . انها مهتاجة الاعصاب ، فاقدة للصبر ، ويذهب عنها كابوس خلال وصول كابوس آخر . غرفة الآنسة البيرا تفوح منها رائحة ملابس مستعملة ورائحة امرأة : النساء ليست لهن رائحة العطر ولكن لهن رائحة السمك . . الآنسة البيرا عندها لهاث كما لو كان تنفسها متقطعا ، وحلمها عنيفا ، ملولا ؛ حلم رأس ساخنة وأنف باردة حلم يطقطق «المرتبة» الجافة المغرقة فى القدم .

قط أسود ، نصف أصلع ، يبتسم فى إلغاز ، كما لو كان شخصا ، وله فى العيون بريق يخيف ، يقذف نفسه من مسافة هائلة فوق الآنسة البيرا . المرأة تدافع عن نفسها

برجليها ويديها . القط يسقط بين الاثاث ، ويتقافز مثل كرة من الكاوتش كى ينطق من جديد فوق السرير . القط معدته مفتوحة وحمراء مثل رمانة . ومن فتحتة الخلفية يبرز شىء مثل زهرة سامة تتلون بألف لون ؛ زهرة مثل كرنفال من الالعاب النارية . الآنسة البيرا تغطى رأسها بالملاءة . وداخل السرير جمهرة من الاقزام . القط ، يتسلل مثل شبح ، يلتقط بطن الآنسة البيرا ، يلعق الكرش ، ويضحك فى قهقهات عالية ، قهقهات تحط الروح المعنوية إلى حضيض الذهول .

الآنسة البيرا مرعوبة وتلقى به خارج الغرفة . عليها ان تبذل مجهودات ضخمة ، فالقط ثقيل الوزن ، ويبدو كأنه من حديد . الآنسة البيرا تحاول ألا تسحق الاقزام . أحد الاقزام يصرخ فيها : ماريا المقدسة ! ماريا المقدسة ! القط يمر من تحت عقب الباب ماطا كل الجسم مثل شريحة من سمك الباكالاه . ينظر نظرة مكرثة مثل جلاد يصعد فوق «الكومدينو» ويبحلق فى الآنسة البيرا بايماءات دموية . البيرا لا تجرؤ حتى على التنفس .

للقط ذيل شديد النعومة . نور يعمى ، يبدأ فى غمر الحجرة ، القط ينمو حتى يصير مثل نمر رشيق . الاقزام يواصلون تقافزهم يائسين . يرتعد بعنف كل جسم الآنسة البيرا . تتنفس بصعوبة . القط يواصل مط نفسه دون توقف.

تبقى الآنسة البيرا دون تنفس بفم جاف .

الآنسة البيرا تستيقظ فجأة ، وتشعل النور . قميص نومها غارق فى العرق . تحس بالبرد . تنهض وتلقى المعطف على قدميها . ثم تنام والضوء مشتعل .

* * *

– اعلمى ، نعم ! أعطيته ثلاثة دورو على الحساب فغدا عيد ميلاد زوجته (١) .

سنيور رامون لا يحرز ان يصل إلى القدر الكافى من الحيوية ، ومع الجهود التى يبذلها لها يحرز ابراز حيويته بشكل يكفى .

– ايه ، ماذا يجرى ؟ أنت تعرف ما يجرى جيدا ! ألا تفتح عينيك ؟ أنت هكذا ! لقد قلت ذلك لك مرارا . بهذا الاسلوب لن تخرج من الفقر أبدا . فهل تدخر من اجل ذلك ؟

– لكن يا امرأة ، أنا اخصمها منه بعد ذلك . ماذا يمكنه ان يفعل لنا أكثر ؟ وماذا لو كنت اهديتها له !

---

(١) سنيور رامون صاحب المخبز الذى يعمل به دون روبرتو ، وهو يحكى لزوجته عن المبلغ الضئيل الذى أقرضه لدون روبرتو ، دون أن يشير إلى اهدائه اثنين دورو .

– نعم ، نعم ستخصمها . لكن ماذا لو نسيت !

– لم يحدث قط ان نسيت .

– لا ؟ وتلك السبع بيزيتات التى اعطيتها للسيدة خوسيفا ؟ اين هى تلك البيزيتات السبع ؟

– يا امرأة ؛ لقد كانت تحتاج لدواء . انظرى كيف صار حالها الآن .

– وماذا علينا لو حمل الآخرون امراض الدنيا ؟ هل لابد لى ان اقول لك ذلك ؟

السنيور رامون اطفأ سيجارته بقدمه .

– اسمعى ياولينا ، هل تعرفين ما سأقوله لك ؟

– ماذا ؟

– أنا آمر فى حقلى . هل تدركين ؟ أنا اعرف ما أعمل ، ودعى هذه الحفلة تمر علينا بسلام .

السيدة باولينا همهمت بصوت منخفض آخر حججها .

فيكتوريا لا تحرز النوم ؛ يغزوها تذكر أمها ، والتى هى من الدواب البرية .

– متى تتركين – يا بنت – هذا المسلول ؟

– لن أتركه فالمسلولون ألذ من السكارى .

فيكتوريا لم تجرؤ قط ان تقول لأنها شيئا شبيها . فقط ، لو يستطيع خطيبها ان يشفى . . . لو يشفى خطيبها ، فيكتوريا قادرة على ارتكاب أى شىء كل ما كان يمكن ان يطلبه منها :

فى تقلبات الفراش ، واصلت فيكتوريا البكاء . امور خطيبها كان من الممكن ان تدبر ببضعة دوروات : فالمسلولون الفقراء يهلكون ؛ والمسلولون الاغنياء ؛ اذا لم يشفوا تماما فهم على الاقل يقطعون الطريق على المرض ، ويمضون فى ممارسة دفعه عنهم والمال ليس من السهل العثور عليه . فيكتوريا تعرف ذلك جيدا . لكن الامر يحتاج لحظ . وكل شىء يمكن ان يدبره الواحد إلا الحظ ، فالحظ يأتى عندما يحل له ، والاسوأ انه لا يحلو له قط (تقريبا) المجىء .

والثلاثون ألف بيزيتا التى عرضها عليها ذلك السيد ذهبت مع الريح بسبب شكوك خطيبها .

– لا ، لا ، بهذا الثمن لا أرغب فى شىء ، لا ثلاثين ألف بيزيتا ولا ثلاثين ألف دورو .

– وماذا يمكن ان يعطينا اكثر ؟ – هكذا أجابت الفتاة خطيبها – فالأمر لا يترك أثرا ولن يدرى به أحد .

– وهل تجرؤين ؟

– من أجلك ، نعم ، وأنت سيد العارفين .

سنيور الثلاثين ألف بيزيتا كان مرابيا ، والذى كلموا فيكتوريا عنه .

– ثلاثة آلاف بيزيتا ، يقرضها لك بسهولة وستظلين تسددينها مدى الحياة ، لكن يقرضها لك بسهولة .

ذهبت فيكتوريا لرؤيته ؛ بثلاثة آلاف بيزيتا يمكن الزواج . خطيبها حتى ذلك الحين لم يكن مريضا . كان يصاب بنوبات برد ، وكان يسعل ، وكان سريع التعب ، لكن حتى ذلك الحين لم يكن مريضا ، فقط كان عليه ان يرقد فى السرير .

– الحكاية يا بنية انك تريدين ثلاثة آلاف بيزيتا ؟

– نعم يا سيدى .

– ومن أجل أى شىء تريدينها ؟

– الامر كما ترى ، من اجل ان أتزوج .

– آه أنت واقعة فى حبائل الغرام ! ايه ؟

– نعم .

– وتحبين خطيبك كثيرا ؟

– نعم ، يا سيدى .

– كثيرا ، كثيرا ؟

– نعم يا سيدى كثيرا .

– أكثر من أى أحد فى الوجود ؟

– نعم يا سيدى ، أكثر من أى أحد .

المرابى أدار «الكاسكيته» حول رأسه مرتين ، كانت «الكاسكيته» التى تغطى رأسه من القطيفة بينما الرأس كان ناتئا مثل كمثرى ، والشعر عديم اللون سبط دهنى .

– وأنت – يا بنية – ما زلت عذراء ؟

– وأنت بأية لعنة يهمك الامر ؟

– لا شىء – يا ابنتى – لا شىء . كما ترين . . حب استطلاع . . يا لكارثة الرسميات . هل تعرفين انك قليلة الادب إلى حد كبير ؟

– هذا ما تقوله أنت .

المرابى ابتسم .

– لا ، يا ابنتى ، لا تقلبى وجهلك هكذا . فى نهاية الامر ، عذراء أو غير عذراء ؛ هذه مسألة تخصك أنت وخطيبك .

– هذا ما أظنه أنا .

– اذن ، من اجل هذا .

كانت عيون المرابى تبرق مثل بومة .

– اسمعى .

– ماذا ؟

– واذا اعطيتك ثلاثين الف بدلا من ثلاثة آلاف ماذا كنت تصنعين ؟

ظهر فى فيكتوريا الاختناق .

– كل ما تأمرنى به حضرتك .

– كل ما آمرك به ؟

– نعم يا سيدى كله .

– كله ؟

– كله ، يا سيدى .

– وماذا يفعل خطيبك ؟

– لا أعرف ، لو تحب اسأله .

برزت فى خدود المرابى الشاحبة بعض ورود احمر الخدود .

– وأنت – أيتها العذبة – هل تعرفين ماذا اريد ؟

– لا ، يا سيدى ، حضرتك ستقوله .

– اسمعى ، اكشفى لى عن صدرك .

الفتاة نزعت أشياءها من حافظتها ليتدفق صدرها أمامها .

– هل تعرفين ما هى : ثلاثون ألف بيزيتا ؟

– نعم يا سيدى .

– هل رأيتها مجتمعة ؟

– لا ، يا سيدى ، مطلقا .

– اذن سأريك اياها . لكنها مسألة أن توافقى أنت وخطيبك .

انفجر هواء مدارى رطب فى طيش ، داخل الغرفة ، يتواثب من قطعة اثاث إلى أخرى مثل فراشة ضالة .

– ما قولك ؟ هل تصنعين ؟

أحست فيكتوريا بأن رذاذا من العار يصعد إلى وجهها .

– بالنسبة لى ، مقابل ستة آلاف دورو ، أنا قادرة على قضاء الحياة كلها فى طاعة حضرتك ، ولو كانت لى اكثر من حياة لفعلت بها نفس الشىء .

– وخطيبك ؟

– انتهى ، سأسأله عما اذا كان يوافق .

* * *

تنفتح بوابة دونيا ماريا ، ومنها تخرج فتاة (١) ، تقريبا طفلة ، وتعبر الشارع .

– اسمع ، اسمع ! فيما يبدو انها خرجت من هذا البيت .

الحارس خوليو غارسيا ينفصل عن خفير الشارع قمر سندو بيقا .

– حظ سعيد !

– هذا ما احتاجه .

الخفير ، عندما بقى وحده ، شرع يفكر فى الحارس. ثم يتذكر بعد ذلك الآنسة بيرولا . ومن ثم ، يتذكر كيف ألهب موضع الكليتين من ذلك اللص متسلق المواسير مستخدما مقرعته . لقد ضحك الخفير .

---

(١) هذه الفتاة هى بيتريتا خادمة فيلو أخت مارتين ، وواضح ان بيرولا صديقة فيكتوريا تسكن فى نفس البناية ، وهى البناية التى تظهر منها دونيا ماريا سيدة السلاملك . هكذا تتشابك الشخصيات فى شبكة خلية النحل .

– كيف كان يفر هاربا ذلك اللعين !

دونيا ماريا تنزل «شيش» النافذة .

– أى ، أى زمان ! هذا شأن كل الدنيا !

(بعد ذلك صمتت للحظات)

– ما الساعة الآن ؟

– قريبة من الثانية عشرة . هيا بنا ننام ، سيكون أفضل .

– هل سنرقد ؟

– نعم ، فهو أفضل .

فيلو تمر على اسرة الاولاد ، معطية لهم البركة بتلاوة صلاة المساء ، ولنا ان نقول : انه احتياط تلتزم به كل ليلة .

دون روبرتو يغسل اطقم اسنانه الصناعى ، ويحفظه فى كوب ماء يغطيه بورق الحمام ، بحيث يلف الورق عدة لفات حوله حتى يتجعد عند حافة الكوب كما لو كانت حافة اللوز . بعد ذلك يدخن آخر سيجارة بالنسبة لدون روبرتو ، فهو يحب تدخين سيجارة فى السرير كل الليالى بفم خال من الاسنان .

– لا تحرق الملاءات

– لا يا امرأة .

* * *

الحارس يقترب من الفتاة ويمسك بذراعها .

–ظننت انك لن تنزلى .

– ها أنذا ترانى !

– لماذا تأخرت كثيرا .

– المسألة ان الاطفال لم يكونوا يرغبون فى النوم . وبعد ذلك السنيوريتو : بيتريتا احضرى لى ماء ! بيتريتا احضرى لى ماء ! بيتريتا أحضرى لى الدخان من جيب الجاكته ! بيتريتا أحضرى الجريدة من المدخل ! اعتقدت انه سيقضى طوال الليل يطلب منى أشياء .

بيتريتا والحارس يختفيان فى مدخل أحد الشوارع نحو خرائب ساحة مصارعة الثيران .

* * *

خابيير وبيرولا يدخنان معا سيجارة واحدة . لقد انقضى فى هذه اللحظة ثلث الليل .

صامتان ، يتبادلان القبل فى وقار .

مستلقيان على الديوان بوجوه شديدة الالتصاق ، العيون مسبلة بينما يتلذذان بالتفكير ، بغموض فى لا شىء ، تقريبا لا شىء .

خرائب ساحة مصارعة الثيران ، ملجأ غير مريح لازواج المحبين الفقراء ، المفعمين بالقناعة مثل عشاق العهد القديم الشرسين الشرفاء غاية الشرف . يسمع هنا الترام يمر غير بعيد نحو مواقف العربات ، ذلك الترام الاعرج فى تعثره ، العتيق فى صريره ، المتقطع الاوصال ، ومع التزام أصوات السيارات المفككة الصواميل والفرامل الخشنة والعنيفة .

الخرابة المتسعة الصباحية ، خرابة الاطفال الصاخبين المعربدين الذين يسيرون على ارض نظيفة طوال النهار ، تكون منذ منتصف الليل ، ساعة اقفال بوابات البنايات ، جنة بها بعض الاتساخ حيث لا يتاح الرقص فى انسياب ، على انغام الكورديون لجهاز راديو مختفى المكان ، وتقريبا ناء ومجهول ؛ وحيث لا يتاح تدخين سيجارة الافتتاحية العطرية اللذيذة ، وحيث لا يتاح الهمس فى الاذن بالطرائف الواثقة .

خرابه الهرمين والهرمات الذين بعد تناول الطعام يأتون للتنغذى بالشمس مثل السلاحف ، تكون – منذ الساعة التى ينام فيه الاطفال وذوو الخمسين من المتزوجين ، ويبدأون فى الحلم – جنة حيث لا توجد غزوات أو معاذير ، وحيث كل العالم يعرف إلى أين هو ذاهب ، وحيث يتحابون فى نبل ، تقريبا فى صلابة ، فوق الارض الطرية ، التى فيها ما تزال باقية ، وحتى الآن ،

الخطوط التى رسمتها الطفلة التى قضت طول النهار تلعب «الحجلة» برجل عرجاء ، والثقوب المستديرة ، فى كمال تقريبا التى حفرها طفل صرف ساعاته الميتة فى جشع يلعب «البلى» .

– هل تحسين بالبرد ، بيتريتا ؟

– لا ، خوليو ، اننى بخير فى جانبك !

– هل تحبيننى كثيرا ؟

– كثيرا ، لكن لا تدرك ذلك جيدا .

* * *

مارتين ماركو يهيم على وجهه فى المدينة دون رغبة فى الذهاب إلى السرير ، لا يحمل معه ولا حتى فلس يضىء له حياته ، ويفضل الانتظار حتى ينتهى المترو ، وحتى تختبىء آخر العربات الصفراء والمريضة لترام الليل . تبدو المدينة أكثر خضوعا لملكيته لها ولملكية كل الرجال من امثاله ، الذين يمشون دون هدف محدد ، بأيديهم فى جيوب خاوية – فى الجيوب خاوية – فى الجيوب الى لا تكون حتى دافئة ، فى بعض الأحايين ، برأس خاوٍ ، بعيون خاوية ، وفى القلب – دون ان يملك احد له تفسيرا – خواء عميق لا يمس .

مارتين ماركو يصعد فى توريخوس المترو حتى دييقو دى

ليون ، ببطء ، تقريبا فى نسيان ، ثم ينزل فى امير برقارا ، ومن الجنرال مولا حتى ميدان سلامنكا [١] فى الوسط ، مرتديا ملابس لا تغنى من برد ومحاطا بحديقة خضراء صغيرة ، ورعاية ترقى إلى التدليل . يحب مارتين ماركو النزهات الموحشة الطويلة ، و«المشاوير» فى شوارع المدينة العريضة ، نفس الشوارع التى بالنهار ، وبمثل المعجزة ، تمتلىء بأصوات الباعة ، أصحاب الهوى الشارد ، تمتلىء «بطقاطيق» غناء الخادمات المتهتكات ، «بكلاكسات» السيارات ، وببكاء الاطفال الصغار ، وبالقرويين الخشنين الطيبين ، المتذئبين المتذاكين .

مارتين ماركو يجلس على مقعد من الخشب ، ويشعل عقب سيجارة كان يلفه مع عدة اعقاب اخرى فى مظروف عليه عنوان يقول : البلدية الاقليمية بمدريد ، ادارة بطاقات الهوية الشخصية.

مقاعد الشوارع مثل مختارات لكل ما لا طعم له ، ولكل المرات : العجوز الذى يستريح من نوبة سعال ، القسيس الذى يقرأ كتاب صلواته ، الشحاذ الذى يفلى نفسه ، عامل البناء الذى

---

(١) يشير إلى محطات مترو الانفاق ، ومن المعروف انه بتذكرة واحدة فان الراكب يستطيع ان يتحرك تحت المدينة مغايرا من خط إلى خط طوال ساعات عمل المترو .

يتناول غذاءه بصحبة امرأته ، المسلول الذى يعانى الارهاق ، المجنون ذو العيون الهائلة الاتساع الحالمة ، كل واحد ومجهوده ، كبر أم صغر . يذهبون ويتركون على صفحة المقعد نكهة متعبة لاجسام لم تفهم تماما حتى الان سر الدورة الدموية . والفتاة التى تريح آهة عميقة ، والسيدة التى تقرأ رواية جيب طويلة ، والعمياء التى تنتظر مرور الساعات ، وكاتبة الآلة التى تلتهم «سندوتش» سجق من خبز درجة ثالثة ، ومريضة السرطان التى تعانى آلامها ، والبلهاء ذات الفم نصف المغلق ، فى جمال يسيل على جانبيه اللعاب ، وبائعة الأمشاط والفلايات واضعة صينيتها على حجرها ، والصبية التى لا يعجبها فى الدنيا أكثر من رؤية كيف «يبسبس» (١) الرجال . .

مظروف أعقاب السجائر الخاص بمارتين ماركو خرج من بيت أخته ، والمظروف لم يعد يصلح لشىء – لمن يراه – اللهم الا لحمل أعقاب السجائر أو مسامير أو كربوناتو . فمنذ شهور عديدة تم سحب بطاقات الهوية الشخصية» الآن يفكرون فى إعطاء « كارنيه إثبات الشخصية » مع صورة بل ومع بصمات الاصابع ، ولكن هذا يبدو انه ما زال بعيدا طبقا للاحتمالات المطروحة . أشياء الدولة تمشى ببطء .

---

(١) يريد «يبصبص» ولكن الفتاة مدللة وتنطق الصاد (سين) .

وحينئذ يعود ثلستينو للقوة ، فيقول لهم :[1] .

– ارفعوا روحكم المعنوية يا أولاد ! إلى الأمام مع النصر ! الذى يجبن يبقى . معى لا أريد إلا رجالا كاملى الرجولة قادرين على الموت دفاعا عن فكرة .

القوة منفعلة فى صمت يتعلق بكلماته . فى عيون الجنود يرى البريق الغاضب للرغبة فى القتال .

– فلنكافح من اجل انسانية افضل ، وماذا تهمنا جسامة تضحياتنا مادمنا نعلم انها لن تضيع هباء ، ومادمنا نعلم ان اولادنا من بعدنا سوف يجنون الثمرات لكل ما نبذره اليوم .

فوق رؤوس الجنود كانت تحلق طائرات العدو ، ولم يحرك احدهم شعرة .

– وفى مواجهة دبابات العدو ، سنضع جسارة القلب .

– رائع !

– والضعفاء والجبناء والمرضى يجب عليهم الاختفاء .

– رائع !

---

(١) يشير إلى هذيان هذه الشخصية المجنونة بتعليمات نيتشه داخل الحلم ، ولكن بين الحلم والواقع يصبح حلم ثلستينو اثناء نومه هو ليس الا هذيان مارتين فى يقظته .

– والمستغلون ، والمضاربون ، والأثرياء !

– رائع !

– والمتلاعبون بأقوات الشعب الكادح !

– رائع !

– وسنقتسم فيما بيننا ذهب بنك اسبانيا .

– رائع !

– لكن من اجل تحقيق الهدف المنشود للنصر النهائى لابد ان تضحى فوق سنان الحرية !

– رائع !

كان ثلستينو ابلغ مما كان .

– فإلى الامام – اذن – دون خور ، ودون أى خطأ واحد !ة

– إلى الامام !

– . . . فلنناضل من اجل الخبز والحرية !

– رائع !

– ولا شيء اقل من ان ينجز كل منا واجبه ، إلى الامام !

ثلستينو أحس فجأة بالحاجة إلى قضاء الضرورة .

– لحظة !

القوة شعرت بقليل من الاستغراب . استدار ثلستينو ، وكان حلقه شديد الجفاف . القوة بدأت تتبدد وتصير مضطربة . . . .

ثلستينو أورتث نهض من سريره الخشن ، اضاء نور البار ، شرب جرعة من ماء «السيفون» ، ثم وضع نفسه فوق قصرية لحمام .

* * *

لوريتا انتهت من احتساء كأس سلافة النعناع المفلفل ، اما بابلو فانتهى من شرب كأس ويسكى . عازف الفيولين ؛ مسترسل الشعر ، الذى من المحتمل انه لا زال حتى هذه اللحظة – وبايماءات درامية – يحك فيولينه المليء بأغانى لاس ثارداس العاطفية ، والحان فالس من فيينا .

بابلو ولوريتا وحدهما الآن .

– لن تهجرنى أبدا يا بابلو ؟

– أبدا يا لوريتا ،

الفتاة سعيدة ، لا ، بل انها سعيدة جدا . هناك فى أعماق قلبها . ومع ذلك فهى تنهض مهزوزة مثل ظل خفيف للشك .

– أبدا ، حقيقى ؟

الفتاة ترتدى ملابس بيضاء مطرزة بزهيرات ذات لون وردى .

– تحبنى كثيرا ؟

– إلى حد مرعب .

الثنائى يتبادل قبلة وقوفا أمام مرآة «الدولاب» .

* * *

مارتين يشعر بالبرد ويفكر فى الذهاب فى جولة بفنادق شارع القنطرة ، وشارع مونتيسا ، وشارع الأمم الذى هو مجرد شارع ضيق وقصير ، ملىء بالغموض والأشجار النابتة على الأرصفة المحطمة ، والمارة المتنزهون من الفقراء الذين يتسلون برؤية دخول وخروج أناس بيوت لقاء الاحبة ، متخيلين ما يجرى بالداخل ، وراء الجدران المصنوعة من قوالب طوب قاتمة .

العرض – حتى بالنسبة لمارتين ، الذى يراه من الداخل – ليس مسليا إلى هذ الحد ، لكنه يقتل الوقت ، بجانب انه بحركته من بيت إلى بيت يلتقط شيئا من الدفء .

وأيضا شيئا من الود . يوجد صبايا من ذوات الثلاثة دورو ، لسن جميلات جدا ، هذه هى الحقيقة ، لكنهن طيبات جدا ،

وعطوفات جدا ، ولهن ابن فى رياض أطفال الراهبات الاوغستين أو اليسوعيين الداخلية ، ابن من أجله يبذلن مجهودات لا حدود لها ، حتى لا يخرج ابن خضراء الدمن ، ابن يذهبن لرؤيته مرة بعد أخرى ، أحد الآحاد فى المساء ، بخمار الرأس ، ودون طلاء على الوجه . والأخريات ، خضروات دمن الفخفخة والأبهة ، لا يمكن تحملهن بادعاءاتهن ولف انفسهن فى ثياب دوقات ؛

إنهن جميلات ، هذا مؤكد جدا ، لكنهن ايضا خسيسات ومستبدات ، وليس لهن ابن فى أى مكان .، عاهرات الفخامة يجهضن أنفسهن ، واذا لم يستطعن يخنقن المخلوق بمجرد ولادته ، مغطيات رأسه بالوسادة ثم يجلسن فوقها .

يمضى مارتين فى التفكير ، واحيانا يفعل ذلك بصوت منخفض .

- لا أستطيع ان أقنع نفسى كيف بقيت بعض الصبايا يشتغلن كخادمات - وهن فى سن العشرين - نظير اثنى عشر دورو .

مارتين يتذكر بيتريتا بجسمها المدملج ، ووجهها المغسول ، ورجليها المستقيمتين .

- انها مخلوقة ساحرة ، تمارس طريقها ، حتى إنها

تستطيع ان توفر بعض الدوروات . فى النهاية ، طالما بقيت مهذبة ، فهو خير لها . الشىء الردىء سيكون عندما يوقعّها أى صياد ، أو أى حارس أمن . حينذاك ستدرك انها تضيع الوقت ، إنها هناك إنها !

مارتين يعبر شارع القائمة وعند وصوله إلى ناصية الجنرال بارديناس ، يأمرونه بالوقوف ، ويتحسسونه بحثا عن سلاح ، ويطلبون منه ما يثبت شخصيته .

مارتين مضى يجر أقدامه ، مارتين مضى صانعا كلاس ! كلاس ! فوق بلاط الرصيف . انه شىء يسرّى عنه كثيرا .

* * *

دون ماريا دى لابيقا أوى مبكرا إلى السرير ، الرجل يريد ان يكون مستريحا فى اليوم التالى ، فلعل مناورة دونيا رامونا تخرج لصالحه .

والرجل الذى سيقبض ست عشرة بيزيتا لم يكن أخا لزوج صبية تعمل فى مطبعة المستقبل بشارع الخشب ، لان أخاه باكو قد امسكت بتلابيبه جرثومة السل من فرط حنقها .

– طيب يا فتى ، حتى الغد ، ايه ؟

– وداعا ، ولتدم بخير . حتى الغد وليجعل الله الحظ حليفك ،

وأنا شاكر لك جدا .

- عفوا يا رجل ، عفوا . المسألة ان تعرف أداء العمل .

- سأحاول ، حاضر يا سيدى .

* * *

طبقا للمزاج الليلى ، بيتريتا تشكو مستمتعةً ، حتى اندفاع كل دماء الجسم لوجهها !

بيتريتا تحب الحارس جدا ، انه اول خطيب لها ، الرجل الذى دفع انوثتها إلى أول الطريق هناك فى القرية ، قبل مجيئها كان هناك من يدعيها ، لكن الامور لم تصل إلى غايتها .

الخطيبان صامتان للحظات دون حركة . بيتريتا تبدو غارقة فى التفكير .

- خوليو .

- ماذا .

- هل تحبنى ؟

* * *

خفير شارع ابيثا يحتمى بإحدى البوابات مبرزا رأسه ، فلعل احدهم ينادى عليه .

خفير شارع ابيثا يشعل نور السلم ، ثم ينفخ فى أصابعه البارزة من «جوانتى» الكتان ، كى ينزع عنهما التجمد . نور السلم ينطفىء سريعا . الرجل يفرك يديه ، ويعود لإشعال النور . بعد ذلك يخرج علبة السجائر ويشعل سيجارة .

مارتين يتكلم متضرعا ، متجابنا ، فى تسرع .

مارتين مرتعش مثل غصن أخضر .

– لا احمل هوية ، تركتها فى البيت ، أنا كاتب ، وأسمى مارتين ماركو .

مارتين يصاب بنوبة سعال . ثم يضحك .

– خى ، خى ! استميح حضرتك عذرا ، فأنا مصاب ببعض البرد ، بعض البرد ، خى ، خى !

مارتين يندهش لعدم تعرف الشرطى عليه .

– أساهم فى صحافة الحركة (١) ، يمكن لحضراتكم السؤال فى السكرتارية المساعدة . هناك فى شارع خينوبا . مقالى الأخير خرج منذ بضعة أيام فى عدة صحف اقليمية ، فى أوديبل ، فى

---

(١) الحركة : يشير إلى التجمع الشعبى الذى شكله فرانكو لمساندة حكومته ، وحمل اسم «الحركة الوطنية» لكن شاعت الاشارة اليه باسم «الحركة» .

أويلبا ، فى بروا ، فى ليون . . عنوانه : أسباب الاقامة الروحية للملكة ايزابيلا الكاثوليكية . . (الشرطى يرضع سيجارته) .

– هيا ، واصل سيرك . اذهب للنوم فالجو بارد .

– شكرا ، شكرا .

– عفوا . اسمع .

كاد يموت مارتين من الخوف .

– ماذا ؟

– لعلك لا تفقد الالهام !

– شكرا ، شكرا . وداعا .

مارتين يفتح الخطوة ولا يلفت رأسه للوراء ، لا يجرؤ . يحمل داخل جسمه رعبا مخيفا لا يمكن شرحه .

* * *

دون روبرتو يغازل زوجته قليلا اثناء قراءة الجريدة . زوجته تعتمد برأسها فوق كتفه . فوق اقدامهما – فى تلك اللحظة – يلقيان فوق اقدامهما معطفا قديما .

– غدا – روبرتو – أيكون يوما تعيسا جدا أو انه يوم سعيد جدا ؟

– يوم سعيد جدا ، يا امرأة !

فيلو تبتسم فى أحدى أسنانها يظهر تكلس عميق ، مسود ، مستدير .

– حقا ، لو تروينا فى الامر قليلا .

المرأة عندما تضحك بشرف وانفعال تنسى التكلس ، فتعرض اسنانها .

– حقا ، روبرتو ، حقا ، اى سعادة ينتظرنا بها الغد !

– طبعا ، فيلو . فضلا عما اقول : انه طالما نملك الصحة !

– الحمد لله لاننا نملكها بالفعل !

– نعم ، يقينا ، فنحن لا نملك حق الشكوى . فما اكثر من هم اسوأ ! ونحن بخير أو بسوء ، فكل يوم أفضل . أنا لا أطلب المزيد !

– ولا أنا ، روبرتو . حقيقى . فعلينا ان نشكر الله كثيرا ، الا تشاركنى الرأى ؟

فيلو تسوق دلالها على زوجها . المرأة شديدة الامتنان ، فمجرد اعارتها قليلا من الاهتمام يملأها بالبهجة.

– فيلو تغير قليلا من صوتها .

– اسمع روبرتو .

– ماذا ؟

– اترك الجريدة ، يا رجل .

– اذا كانت تلك رغبتك . . .

فيلو تمسك بذراع روبرتو .

– اسمع .

– ماذا ؟

المرأة تتحدث كما لو كانت الخطيبة الشابة .

– تحبنى كثيرا ؟

– طبعا يا بنية ، كثيرا كثيرا . من يتصور أو يخطر على باله غير ذلك .

– كثيرا ، كثيرا ؟

دون روبرتو يترك الكلمات تتساقط مثل ترتيل دينى عندما يقعر الصوت ، كى يقال شىء وقور . لقد كان مثل أحد الوعاظ المقدسين .

– كثيرا اكثر مما تتخيلين .

* * *

مارتين يمضى فى جموح بصدر لاهث . الخدود فى نار ، اللسان ملتصق بسقف فمه ، والحنجرة تختنق ، والأقدام تتخاذل ، والبطن مثل صندوق موسيقى مقطوع الأوتار ، والآذان تصل ، والعيون حسيرة أكثر من أى وقت مضى .

مارتين يحاول ان يفكر أثناء الجرى . الأفكار تتدافع ، تتضارب ، تتعثر ببعضها بعضا ، تسقط وتنهض داخل رأسه ، الذى هو الآن كبير مثل قطار ، لا يفهم كيف لا يتعثر بصفين من الأشياء فى الشارع .

مارتين فى وسط البرد ، يحس بسريان حرارة خانقة تسرى فى لحمه ، حرارة رطبة ، وربما أيضا ودودة ، حرارة متحدة الأوصال بألف خيط غير مرئى ، تربطها بألف حرارة أخرى مليئة بالحنان ، فياضة بالذكريات الحلوة .

– أمى ، أمى ، أنها أنفاس الكافور ، أنفاس الكافور ، لا تكن هكذا . . .

مارتين ، تؤلمه جبهته ، تخفق بإصرار فى ايقاعات جافة ومهلكة .

– أى !

خطوتان .

– أى !

خطوتان .

– أى !

خطوتان .

مارتين يبدأ فى التفكير بسرعة فائقة .

– من أى شىء أخاف أنا ؟ خى ، خى ! من أى شىء أخاف أنا ؟ من أى شىء ، من أى شىء ؟ كان له سن ذهبية . خى ، خى ! من أى يمكن أن أخاف أنا ؟ من أى شىء ، من أى شىء ؟ أى ذكاء ! خى ، خى ! أنا لا أتورط فى شىء ! فى شىء ! ماذا يمكنهم ان يصنعوا ضدى اذا لم أكن أتورط فى شىء ؟ خى ، خى ! أى عم أنت ! يا سلام على السن الذهبية ! لماذا أخاف أنا ؟ لا نكسب شيئا من الفزع ! خى ، خى ! فجأة : ثاس ! سن من ذهب ، قف ! أوراقك ليست معى أوراقى. خى ، خى ، وأيضا ليست لى سن من ذهب ، أنا مارتين ماركو . بسن من ذهب ، وبدون سن من ذهب . خى ، خى !

فى هذا البلد ، نحن الكتاب لا يعرفنا أحد ، باكو ، اى ، لو

لباكـو سـن من ذهب . خى ، خى ! نعـم ، تعـاون ، تعـاون ، لا تكـن أبله (١) . لسوف تدرك فى النهاية . . أى ضحك ! خى ، خى ! هذا حتى يجن الواحد . هذا عالم مجانين . مجانين المذبح ! مجانين خطرون ! خى ، خى ! أختى تنقصها سن من ذهب . خى ، خى ! لا ايزابيل الكاثوليكية ، ولا السكرتارية المعاونة ، ولا الاقامة الروحية لأحد ! واضح ؟ الذى أريد هو ان آكل ! آكل ! هل اتكلم باللاتينى فلا تفهمون ؟ خى ، خى ! او باللغة الصينية ؟ أسمع ، ركب لى سن من ذهب هنا . كل العالم يفهم الامر . خى ، خى ! كل العالم . آكل ! ايه ؟ آكل ! من يشترى لى علبة سجاير كاملة فلا أدخن أعقاب الدابة ! ايه ؟ هذا العالم نجس . هنا كل متأله يبحث عما له ! ايه ؟ جميعا ! كل الذين يصيحون يصمتون عندما يعطونهم ألف بيزيتا فى الشهر ، أو سن من ذهب . خى ، خى ! ونحن الملقى بنا وسيئو الطعام ، على الأرض السلام ! عظيم ! لكن عظيم جدا . ما أريد هو ارسال الجميع إلى أول داهية ! أى عهر !

مارتين يبصق بقوة ، ويتوقف ، جسمه يستند إلى الحائط

---

(١) يشير هنا إلى أن صديقه باكو طلب منه ان يتعاون مع (الحركة الوطنية) لمناصرة حكومة فرانكو ونظامه لعله يجد حلا لمشكلة الجوع والتشرد ، الأمر الذى لم يتحقق .

الرمادى لاحد البيوت . لا يرى شيئا بوضوح ، توجد لحظات لا يعرف فيها اذا كان حيا أو ميتا .

مارتين متهالك مذعن .

* * *

غرفة نوم الزوجين جونثالث ذات أثاث مغطى بالقشرة ، فى يوم كانت تفجأ وتبرق ، واليوم ممزقة وقاتمة . والسرير على جانبيه من كل ناحية «كومودينو» ومائدة «التواليت» والدولاب . والدولاب لم يمكن تلميعه قط ، فى مكانه ، والقشرة تتراءى فجة ، عارية ، شاحبة ، فضاحة الانفجار .

النجفة ذات الزجاج البالونية الخضراء ، المعلقة فى السقف ، تظهر مطفأة . النجفة ذات الزجاجات البالونية الخضراء ليس بها مصابيح كهربية . انها زخرف . تضاء الغرفة بقنديل صغير بلا غطاء يستقر فوق «كومودينو» دون روبرتو .

وفى رأس السرير ، على الجدار تظهر عذراء النجدة الأبدية من الكروم ، هدية الزفاف لدون روبرتو من زملاء العمل فى البلدية . ولقد شهدت العذراء خمس حالات طلب للنجدة : ولادة .

دون روبرتو يترك الجريدة .

الزوجان يتبادلان القبل بشىء من الاحتراف . فى نهاية

السنين اكتشف دون روبرتو وفيلو عالما لا نهاية لحدوده .

– اسمعى ، فيلو ، هل نظرت إلى التاريخ فى النتيجة ؟

– وماذا يعنينا التاريخ يا روبرتو ، اذا علمت كيف أحبك كل يوم أكثر !

دون روبرتو يخلع النظارات ، ويضعها فى كيسها ، يلقى بالكيس فوق الكومودينو ، بجوار كوب الماء الذى يحتوى بداخله طقم الاسنان كنوع نادر من الحيوانات البحرية .

* * *

مارتين يسحب المنديل ، ويجفف به شفتيه . بالفم الذى يسيل لعابه ، يطاطىء مارتين ويشرب . اعتقد انه سيظل يشرب ساعة كاملة ، ولكن العطش سرعان ما يزول . كان الماء باردا ، تقريبا متجمدا ، به قليل من الصقيع فى حوافه .

يقترب منه أحد الخفراء ، ملفوف الرأس تماما بكوفية .

– اذن تشرب . ايه ؟

– بالفعل ، نعم . هذا هو الأمر . . . أشرب قليلا من . . .

– يا لها من ليلة ! ايه ؟

– هذا ما أظنه ، ليلة مستكلبة !

الخفير يبتعد ، ومارتين ، على ضوء فانوس ، يبحث فى مظروفه عن عقب سيجارة آخر ، يكون فى حالة جيدة .

– الشرطى كان رجلا طيبا . هذه هى الحقيقة . طلب منى بطاقة اثبات الشخصية تحت ضوء فانوس ، وهذا – كما هو معروف – من اجل الا يخيفنى . أيضا تركنى أمشى فى الحال . يقينا ، لابد انه رأى اننى لا احمل هيئة من يتورط فى شىء ، واننى قليل الميل لأن أضع نفسى حيث لم يدعونى أحد ، إن هؤلاء الخلق قد تعودوا جدا على التمييز . كانت له سن ذهبية ، ويرتدى معطفا فخما . لا شك ، ولابد . انه فتى ذو شأن ، رجل طيب جدا . . .

مارتين يحس بمثل الهزة الأرضية يجتاح كل جسمه ويلاحظ ان قلبه يخفق فيخفق كله معه ، يزداد خفقان قلبه كل لحظة فى داخل صدره .

– هذا القلب قادر على ان يتخلى عنى مقابل ثلاثة دورو .

* * *

صاحب المخبز ينادى على زوجته .

– باولينا .

– ماذا تريد ؟

– الطشت !

– أنا اقوم باحضاره .

– ألم تسمعينى ؟ لم لا تردين ؟ هيا . .

– حاضر ، حاضر ، يا ابنى . كما لو كنت طفلا عنده عشرون عاما !

غرفة نوم الخبازين من أثاث رهيف الصنع من خشب اللوز الممتاز ، المتين والشريف مثل أصحابه . وفى الجذار ثلاثة اطارات مذهبة متساوية ، يبرق العشاء المقدس محفورا على فضةالمانية ، نسخة شديدة الأصالة للفنان موريللو ، بجانب صورة زفاف تظهر فيها باولينا وقد غطاها الخمار الأبيض بجانب ابتسامة وبدلة سوداء للسنيور . رامون بقبعة مرنة ، وشوارب «يقف عليها الصقر» ومشبك من ذهب لرباط العنق .

* * *

يهبط مارتين عبر شارع القنطرة حتى لوس تشالتس ، ويدخل إلى أيالا ، وينادى الخفير .

– مساء الخير ، سينوريتو .

– لا ، هذا ؟ لا .

* * *

على ضوء مصباح كهربى معلق بالباب يقرأ : فيللا فيلو . حتى الآن ما زال مارتين يكن احترامات عائلية ، حدادية ، غامضة غير واضحة المعالم . الذى حدث لاخته . . حسنا ! ان أخته ليست بأية حال من الاحوال ، انسانا دنيئا . ان المعزة شىء لا يعرف أحد أين ينتهى ، وأيضا ، أين يبدأ . يمكن محبة كلب أكثر من محبة أم . مسألة أخته . . ياه ! فى النهاية ، عندما يسخن الرجل ، فلا يميز . وبالفعل كان الحارس الجليقى يقول : (من ثابر على الظلم ، لم يعرف الله [1]) . ونحن الرجال فى ذلك ما زلنا مثل الحيوانات .

الحروف التى كتبت بها عبارة : فيللا فيلو سوداء ، خشنة ، باردة ، حادة الاستقامة ، لا ذوق فيها .

– اعذرنى يا سيدى ، سأقوم بجولة فى منتيسا .

– كما تحب ، سينوريتو .

مارتين يفكر : – هذا الخفير تعيس ، كل خفراء الشوارع تعساء ، لا يبتسمون ولا يتحركون قبل اجراء حسابات ، لو

---

(١) هذه العبارة تمت ترجمتها طبقا للسياق لكونها تحوى ألفاظا جليقية لم أستطع فك غموضها . وواضح ان مارتين لاختلاط عقله يبحث عن عنوان ففوجىء بفيلا تحمل اسم اخته فخلط بين كراهيته لزوجها ورغائبه التى يتوق اليها بالعثور على العنوان .

عرف اننى أسير بغير فلس واحد فى جيبى لقابلنى بالركلات ، وألهب ظهرى بمقرعته .

* * *

فى السرير دونيا ماريا ، سيدة السلاملك تتحدث مع زوجها دونيا ماريا امرأة فى الأربعين أو الثانية والأربعين من عمرها ، يبدو على زوجها انه أكبر منها بست سنوات .

– اسمع بيبى .

– ماذا ؟

– واضح أنك زاهد فىّ قليلا .

– لا ، يا امرأة .

– نعم بالنسبة لى : نعم .

– أية أشياء تخطر ببالك !

دون خوسيه سييرا ، لا يعامل زوجته معاملة سيئة ولا طيبة ، يعاملها كما لو كانت قطعة أثاث ويكلمها كما لو كانت شخصة فى بعض الأحايين بسبب ما قد يعترى الواحد منا من نزوات .

– أسمع ، بيبى .

– ماذا ؟

– من سيكسب الحرب ؟

– وماذا ستكسبين أنت بمن يكسبها ؟ هيا ، اتركى هذه الأشياء ونامى .

دونيا ماريا تبدأ فى النظر الى السقف . وفى نهاية برهة من الوقت تعود للكلام مع زوجها .

– اسمع ، بيبى .

– ماذا ؟

– هل لديك مانع ان اتغطى بالملاءة ؟

– غطى نفسك بما تحبين .

* * *

فى شارع مونتيسا ، ليس عليك إلا ان تدفع الباب الحديدى للحديقة ، ثم تطرق الباب بالداخل بقبضتك ، فزر الجرس ينقص الجرس ، واسلاكه سائبة ، واحيانا ، متدلية .

– مرحبا دونيا خيسوسا ، كيف حال حضرتك ؟

– بخير ، وأنت يا ولدى ؟

– ها أنت ذى ترين ! اسمعى ، ماروخيتا موجودة ؟

– لا ، يا ولدى هذه الليلة لم تحضر ، وهذا يدهشنى . لكن حتى هذه اللحظة فهناك احتمال ان تحضر . تحب انتظارها ؟

دونيا خيسوسا امرأة خشنة ، ودودة ، مجاملة ، بهيئة من كانت يوما جميلة وذات دلال ، مصبوغة بالأشقر ، ذات همة وإقدام .

– هيا ، تعال معنا إلى المطبخ . فأنت مثل احد أفراد العائلة .

– نعم . .

يتناثر فى المكان عدة غلايات مليئة بالماء ، خمس أو ست صبايا شبه نائمات ملولات ، وبوجوه ليست حزينة أو راضية .

– أى برد !

– خلاص ، خلاص . هنا المكان دافىء . حقيقى ؟

– نعم ، هذا ما أعتقده . هنا يشعر الانسان بأنه فى خير حال.

دونيا خيسوسا تقترب من مارتين .

– اسمع ، اقترب من النار ، فقد وصلت متجمدا .

أليس عندك معطف ؟

– لا .

– وهذا كلام يا رب !

مارتين ، لا تعزينه الشفقة فى الأعماق مارتين أيضا من أتباع نيتشه .

– اسمعى دونيا خيسوسا . والأوروجواية ليست موجودة أيضا ؟

– لا ، انها موجودة ، لكنها مشغولة ، لقد جاءت مع سيد ، ومعه أغلقت عليها باب احدى الغرف ، ويبدو انهما ناما .

– يا عينى .

– اسمع ، اذا لم يكن يضايقك ، لماذا تريد ماروخيتا ، هل لتقضى معها بعض الوقت ؟

– لا . . . أردت أن ابلغها رسالة .

– يا سلام عليك ! لا تكن عبيطا . الحكاية أن . . . انك فى أوضاع مالية سيئة . مارتين ماركو يبتسم من أعماقه . لقد بدأ يتسلل اليه الدفء .

– سيئة لا دونيا خيسوسا ، الأمر أسوأ .

– أنت أبله ، يا ولدى ، على ما نحن عليه من قرب ، لا تثق فى ؟ وعلى قدر ما كنت أحب أمك ، التى هى الآن فى الامجاد

السماوية . . !

دونيا خيسوسا تغمز فى الكتف احدى الفتيات اللائى كن يتدفأن بقرب النار ، انها الصبية النحيفة التى كانت تقرأ رواية .

- اسمعى يا بورا ، أذهبى مع هذا ، ألم تكونى نصف مريضة ؟ هيا ناما معا ، ولا تنزلى مرة أخرى . لا تشغلى بالك بشىء ، فغدا سأستخرج لك حبات «ابو فروة» من النار ، ويعوضك الله خيرا .

بورا الصبية التى هى نصف مريضة ، تنظر لمارتين وتبتسم ، بورا امرأة شابة ، جميلة جدا ، رشيقة ، شاحبة بعض الشىء ، لها شكل عذراء مدمنة ، بدوائر زرقاء حول العينين .

مارتين يأخذ يد دونيا خيسوسا .

- دونيا خيسوسا ، شكرا جزيلا ، أنت دائما بمثل هذه الطيبة معى .

- اخرس ، يا مدلل ، فأنت تعرف اننى اعاملك كإبن .

ثلاثة أدوار عليا للسلم ، وغرفة سقفها زجاجى .

سرير وابريق وامرأة داخل اطار أبيض ، وشماعة وكرسى . . . رجل وامرأة .

* * *

الليل يغلق أبوابه ، على الحد الرهيف للواحدة والنصف أو الثانية لما قبل الفجر ، فوق القلب العجيب للمدينة .

آلاف من الرجال ينامون محتضنين نساءهم دون التفكير فى اليوم الصعب القاسى الذى ربما ينتظرهم ، متوترا مثل قط جبلى غاضب ،خلال ساعات قليلة .

مئات ، ومئات من خريجى الجامعة يسقطون فى الادمان الدقيق والحميم للوحشة والوحدة .

عشرات بعد عشرات من الفتيات ينتظرن – ماذا ينتظرن ، يا إلهى ؟ لماذا خلقتهن هكذا مخدوعات كل هذا الخداع ؟ – برؤوس مفعمة بالأحلام المذهبة .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

الفصل الخامس

تعودت خوليتا (١) على التواجد فى البيت ، قريبا من الثامنة والنصف مساء وربما قبل ذلك بقليل فى بعض الأحايين .

– مرحبا يا بنتى خوليتا !

– مرحبا ، ماما !

الأم تنظر اليها مصعدة هابطة فى بلاهة وفخار .

– أين كنت حتى الآن ؟

تترك الفتاة قبعتها فوق البيانو وتنثر شعرها أمام المرآة ، تتكلم شاردة البال إلى أمها . ودون ان تنظر إليها .

– كما ترين ، كنت هناك !

صوت الام رقيق حنون ، كما لو كانت تود التعبير عن امتنانها .

– هناك ، هناك ! تقضين طوال اليوم فى الشارع ثم بعد ذلك تعودين ولا تحكين لى شيئا ، مع كل الرغبة عندى لمعرفة أشيائك . احكى لامك التى تحبك . .

تطلى الفتاة شفتيها متطلعةفى ظهر علبة زينتها .

---

(١) خوليتا بنت أخت دونيا روزا ، وأمها دونيا بيسى ، أبوها دون روكى ، وقد تركناها فى الحلقة السابقة فى نزل «مواعيد الاحبة» ملك دونيا ثيليا فى شارع القديسة انقراسيا ، مع خطيبها بنتورا .

– وأبى ؟

– لا ادرى . لماذا السؤال ؟ لقد خرج ، وحتى هذه اللحظة فمن المبكر توقع عودته . لماذا تسألينني عنه ؟

– لا ، ليس لأى شىء ، لقد تذكرته فجأة لانى رأيته فى الشارع .

– ترينه فى الشارع ، مع اتساع مدريد ؟

خوليا تواصل الكلام .

– اتساع مدريد ؟ انها ليست اكثر اتساعا من منديل . لقدرأيته فى شارع القديسة انقراسيا (١) كان ذلك فى لحظة مغادرتى أحد البيوت ، حيث كانوا يصورونني .

– لم تحدثينى من قبل عن حاجتك للتصوير .

– لقدكنت أود ان اعملها مفاجأة لك . . لقد دخل ابى نفس البيت الذى كنت أخرج منه ، بالطبع كان بصدد زيارة صديق له مريض هناك .

---

(١) اسم الشارع به توريه : فمعناه القديسة التى ترقد فى سلام ، وهو نفس الشارع الذى يوجد به نزل «مواعيد الاحبة» الذى تملكه دونيا ثيليا ، زوجة دون عبد الله «الذى يرقد فى سلام ، وينظر إلى الاحبة بعيون ميت من وراء زجاج صورته الكبيرة داخل اطارها الحدادى فى الغرفة المتميزة بالنزل . التلاعب والتورية بمعانى الاسماء ارث عربى فى اللغة الاسبانية .

الصبية تنظر فى المرآة يخطر على بالها أحيانا أن أمها تملك وجه بلهاء .

- . . أيضا أظن أنه لم يرنى ، فلم يقل لى ولا حتى كلمة واحدة .

تأخذ دونيا بيسى هيئة الحزن .

- وهو - أيضا - لا يقول أى شىء لى ابدا .

خوليتا تبتسم ، وتقترب لتقبيل أمها .

- ما أجمل عجوزى [1] .

دونيا بيسى تقبلها ، ثم تلقى برأسها إلى الوراء وتقوس حاجبيها .

- رائحتك سجاير !

- وما رأيك ؟ أنا لم أدخن ، وأنت تعرفين أكثر من غيرك أننى لا أدخن ، وأننى أرى أن التدخين ضد الانوثة .

الأم تصدر ايماءات فيها صرامة .

---

(١) تقصد أمها . وعموما ينادى الاصدقاء والاقرباء المتحاربون بعضهم بعضا بلفظ «عجوز» واستخدم الكنية بدلا من الاسماد ارث عربى عند الاسبان .

– اذن . . هل قبلك أحدهم ؟

– بحق الإله ، ماما ! بمن تقيسيننى ؟

المرأة ، المرأة المسكينة ، تمسك ابنتها من كلتا يديها .

– سامحينى يا ابنتى ، حقيقى ! أية تخاريف ساذجة أقولها اليوم !

تبقى متفكرة للحظات ، وتتحدث ببطء كما لو كانت تكلم نفسها .

– الأمر ، أن الواحد يتصور ان فى كل شىء خطرا على أبنته الكبرى .

خوليتا تترك لدمعتين سبيل السقوط .

– ولكنك تقولين أشياء !

الأم تغتصب بعض ابتسامة وتهدهد شعر الصبيه .

– دعك من هذا ، ولا تكونى طفلة ! لا تعيرينى انتباها . لقد قلتها لك من باب المزاح .

خوليتا شاردة ، كما لو كانت لا تسمع .

– ماما !

– ماذا ؟

* * *

دون بابلو كان يظن ان ابنة أخ زوجته وزوجها يقومان بزيارتهم لقضاء «العيد» معهم ، ولإفساد أمسيته ، فى تلك الساعات ، كنت تجده فى كل الايام بمقهى دونيا روزا يتناول مشروبه المفضل : الشوكلاته .

ابنة أخى زوجته اسمها انيتا ، زوجها اسمه فيديل . انيتا بنت احد اخوة زوجته ، وهو يعمل بالبلدية فى سرقسطة . وقد حصل على صليب جدارة فى الاعمال الخيرية لانه انتشل احدى السيدات من نهر الابرو ، وتصادف أنها ابنة عم لرئيس البلدية . فيديل زوج انيتا شاب يملك محل حلويات اويسكا . وهما يقضيان بضعة أيام فى مدريد فى رحلة عسل لعروسين .

فيديل فتى فى ريعان الصبا يحمل شاربا مهذبا ، ورباط عنق أخضر ، فى مراهقته أصيب باختلال فى أعضاء جسمه ، وبكلمات أخرى أصيب بداء السيلان ، بسبب انحرافه . والحقيقة أيضا انه كان قليل الحظ وقد ابقى سره تحت ستار الصمت المحكم ، حتى لا يشم زبائن المحل رائحة الخبر ، ثم تماثل للشفاء شيئا فشيئا بعلاج بطىء استخدم فيه املاح الزئبق ، داخل

مراحيض كازينو المحل . فى تلك الأيام كان يصاب بالغثيان عند رؤية اسطوانات البقلاوة المحشوة بالقشدة الصفراء الدسمة . ومنذ ستة أو سبعة أشهر مضت كسب مسابقة رقصة التانجو (١) فى مدينة سرقسطة . فى تلك الليلة نفسها قدموا له الصبية التى صارت اليوم زوجته .

والد فيديل ، أيضا حلوانى ، وقد كان كهلا حوشيا وحشيا يتطهر بالرمل ، ولم يكن يتكلم إلا عن جهالات وعن القديسة عذراد البيلار (٢) . يدعى انه مثقف وصاحب مفهومية ، ويحمل نوعين من البطاقات . نوع كان يقول : خواكين بوستامنتى ، رجل اعمال ، والنوع الآخر بحروف قوطية (٣) حيث يقرأ : خواكين بوستامنتى بايس ، صاحب مشروع : يجب مضاعفة

---

(١) فيديل واحد من شخصيات عمل كبير للمؤلف اسمه : «الاصدقاء القدماء» وقد ظهر فى فصل يحمل عنوان «روح التانجو» ونفس الشىء ينطبق على السيدة ماريا مورالس دى سييرا ، سيدة السلاملك الثرثارة التى ظهرت فى الحلقة السابقة والالحاح على نفس الشخصيات احدى الخصائص الأسلوبية لهذا الكاتب ، وقد اخذ منه ماركيز صاحب «مائة عام من العزلة» هذه العادة وتوسع فيها .

(٢) يربط الكاتب بين جهل الاب واعتقاده فى القديسين .

(٣) الحروف القوطية طريقة قديمة فى كتابة الاسبانية وكانت تستخدم فى ذلك الوقت فقط فى كتابة المصطلحات العلمية أو الاسماء ذات الاهمية .

الانتاج الزراعى فى أسبانيا [١] عند موته ترك كمية هائلة من الأوراق كثة السواد مليئة بارقام ومشاريع ، كان يريد مضاعفة المحاصيل طبقا لنظام اختراعه : أحواض هائلة ذات شرفات محشوة بالتربة الخصبة تستقبل المياه من آبار ارتوازية والشمس عن طريق طاقم من المرايا .

والد فيديل غير اسم محل الحلوى عندما ورثه عن اخيه الاكبر الميت عند ٩٨ فى الفلبين [٢] . قبل ذلك كان يسمى «واهبة الحلاوة» لكن بدا له ان الاسم تافه المعنى ، فسماه : مشمس المسنين ، لقد امضى عاما ونصف العام أو يزيد باحثا عن الاسم وفى النهاية كان لديه سجل من ثلاثمائة اسم على الاقل كلها على نفس الاسلوب . وخلال عصر الجمهورية مستغلا موت ابيه ، غير فيديل الاسم من جديد واعطاه ، اسم : حلوانى مثلجات الذهب .

– محلات الحلوى لا ينبغى ان تحمل اسماء سياسة (هكذا كان يقول) .

فيديل ببديهة نادرة ربط العنوان «مشمس المسنين»

(١) يشير إلى سيادة الشعارات لاكثر من نصف قرن فى اسبانيا منذ مطلع القرن العشرين وحتى كتابة الرواية فى الخمسينات .
(٢) يشير إلى عام الكارثة الذى هزمت فيه أسبانيا من الولايات المتحدة وتنازلها عن الفلبين وكوبا وانتهاء امبراذوريتها .

بأتجاهات معينة من الفكر .

– الذى علينا هو ان نبيع لأى كان الكعك السويسرى والفطائر بنفس العملة النقدية : البزيتات ، سواء كان من نبيعه جمهوريا أو ملكيا من انصار كارلوس .

الصبى والصبية كانا قد وصلا إلى مدريد لقضاء شهر العسل ، واقنعا نفسيهما بضرورة عمل زيارة طويلة لخالتهما وزوجها ، ودون بابلو لم يكن يعرف كيف يزيحهما من فوق نفسه .

– الحكاية ، ان مدريد تعجبكما ، ايه ؟

– بالطبع ، نعم !

يترك دون بابلو بعض اللحظات تمر قبل ان يقول :

– طيب !

دونيا بورا كانت توافق دون بابلو ، العروسان فيما يبدو كان فهمهما غير كبير .

* * *

توجهت فيكتوريا لشارع فوين كرال لمحل ألبان دونيا رامونا براقادو ، العشيقة العتيقة لذلك السيد الذى كان مرتين نائب

وزير الخزانة .

– أهلا ! فيكتوريا ، أى بهجة كبرى فى مرآك .

– أهلا ! دونيا رامونا

دونيا رامونا تبتسم ابتسامة مجاملة .

– لقد كنت أعرف ان ابنتى ما كانت لتخلف معى موعدا .

فيكتوريا حاولت أيضا أن تبتسم .

– نعم ، فمن الواضح أن حضرتك شديدة التعود .

– ماذا تقولين ؟

– ها انت ذى – بالطبع – ترين . لا شىء !

– اى ، ابنتى ! كم انت شكاكة .

فيكتوريا خلعت المعطف . كان طوق «بلوزتها» عاريا من الحلى ، وفى العينين نظرة غريبة ، لا يدرى أحد هل هى نظرة استعطاف ذليلة ام نظرة قاسية .

– هذا خير حال اكون عليه ؟

– لكن يا ابنتى . ماذا حصل لك ؟

– لا شىء لم يحصل لى شىء .

دونيا رامونا ، ناظرة فى اتجاه آخر ، تحاول ان تجعل طبعها المصالح يطفو على صفحة وجهها .

– مرحى ! مرحى ! دعك من الصبيانية ، وهيا ادخلى هناك للعب الورف مع بنات اختى .

فيكتوريا تصلبت فى مكانها .

– لا ، دونيا رامونا . ليس عندى وقت . ينتظرنى خطيبى . بالنسبة لى – هل تعرفين ؟ – فأنا انفجر من الغيظ ان نمضى فى لف ودوران حول الموضوع مثل قادوس الساقية . حضرتك وأنا كل ما يعنينا هو الدخول فى صلب الموضوع . هل تفهمين ؟

– لا ، يا ابنتى ، لا أفهمك .

فيكتوريا كانت منكوشة الشعر قليلا .

– اذن سأقولها لك بشكل اكثر وضوحا : أين يوجد الجدى (الذى يحتاج لماعز !) دونيا رامونا أصيبت بالذعر . .

– ايه ؟

– أكرر : أين الجدى ! هل تفهميننى ؟ أين صاحبنا ؟

– لكن يا ابنتى . أنت غير مهذبة .

– حسنا ، أنا أكون ما تشائين . هذا امر لا يعنينى . أنا على

ان القى نفسى فى أحضان رجل لشراء الدواء لرجل آخر . فأين هذا العم ؟

– لكن ، يا ابنتى ، لماذا تتكلمين هكذا ؟

فيكتوريا رفعت صوتها .

– لسبب بسيط ، هو اننى ليس لى مزاج للتكلم بطريقة أخرى ، أيتها العمة هل وصل الامر إلى ادراكك ؟ ليس لى مزاج !

بنات اخت دونيا رامونا اطللن عندما سمعن الضجيج ، وخلفهن برز وجه دون ماريو .

– ماذا يجرى يا خالة ؟

– هذه الشريرة الجاحدة أرادت ضربى !

فيكتوريا كانت هادئة هدوءا تاما . قبل ارتكاب حماقة كبرى بقليل يكون الواحد هادئا . وأيضا قبل ان يقرر عدم ارتكابها بقليل .

– انظرى حضرتك ! سأعود فى يوم آخر عندما يكون عندك عجز فى العميلات !

الصبية فتحت الباب وخرجت . وقبل وصولها للناصية كان دون ماريو قد لحق بها . الرجل وضع يده على قبعته .

– عفوا يا آنسة ! لماذا نلف وندور ! أنا المسؤول نسبيا عن كل هذا . أنا . . .

– مرحى يا رجل! يبهجنى ان إعرفك . وها أنا ذى ملك يديك! الم تكن تسعى إلىّ ؟ اقسم لحضرتك اننى لم أخن خطيبى . ومنذ ثلاثة اشهر ، أو ما يقرب من اربعة ، لا أعرف ما هو صنف الرجال . أحب خطيبى كثيرا . وانت لن أحبك أبدا ، لكن مادمت تدفع فأنى سأذهب معك . لقد فاض بى الكيل . خطيبى سينجو ببضع دوروات . لا يهمنى ان أتوّجه بالقرون . الذى يهمنى هو اخراجه من محنته . اذا شفيته لى ، فإنى سأعطيك ما تشاء .

صوت الصبية كان يتدفق مرتعشا . فى النهاية ، انفجرت تبكى .

دون ماريو ، الرجل الخبيث الذى تجرى العاطفة فى بعض عروقه ،. احس بغصة فى حنجرته .

– اهدئى يا آنسة . هيا نذهب لتناول بعض القهوة ، وهذا سيساعدك على التحسن .

فى المقهى قال دون ماريو لفيكتوريا :

– سأعطيك نقودا لتحمليها إلى خطيبك ، لكن ، فلنصنع ما نصنع ، وهو فليظن ما يشاء ، ألا تتفقين معى .

– نعم ، فليظن ما يشاء .

خوليتا شاردة يبدو انها لا تسمع . تبدو وكأنها على سطح القمر .

– ماما . .

– ماذا ؟

– أود أن أدلى لك باعتراف .

– أنت ؟ اى ، بنيتى ! لا تجعلينى أضحك .

– لا ، يا ماما ! أنا أتكلم بجدية . على ان أدلى لكِ باعتراف .

ترتعد من الأم الشفتين بعض الارتعاد . لم يكن ممكنا ملاحظة ذلك عليها إلا بشيء من التحديق .

– تكلمى ، يا ابنتى ، تكلمي .

– الحكاية ، لا أدرى ما اذا كانت ستواتينى الجرأة .

– نعم يا ابنتى ! تكلمى ، لا تكونى قاسية ، وفكرى دائما فيما يقولون : الأم ليست إلا صديقة ، وموضع سر ابنتها .

– طيب . وانه لكذلك .

– فلنر ، تكلمى .

– ماما . . . . .

– ماذا ؟

مرت خوليتا بلحظة اقتلاع .

– تعرفين لماذا لى رائحة السجائر ؟

– لماذا ؟

الأم فى تشوقها ، كان من الممكن ان تغرقها شعرة .

– اذن ، لانى كنت شديدة القرب من رجل ، وهذا كان يدخن السيجار.

تنفست دونيا بيسى الصعداء ، ومع ذلك فما زال ضميرها يملى عليها الجدية .

– أنت ؟

– نعم ، أنا .

– لكن .

– لا ، ماما ، لا تخافى . فهو طيب جدا .

تأخذ الصبية هيئة الحالمة ، وكأنها شاعرة .

– طيب جدا ، طيب جدا .

– ومهذب ؟ فهذا هو الجوهرى .

– نعم ، يا أماه ! أيضا مهذب .

– يا صغيرتى ، لا أعرف ما أقول لك فليباركك الله . . .

خوليتا العزيزة ، كانت جفونها ترتعش بعض الرعشة .

– شكرا ، يا أماه .

فى اليوم التالى ، كانت دونيا بيسى تخيط ، عندما دقوا الباب حوالى الواحدة بعد الظهر .

– تيكا ، اذهبى وافتحى .

الخادمة المدرسية والعجوز ، والقذرة ، والتى يسمونها تيكا تذهب لفتح باب الشارع .

– سيدتى ، خطاب مسجل .

– خطاب مسجل ؟

– نعم .

دونيا بيسى وقعت فى الدفتر الصغير ، الذى يحمله رجل البريد .

– خذى ، اعطيه قطعة النقد هذه .

مظروف الخطاب المسجل يقول : الآنسة خوليتا موسى ، شارع أرزنبوش ، ٥٧ ، مدريد .

– ماذا يمكن ان يكون ؟ بداخله ورق مقوى .

تعرض دونيا بيسى المظروف للنور ، فلا يُرى شئ .

– أى تشوق يجرفنى لمعرفة السر ! خطاب مسجل للبنت ، ما أغرب ذلك !

دونيا بيسى تفكر فى ان خوليتا لن تستطيع التأخر كثيرا ، وحالا سوف تشبع فضولها . دونيا بيسى تواصل خياطتها .

– ماذا يمكن ان يكون ؟

دونيا بيسى تعود لالتقاط المظروف ، كان بلون القش ، وحجمه اكبر من المعتاد قليلا ، تعود للنظر اليه من كل ناحية ، ثم تتحسس اجزاءه فى ضربات .

– كم أنا غبية ! صورة ! صورة البنية . لكن أيضا فهذا سريع أكثر من المعقول .

دونيا بيسى تفتح المظروف فيسقط منه سيد بشوارب ، فوق سلة الخياطة .

– أى وجه لرجل ! فظيع !

السيد ذو الشوارب كان يسمى فى حياته دون عبد الله . دونيا بيسى تجهل هويته . بيسى - تقريبا - تجهل كل ما يجرى فى هذا العالم .

- من يكون هذا العم ذو الشوارب ؟

عندما تصل الصبية تخرج اليها امها حتى مدخل البيت .

- انظرى خوليتا يا ابنتى ، لقد جاءك خطاب . فتحته لانى رأيت به صورة ، وظننت انها لك . عندى رغبة شديدة لرؤية صورتك .

خوليتا قطبت ملامحها . خوليتا كانت أحيانا تظلم أمها بعض الشىء .

- أين هو ؟

- خذى ، ها هو ذا ، انى اظن انه نوع من المزاح لابد .

خوليتا ترى الصورة ويهرب الدم من وجهها .

- نعم ، مزاح ، قليل الذوق جدا .

مع كل لحظة تمر يقل فهم الأم لما يجرى .

- هل تعرفينه ؟

- لا ، ولِمَ سأعرفه ؟

خوليتا تحفظ صورة دون عبد الله ، ومعها ورقة مكتوبة بخط متعثر لخادمة وتقول : هل تعرفين هذا الرجل يا حلوة ؟

عندما ترى خوليتا خطيبها تقول له :

– انظر ماذا تسلمت بالبريد .

– الميت ؟ !

– نعم الميت .

بنتورا صامت للحظة بوجه متآمر .

· اعطنى اياها ، فأنا أعرف ماذا افعل تجاهها .

– خذها .

بنتورا يضغط قليلا على ذراع خوليتا .

– اسمعى ، هل تعرفين ماذا أقول لك ؟

– ماذا ؟

– أفضل ان نغير عشنا ، ونبحث عن كهف آخر فكل هذا يمثل لى شوكة فى القدم .

– أتفق معك أيضا . بالأمس قابلت أبى على السلم .

– رآك ؟

– بالطبع رآنى !

– وماذا قلت له ؟

– لا شىء . كنت خارجة بعد ان اخذوا لى صورة ، بنتورايفكر .

– هل لاحظت شيئا فى بيتكم ؟

– لا ، لا شىء . حتى الآن لم ألاحظ شيئا .

قبل التقائه بخوليتا بوقت قصير ، تقابل بنتورا مع دونيا ثيليا فى شارع لوتشانا .

– مع السلامة دونيا ثيليا !

– مع السلامة يا سيد أقوادو ! بالمناسبة اسمع ، كما لو كان القدر يضعك فى طريقى ، فأنا سعيدة للقائك لأن عندى شيئا هاما أود قوله لك .

– لى ؟

– شىء يعنيك . اننى أفقد «زبونا» جيدا ، ولكن ما باليد حيلة فالظروف تحكم . ينبغى ان اقولها لك ، أنا لا أريد مشاكل : عليك ان تسير انت وخطيبتك بعيون مفتوحة ، فوالد الصبية ، أيضا ، من زوار بيتى .

– نعم ؟

– كما تسمع .

– لكن . . .

– لا استطيع قول شيء ، كما تسمع !

– نعم ، نعم ، طيب . . شكرا جزيلا .

لقد انتهى الناس من تناول العشاء .

بنتورا ينتهى من كتابة خطابه المختصر ، والآن يضعه فى المظروف المعنون : السيد دون روكى موسى ، شارع آرزنبوش ، ٥٧ ، الشقة الداخلية .

الخطاب المكتوب على الآلة الكاتبة يقول : «سيدى العزيز» ، ارسل اليك الصورة التى يمكن ان تتحدث ضدك فى كل الوديان . فلتسر على يديك ورجليك ، ولا تلعب ، فقد يكون خطيرا . مائة عين تتجسس عليك ، واكثر من يد لن تتردد فى قطع رقبتك . احترس ، فنحن نعرف لمن اعطيت صوتك فى انتخابات ٣٦ (١) .

ذهب الخطاب دون توقيع .

---

(١) لا تلعب : يريد بها ألا يخرج مع نساء إلى بيت دونيا ثيليا حتى يخلى الجو لابنته خولينا وخطيبها بنتورا ، الذى يظن ان الاب هو الذى ارسل صورة دون عبد الله لابنته خوليتا . اما انتخابات ٣٦ فهى الانتخابات التى فازت بها الجبهة الشعبية التى تمرد عليها فرانكو ، واصبح فيما بعد من صوتوا لصالحها اعداء للنظام .

عندما يتسلمه دون روكى ، قد يقف تنفسه . لن يستطيع تذكر دون عبد الله ، لكن الخطاب - ولا شك فى ذلك - سوف يحطم روحه المعنوية .

- هذا لابد ان يكون من فعل الماسونيين - هكذا سيفكر - فله كل ملامحهم ، والصورة للتضليل . من سيكون هذا التعيس الذى له وجه ميت مضى على موته ثلاثون عاما .

* * *

دونيا اسونثيون ، ام باكيتا ، كانت تحكى قصة الحظ الطيب الذى صادف ابنتها لدونيا جوانا انترينا ، أرملة سيسمون صاحبة المعاش ، وجارة دون ابراهيم ، وتعيسة الحظ دونيا مارقوت .

دونيا خوانا ، فى المقابل ، كانت تمد دونيا اسونثيون بكل ضرب من التفاصيل حول الموت التراجيدى لام سنيور ساورس الذى يكنى بالكنية الهازئة : المصوراتى .

دونيا اسونثيون ودونيا خوانا كانتا - تقريبا - صديقتين قديمتين ، وقد تعارفتا فى الشاحنة التى اجلتهما إلى بلنسية خلال الحرب الاهلية (١) .

---

(١)اعتبارا من ٦ فبراير ١٩٣٦ تم اجلاء بعض سكان مدريد إلى بلنسية عاصمة أسبانيا فى عصرها الجمهورى ، بسبب قسوة المعارك والغارات الجوية فى مدريد .

– أى ، يا بنية ! نعم ! اننى مبتهجة ! عندما تسلمت خبر موت زوجة خطيب ابنتى . كدت اجن من الفرحة . وليسامحنى الله فلم أرغب السوء ابدا لاحد ، لكن تلك المرأة كانت الشبح الذى يعتم نور سعادة ابنتى .

دونيا خوانا بنظرة مدقوقة فى الأرض ، استأنفت موضوعها ؛ اغتيال دونيا مارقوت .

– بمنشفة ! هل تظنين ان من حق أحد ذلك ؟ بمنشفة ! أى سوء تقدير نحو عجوز ! المجرم خنقها بمنشفة كما لو كانت دجاجة . وفى يدها وضع زهرة . المسكينة بقيت بعيون مفتوحة ، وكما يقولون ، فقد كانت تشبه البومة فى حالتها تلك ، حتى اننى لم اجرؤ على رؤيتها ، فأنا انفعل اكثر من اللازم واتأثر بتلك الأشياء . أنا لا اود ان أخطىء فى حق احد ، لكننى اشم رائحة ابنها متورطا فى كل ذلك . ابن دونيا مارقوت – رحمها الله ! – كان شاذا ، هل تعرفين ؟ طوال الوقت يمشى مع رفقة السوء . وقد كان زوجى المسكين يقولها : من يزرع الشر يحصده .

المرحوم زوج دونيا خوانا ، دون جونثالو سيسمون انهى ايامه الاخيرة فى ماخور من الدرجة الثالثة ، حيث خانه قلبه فجأة

فى احدى الامسيات . اضطر اصدقاؤه إلى احضاره فى «تاكسى» ليلا لتجنب المضاعفات . قالوا لدونيا خوانا انه مات اثناء وقوفه فى صف انتظار الوصول إلى تمثال المسيح فى الكنيسة وذلك للصلاة والتمجيد ، وقد صدقت دونيا خوانا ما قالوه .

جثمان دون جونثالو وصل دون حمالة - كما يجب فى تلك الحالة - لكن دونيا خوانا لم تلتفت لتلك التفصيلة ، ومضت تردد :

- جو نثالو المسكين ! جونثالو المسكين !

الشىء الوحيد الذى يعزينى ان اعلم انه صعد مباشرة إلى السماء ، وهو فى هذه الساعات فى حال أفضل منا . جونثالو المسكين !

دونيا أسونثيون ، التى كانت تسمع شيئا مثل المطر ، تواصل شأن باكيتا .

- والآن ان شاء الله ، قد تكون (حاملا !) هذا لو كان هناك حظ ! خطيبها سيد يحترمه العالم كله ، انه استاذ بكرسى . ولقد نذرت زيارة العذراء فى تلها مشيا على الاقدام لو كانت الصبية (حاملا) ، الا تظنين اننى على حق ؟ أنا أظن انه من أجل سعادة

ابنة ، فكل تضحية تهون . الا ترين ؟ أى بهجةملأت قلب باكيتا وقد رأت خطيبها متحررا من زوجته !

* * *

فى الخامسة أو الخامسة والنصف يصل دون فرنسيسكو إلى بيته لانتهاء العيادة . فى صالة الانتظار بالعيادة يوجد دائما بعض المرضى المنتظرين بوجه عارض وفى صمت . يصحب دون فرنسيسكو صهره الذى يقاسمه العمل .

دون فرنسيسكو فاتح عيادة شعبية ، وهى التى تترك له أفضل البيزيتات شهريا . العيادة تحتل اربع نواص وتحمل لافتة تلفت النظر تقول معهد باستير كوش ، ادارة وملك دون فرنسيسكو روبلس ، أمراض الدرن الصدرى ، والرئتين ، والقلب . أشعة اكس . امراض جلدية وتناسلية وسفلس . علاج الروماتيزم بالجلسات الكهربائية . الاستشارة خمس بيزيتات . المرضى الفقراء لأحياء كبيدو ، ويرابو ، وسان برناردو ، وفوين كرال ، يكنون ايمانا كبيرا نحو دون فرنسيسكو ، حتى انهم يقولون :

– انه حكيم ، حكيم حقيقى ، طبيب كثير التدقيق

كثير الخبرة .

دون فرنسيسكو تعود على مقاطعتهم فى الحديث .

– لا ، ليس فقط بالايمان يتم الشفاء يا صديقى العزيز (هكذا يخاطبهم بحنان ، ملونا صوته بلون الأسرار) ، الايمان بدون عمل ايمان ميت ، ايمان لا يصلح لشىء ، فدائما يجب اضافة جهد من جانبك ، تنقص الطاعة والمواظبة . مواظبة جمة ! عدم الانصراف وترك التردد على ، بمجرد الشعور بقليل من التحسن . أن تحس بأنك على ما يرام ليس معناه الشفاء ، ولا حتى قرب الشفاء ، فللأسف فان الفيروسات مخادعة مثل الخونة والانقلابيين .

دون فرنسيسكو كان «غشاشا» بعض الشىء ، فقد حمل على كاهله ارث أسرة ذات فخاخ هائلة .

أما المرضى المفعمون بالحياء ، والفهم فعندما يسألونه عن «السلفاميداس» (١) يثنيهم دون فرنسيسكو ببرود وجبن عن أستعماله . دون فرنسيسكو يراقب تقدم أبحاث صناعة الأدوية

---

(١) دواء متعدد الفوائد يتناوله المرضى دون الرجوع للطبيب (مثلما نتناول الاسبرين) ، وقد انفردت الولايات المتحدة بصناعته خلال الحرب العالمية الثانية لزوم الجنود وغيرهم .

بقلب منقبض ويفكر قائلا لنفسه :

– سيصل اليوم الذى سنصبح فيه نحن الأطباء بلا فائدة تذكر ، حيث ستوجد فى الصيدليات قوائم بالأدوية يختار منها المرضى الوصفة التى تناسبهم بأنفسهم .

وعندما يحدثونه عن السلفاميداس ، يجيبهم دون فرنسيسكو قائلا :

– اصنع ما تشاء ، لكن لا تعد إلى هنا مرة اخرى . أنا أرى صحة رجل يتطوع لاضعاف دمه .

دون فرنسيسكو تعود على ان تترك كلماته أثرا كبيرا فى النفس .

– لا ، لا ، فما تأمر به حضرتك سأنفذه .

فى البيت وبغرفة داخلية ، كانت دونيا «وحيدة» تراجع الجوارب تاركة لخيالها عنان الضياع فى الدروب . خيالها أخرق ، قصير الباع ، امومى ، له قدرة طيران دجاجة . . دونيا وحيدة ليست سعيدة . فرغت حياتها للأولاد ، لكن الاولاد لم يعرفوا أو لم يريدوا جعلها سعيدة . ولدت أحد عشر ابنا ، وابنة ، عاشوا جميعا ، تقريبا كلهم بعيدين عنها وأحدهم ضائع الاثر .

الابنتان الكبيرتان : وحيدة وتقية تحولتا إلى راهبتين منذ زمن بعيد ، عندما سقط بريمو دى ريبيرا [١] ، وأكثر من ذلك دخلت الدير أيضا ، مريم البارة احدى بناتها الصغار . اكبر الولدين الذكور الوحيدين فرنسيسكو ، وصاحب الترتيب الثالث بين أولادها كان دائما عين الام وعونها ، وهو الآن ضابط طبيب فى السجن الحربى كرابانتشيل ، وفى بعض الاحيان يأتى البيت لينام بضع ليال .

امبارو واسونثيون هما الوحيدتان المتزوجتان : امبارو متزوجة بمساعد ابيها دون اميليو رودريقوس روندا ، واسونثيون متزوجة من دون فادريكى مهندس طبيب ممارس فى وادى الحجارة ، رجل مجتهد وذو نزوات حتى انه يصلح لدور صعلوك غوغائى تماما مثل صلاحيته لدور نمام ذميم أو أنه يضع بعض الحقن لطفل مثلما يركب الحقنة الشرجية لعجوز فى وضع جيد ، وكأنه يصلح راديو أو يركب رقعة لحقيبة من «الكاوتش» .

المسكينة امبارو ليس لديها ابناء ولا تستطيع الانجاب ،

---

(١) بريمو دى ريبيرا : كان رئيس الحكومة ، وقد قدم استقالته إلى الملك عام ١٩٣٠ ، بسبب تخلى الجنرالات وقطاعات الصناعة والاقتصاد عنه بعد تقديم برنامج اصلاحى .

تمضى حياتها بصحة معتلة دائما ، لا تفتأ تعود إلى نوباتها المريضة كلما خرجت منها أو إلى ثقوبها كلما رقعوها لها . لقد بدأ الامر بسقوط حملها بعد انحرافات صحية متعددة ، وانتهى الامر بضرورة ازالة المبيضين ، واستخراج كل ما كان يضايقها من بطنها ، وكان كثيرا . أسونثيون ، على العكس ، اقوى ولها ثلاثة أولاد مثل شموس ثلاث : بيلارين ، فادريكى ، ساتورنينو ، والكبرى قد تم التحاقها بالمدرسة ، فقد أتمت خمس سنين .

ومن ثم يبقى من عائلة دون فرنسيسكو ، ودونيا وحيدة : (ثالوثة) ، عزباء ، قبيحة والتى بحثت عن شىء من رأس المال وفتحت دكان خردوات فى شارع ابوداكا .

الدكان صغير لكنه نظيف ومعتنى به فى احكام . وله «فترينة» صغيرة يعرض بها «شلل» من خيوط غزل الصوف ، وملابس اطفال ، وجوارب حرير ولافتة مطلية بالأزرق حيث يقرأ بحروف بارزة «ثالوثة» وتحتها بحروف أصغر : خردوات .

فى الجوار شاب شاعر ينظر إلى الفتاة فى حنان عميق يحاول دون جدوى ان يشرح لعائلته ساعة الطعام :

– انتم لا تدرون . ذلك الدكان الصغير والمنعزل الذى يحمل

اسم ثالوثة يفجر وجدى وأشواقى .

– هذا الصبى أبله (يؤكد الأب) ، ولا أدرى ماذا سيحدث له يوم اختفى من هذا العالم .

شاعر الجوار ، صبى مسترسل الشعر ، باهت اللون ، فاقد الوعى دائما ، دون ادراك شىء مما يدور حوله ، حتى لا يهرب منه الوحى ، الذى هو شىء مثل فراشة عمياء وصماء . .

فراشة تطير على ايقاع دندنة جميل ، فمرة ترتطم بالجدار وأخرى تتجاوز النجوم فى التحليق . شاعر الجوارله وردتان مرسومتان فى خديه . شاعر الجوار فى بعض المناسبات – عندما يكون فى لحظة الابداع – يغمى عليه فى المقاهى (١) ، فيحملونه إلى المرحاض ، حتى يفيق شيئا فشيئا على رائحة المطهر ، الذى يستقر فى حمالته الشبكية الاسلاك مثل طائر الجدجد .

وتحت رأس ثالوثة تأتى ناتى ، زميلة مارتين فى الكلية ، فتاة تمضى فى أنق وأبهى ثياب ، وربما اناقة ثيابها وبهاؤها مما يتجاوز الحد . ثم بعد ناتى تأتى مريم البارة التى ذهبت إلى الدير

---

(١) نتذكر هذا الشاب عندما ظهر فى الفصل الأول بمقهى روزا يكتب قصيدة عن المصير ، واغمى عليه ، وحملوه إلى الحمام .

مع اختيها الكبيرتين منذ قليل .

يغلق مسلسل الأبناء ثلاث مصائب : الثلاثة الأصغر : (نجيدة) وقد هربت مع صديق أخيها (باكو) : بارتولميه انقيرا ، وهو مصور بشارع لاس كانيوس ، حيث لا مناص لهما من التجمد ، ففى أقل الأيام توقعا ، يستيقظان متخثرين مثل مشروب مثلج . الفتاة تؤكد لصديقاتها أنها سعيدة ، وإن كل شىء تأخذه ببشر ما دامت بجانب بارتولو ، تساعده على انجاز عمله الفنى . وامر «العمل الفنى» تنطقه فى نبرة عظيمة وبحروف ضخمة ، فى نبرة حكام المعارض القومية .

– فى المعارض القومية (هكذا تقول نجيدة) لا توجد معايير ، ولا يعرفون إلى أين يسيرون . لكن على حد سواء ، عاجلا أو أجلا فليس أمامهم إلا وضع الغار على جبين حبيبى بارتولو .

فى البيت حدث انقباض بالغ الجدية عند رحيل نجيدة . .

– لو على الاقل (يردد اخوها باكو) رحلت بعيدا عن مدريد ! باكو عنده مفهوم جغرافى للشرف .

والاخرى ، ماريا الام ، بعد وقت قليل تفرغت لما كانت تحب : الغناء ، ووضعت لنفسها اسم كارمن الذهب . وقد فكرت فى اعطاء نفسها أسماء أخرى منها «المسبحة دوارة الهواء»

و «أمل غرناطة» ، لكن صديقا صحفيا قال لها أن لا ، وان الاسم الذى يناسبها هو كارمن الذهب . فى هذا كنا نمضى بينما الأم لا تأخذ وقتا كافيا للشفاء من ازمة ابنتها نجيدة .

ماريا الام حملت عصاها وذهبت مع رجل أعمال مصرفى إلى مرسية . رجل البنوك اسمه استانسلاو راميرس . الأم المسكينة صارت عجفاء حتى انها لم تكن تبكى .

والصغير خوان رامون خرج على الحلقة الهاربة ، وكان يقضي يومه ناظرا إلى المرآة ، داهنا وجهه «بكريمات» منعمة .

وحوالى السابعة ، يدخل مريضان العيادة ، دون فرنسيسكو يخرج إلى التليفون ، تقريبا لا يسمع ما يقول .

– هل ستكونين بالبيت .

– . . . من اجل هذا ، سأكون عندك فى التاسعة .

– . . .

– لا ، لا تنادى احدا (١) .

* * *

---

(١) نعرف ان هذه المكالمة كانت مع دونيا ثيليا صاحبة نزل مواعيد الاحبة ، وانها كانت بصدد طلب فتاة لمصاحبة دون فرنسيسكو ، لكنه رفض .

الصبية تبدو كما لو كانت فى غيبوبة ، ملامحها حالمة ، نظرتها ضالة فى الفضاء ، وفى الشفتين ابتسامة السعادة .

– انه طيب للغاية ، يا ماما . طيب جدا ، طيب جدا . امسك بيدى ونظر محدقا فى عينى .

– نعم ، اقترب منى كثيرا وقال : خوليتا ، قلبى يتضرم من الوجد . «خلاص» ! لا أستطيع العيش بدونك ، واذا انصرفت عنى ، فاننى سأفقد الهدف من وجودى ، وسأكون مثل جسم يطفو دون اتجاه تحت رحمة القدر .

دونيا بيسى تبتسم فى انفعال .

– تماما مثل ابيك ، يا ابنتى .

دونيا بيسى تدير نظرتها ، وتبقى متفكرة فى طوباوية ، حلوة ، وربما فى راحة الحزن إلى حد ما .

– طبعا . . الوقت يمر ، انك تجعليننى عجوزا ، يا خوليتا .

تبقى دونيا بيسى بعض الثوانى صامتة . بعد ذلك ترفع المنديل إلى عينيها ، وتجفف دمعتين اطلتا فى حياء .

– لكن يا ماما !

– ليس بشىء يا بنيتى ، العاطفة . التفكير فى انك ستكونين فى أحد الايام ملكا لرجل ! فلنسأل الله ان يقيض لك زوجا طيبا ،

وان تصيرى زوجة للرجل الذى يستحقك .

– نعم يا أماه .

– واعتنى بنفسك كثيرا . بحق الإله ! لا تثقى فيه أبدا ، اتوسل اليك . الرجال مخادعون ، ويشقون الطريق نحو مآربهم ، لا تثقى أبدا فى الكلمات المعسولة . لا تنسى ان الرجال يلهون بالفتيات المفرطات ، ويتزوجون من الفتيات المهذبات .

– نعم ، يا أماه .

– بالطبع ، نعم يا بنية . واحفظى ما حفظت لابيك على مدى ثلاثة وعشرين عاما . وانه الشيء الوحيد الذى نستطيع تقديمه إلى أزواجنا نحن النساء الشريفات والخاليات الوفاض من أى ثروة .

دونيا بيسى صارت بحرا من الدموع وخوليتا تحاول التسرية عنها .

* * *

فى المقهى تواصل دونيا روزا بسط التفاصيل امام الآنسة البيرا ، حول ان معدتها طليقة ، حتى انها قضت الليل ذهابا وايابا بين غرفتها ودورة المياه .

– أنا أظن ان شيئا قد خرج غير مناسب لى ، الأغذية احيانا تكون فى حالة الفساد ، واذا لم يكن الامر كذلك ، فانه يصبح ما

يحدث لى غير مفهوم .

– بالطبع ، الامر لابد ان يكون كما تقولين .

الآنسة البيرا – وهى كقطعة اثاث فى مقهى دونيا روزا – تعودت ان تقول على كل شىء : آمين . ونوال صداقة دونيا روزا عند الآنسة البيرا لهو امر ذو اهمية قصوى .

– وهل أحسست حضرتك بمغص ؟

– اجل ، يا بنية ! واى مغص ! لقد كانت بطنى مثل . صندوق الرعود . وأنا أظن اننى اكلت اكثر من اللازم فى العشاء ، والناس يقولون : «القبور ملآنة بسبب النوم ببطن أكثر من اللازم شبعانة» .

الآنسة البيرا تواصل دورها ، وتؤمن :

– نعم ، هذا ما يقولون ، الاكثار فى العشاء ليس فى صالح الهضم .

– وكيف يكون فى صالحه ؟ انه سيىء جدا .

دونيا روزا خفضت قليلا صوتها .

– وانت – البيرا – هل تنامين جيدا ؟

دونيا روزا مرة تعامل البيرا بكلفة ومرة أخرى بدون كلفة ،

حسب ما يخرج على لسانها .

- نعم من العادة عندى أن أنام جيدا .

دونيا روزا تستخرج استنتاجها بسرعة . . .

- ربما لانك تتناولين عشاء قليلا جدا .

الآنسة البيرا تبقى مترددة بعض الشيء .

- بالفعل نعم ، والحقيقة اننى فى كثير من الاحيان لا اتعشى ، أو بالاحرى أنا اتعشى بأقل من القليل .

دونيا روزا تستند على مسند الكرسى بقوة .

- الأمس - على سبيل المثال - ماذا تعشيت ؟

- عودين من السبانخ وشريحتين من السمك .

الآنسة البيرا كانت قد تعشت بما لا يزيد على بيزيتا واحدة من «ابو فروة» المشوى [1] ، ٢٠ حبة «ابو فروة» مشوية ، والحلو كان برتقالة واحدة .

---

(١) ابو فروة المشوى كان يباع على جميع نواصى الشوارع فى مدريد الاربعينات والناس المتنزهون يأكلونه للتسلية والتدفئة لكنه كان الغذاء الكامل للفقراء ، ولا زال حتى الآن يمثل معلما من المعالم مدريد لكن أقل جدا وفى الميادين المزدحمة بالمارة فقط .

– بالطبع ، هذا هو السر . يبدو لى ان امتلاء البطن ليس صحيا بأية حال من الاحوال .

الآنسة البيرا ترى عكس ذلك تماما لكن تكتم ما تعتقده .

* * *

دون بدرو بابلو تاوستى ، جار دون ابراهيم دى اوستولاثا ، وصاحب ورشة اصلاح الاحذية «عيادة الاحذية النسائية» ، رأى دون ريكاردو سوربيدو داخلا عليه فى دكانه ، وقد بدا عليه الكرب العظيم .

– مساء الخير ، دون بدرو . هل تسمح لى ؟

– تفضل دون ريكاردو . أى ريح طيبة حملتك إلى هنا ؟

دون ريكاردو سوربيدو ، بشعره المسترسل الطويل والمتشابك و«بتلفيعته» التى فقدت لونها والتفت حول رقبته باهمال ، وببذلته الممزقة والمشوهة والمليئة بالمصابيح ، ورباط عنقه المستعرض الليلى اللون الملىء بالخالات (١) ، وقبعته «المزيتة» الخضراء ذات الجناح العريض ، كان نموذجا غريبا ،

---

(١) يتحدث عن رباط عنق عبارة عن شريط عريض أسود يتدلى من العنق ويربط بخيط خاص ، وكان شعارا لا غنى عنه للبوهيميين ، الذين مثلوا ظاهرة حيذاك .

نصف شحاذ ونصف فنان ، يحيا حياة سيئة بفضل حب البقاء ، وسلامة النية ، وإحسان الآخرين .

دون بدرو بابلو يشعر تجاهه بأعجاب ذى نوع خاص ، ويعطيه بيزيتا واحدة بين الحين والحين . دون ريكاردو سوربيدو رجل صغير الحجم ، له جولات مليئة بالحيوية ، ولمحات عظيمة البلاغة والاحترام ، ويتكلم بدقة وتأمل ، حتى انه يبنى عبارته باهتمام موفق ، ويصقل رائق .

– ليست بهذا الحد من الطيب تلك الريح ، يا بدرو ، ايها الصديق ، فالمروءة تندر فى هذا العالم ، ولفرط ما بى من سوء جئت اليك .

دون بدرو بابلو اصبح خبيرا بطريقة بدء المشهد ، فهى دائما نفس الطريقة . دون ريكاردو كان يطلق النار مثل جنود المدفعية نحو الاعلى .

– تريد حضرتك بيزيتا ؟

– رغم اننى لا احتاجها ، يا صديقى النبيل ، فأنا أقبلها دائما حتى اتجاوب مع سلوكك كرجل من أعيان الرجال .

– يا سلام !

دون بدرو بابلو ، اخرج بيزيتا من الدرج ، واعطاها لدون

ريكاردو سوربيدو .

– وقليل . . .

– نعم ، دون بدرو ، انها قليل حقيقة ، لكن كرمك اثناء العطاء يشبه جوهرة ذات ألف قيراط .

– طيب لو كان الأمر كذلك !

دون ريكاردو سوربيدو كان صديقا بعض الشيء لمار ماركو ، واحيانا عندما يلتقيان يجلسان معا على احد المقاعد العامة فى الشارع ، ويشرعان فى الحديث عن الفن والادب .

دون ريكاردو سوربيدو كانت له خطيبة حتى عهد قريب ، وقد تركها بسبب التعب والملل . خطيبة دون ريكاردو سوربيدو كانت صعلوكة ، وجائعة ، وعاطفية ، واسمها كان : ماريبل بيريث . وعندما كان دون ريكاردو سوربيدو يشكو من السوء الذى يتحول اليه كل شىء كانت ماريبل تعزيه فى فلسفة .

– لا تتعجل (هكذا كانت تكلمه الخطيبة) ، فالعمدة كورك [١] قضى أكثر من شهر قبل ان يموت .

بالنسبة لماريبل كانت السعادة فى الازهار والاطفال

---

(١) ايرلندى انتحر بالموت جوعا فى سبيل استقلال ايرلندا ! دام اضرابه عن الطعام ٧٣ يوما ، داخل السجن .

والحيوانات ، كانت فتاة جيدة التربية والتعليم ، وذات تكوين رهيف . قالت يوما – اثناء التنزه فى ميدان التقدم – لخطيبها :

– أى ، هذا الطفل الاشقر ! اية حلوة !

اجابها دون ريكاردو سوربيدو :

– انه مثل الجميع ، طفل مثل الجميع . وعندما يكبر ، اذا لم يمت قبل ذلك ، سيصير موظفا بوزارة الزراعة ، أو طبيب أسنان أيضا . ومن المرجح ان يميل إلى الفن فيصير رساما أو مصارع ثيران ، وتكون لديه عقده الجنسية ، وكل شىء .

ماريبل لا تفهم جيدا ما يقوله لها خطيبها ، لكانت تقول لصديقاتها :

– هذا العم ، ريكاردو خطيبى ، مثقف جدا . يعرف كل شىء !

– سوف تتزوجان ؟

– نعم ، عندما نستطيع . اولا – حسب قوله – يجب أن يختبرنى ، لان حكاية الزواج يجب أن تكون «على السكين» مثل البطيخ . وأنا اعتقد ان كل الحق معه .

– من الممكن . اسمعى ، ماذا يعمل خطيبك ؟

– الامـر يا امـرأة ، لو كان قصدك بالعمل ما يقصدون بالعمل ، فهو لا يعمل شيئا ، لكن ليس مهما يوما سيجد أى شىء . حقيقى ؟

– نعم ، دائما هناك شىء يظهر .

والد ماريبل كان عنده محل بيع احزمة نسائية «كورسيه» . المحل متواضع ، يقع بشارع كوليخياتا . ومنذ سنوات تركه «بخلو رجل» لان زوجته ايولوخيا وضعته بين المطرقة والسندان ، حين رأت انه من الأفضل فتح بار مضيفات فى شارع الجمارك . بار ايولوخيا كان اسمه « الفردوس الارضى» ، وقد سار سيرا ممتازا حتى فقدت مالكته عقلها وهربت مع عازف «أرد» كان دائما يمشى سكران . كان دون براوليو والد ماريبل يقول :

– أى عار ! زوجتى متورطة مع هذا التعيس الذى سوف يقتلها من الجوع .

المسكين دون براوليو مات بعد ذلك بقليل بسبب التهاب رئوى ، وكانت جنازته ذات شعائر شديدة الانضباط فى الحداد والحزن ، بفضل باكو السردينة ، الذى كان يعاشر ايولوخيا فى قرية كرابانشيل السفلى .

– الحق ، اننا لسنا بشىء . ايه ؟ – كان السردينة يقول ذلك لاخ لدون براوليو كان قد جاء من استورجة ليحضر مراسم الدفن .

– الحياة هى التى تملك وتحكم . أليس كذلك يا حضرة ؟

أجابه دون برونو شقيق دون براوليو ، فى الاوتوبيس بطريق العودة نحو شرق البلاد .

– فعلا ، فعلا .

– نعم ، نعم ، هذا ما أعتقده ، ذلك الخاص : بتملك وتحكم .

– كان طيبا ذلك الشقيق ، شقيقك ، والذى هو الآن مع الامجاد السماوية .

– فعلا ، يا رجل . نعم ، فلو كان شريرا لسلخ لك جلدك .

– وهذا أيضا حقيقى .

– طبعا ، أيضا ! فالذى اقوله ان الانسان فى هذه الحياة يجب ان يكون متسامحا .

السردينة لم يجب . لكنه . من داخله كان يفكر فى ان دون برونو كان «مودرن» .

– بالفعل ، هذا ما أعتقده ، فذلك العم بحر من «المودرنيزم» ،

سواء أردنا أو لم نرد . فأى دليل عكس ذلك ؟

وبالنسبة لدون ريكاردو ، فان أحاديث الخطيبة لم تكن على درجة كافية من الاقتاع .

– نعم ، يا فتاة ، لكن جوع العمدة كورك لن يطعمنى ، اقسم لك على هذا .

– لكن ، لا تتعجل يا رجل ، ولا تضرب نفسك بالسياط ، فالأمر لا يستحق هذا العناء . فضلا عن ذلك فأنت تعرف ان الحال السيىء لا يمكن ان يدوم اكثر من مائة عام .

أثناء هذا الحوار ، دون ريكاردو سوربيدو ، وماريبل كانا ؛ مواجهة كوبين من النبيذ الابيض فى مطعم شعبى فى الشارع الكبير ، بالقرب من الحكومة المدنية (١) ، التى تستقر على الرصيف الآخر . ماريبل كان معها بيزيتا وقالت لدون ريكاردو :

– هيا لنتناول كوب حليب فى أى مكان .

– حسن . . لنذهب حيث تحبين .

الثنائى كان فى انتظار صديق لدون ريكاردو ، الصـ كان شاعرا ، وكان يدعوهما بعض الاحايين لشرب قهوة باللبن ،

(١) كانت توجد دائما حكومتان فى عصر فرانكو ، حكومة مدنية لتنفيذ القوانين العادية ، وحكومة عسكرية لتنفيذ الاحكام العسكرية .

وأيضا لتناول كعك سويسرى . صديق دون ريكاردو كان شابا يسمى رامون مايلو ، ولم يكن يسبح فى الرخاء لكنه ايضا لم يكن يعانى الجوع .

الرجل ، نظم اموره بحيث يمضى إلى الشارع ومعه بعض البيزيتات فى الجيب . الشاب يعيش فى شارع ابوداكا ، فوق دكان خردوات «ثالوثة» ومع ان اموره ليست بهذه الجودة مع ابيه الا انه لم يكن عليه ترك البيت . رامون مايلو كان رهيف الصحة ، ولو ترك بيتهم لكلفه ذلك حياته .

- اسمع ، هل تعتقد انه قادم ؟

- نعم يا امرأة ، رامون شاب جاد ، مع انه يعيش فى القمر إلى حد ما . لكنه أيضا جاد وسوف ترين انه سيأتى .

دون ريكاردو سوربيدو ، شرب رشفة ، ودخل فى التأمل .

- اسمعى ماريبل ، ما طعم ذلك الذى نشربه ؟

- لا أدرى . ولكنه يشبه النبيذ ، أيها الفتى .

دون ريكاردو احس لبعض الثوانى بتقزز شديد من خطيبته ، وفكر محدثا نفسه :

- هذه الفتاة تشبه القبَّرة .

ماريبل لم تدرك ما احسه خطيبها تجاهها . المسكينة - تقريبا - لا تدرك شيئا .

- انظر ، أى قط وسيم . هذا ، نعم ، قط سعيد . حقيقى ؟

القط - قط اسود لامع ، جيد المطعم ، ناعم النوم - كان يمر صبورا ، وحكيما مثل رئيس رهبان ، حول افريز عمود مزخرف ، عمود قديم ونبيل له افريز بعرض اربع اصابع .

- بالنسبة لى هذا النبيذ له مذاق الشاى ، فله نفس طعم الشاى .

على «النصبة» يتحلق بعض سائقى التاكسى ، وفى ايديهم كؤووسهم .

- انظر ، انظر ! من المدهش ألا يسقط ذلك القط !

فى ركن ، كان ثنائى : رجل ، امرأة ، يحب كل منهما الآخر فى صمت ، يد فوق يد ، ونظر ثاقب فى النظر الآخر .

- أنا اعتقد ، ان «الكرش» الفارغ يجعل كل الاشياء لها طعم الشاى .

تجول بين الموائد اعمى يغنى اغنية الاربعين المتساوين .

- أى شعر أسود جميل !

* * *

من الشارع كلما فتح باب المطعم ، تدخل ريح صرصر مختلطة بضجيج الترام ، مما يزيد الريح برودة .

– طعم شاى بغير سكر ، الشاى الذى يتناوله من يعانون من آلام البطن .

التليفون بدأ يدق فى صخب .

– انه قط شديد التوازن ، قط بامكانه العمل بسيرك . الصبى العامل على «النصبة» ، مسح يده بمنديل مخطط اخضر واسود ثم علق التليفون .

– شاى بغير سكر ، يصلح للتطهر به بعد الغائط ، اكثر من صلاحيته لان يهضم .

صبى النصبة علق السماعة وصرخ :

– دون ريكاردو سوربيدو .

– دون ريكاردو اشار اليه بيده .

– ايه ؟

– هل حضرتك دون ريكاردو سوربيدو .

– نعم ، من طرف رامون ، لن يستطيع الحضور لمرض امه .

* * *

في مخبز سان برناردو ، في الغرفة الصغيرة لاجراء الحسابات ، السنيور رامون يتكلم مع زوجته ، باولينا ، ومع دون روبرتو جونثالث ، الذى عاد فى اليوم التالى شاكرا على الخمسة دورو التى اعطاها له السنيور صاحب المخبز ، وحتى ينهى بعض الامور ويترك الغرفة منظمة .

الزوجان ودون روبرتو يثرثرون حول مدفأة نشارة تعطى حرارة كافية . وفوق المدفأة توجد علبة «**تونا**» فارغة بها أوراق لاوريل عطرية .

دون روبرتو كان يومه سعيدا ، وكان يحكى «النكات» حول الخبازين .

– وهنا يذهب النحيف ، ويقول للسميق حضرتك خنزير، والسمين يلتفت ويجيبه : اسمع ، اسمع ، قل لى ، وهل تعتقد حضرتك اننى ابث هذه الرائحة دائما هكذا ؟

زوجة السنيور رامون ميتة من الضحك ، حتى ان «الزعطه» بدأت تهاجمها فى صياح ، فغطت عينيها بيديها .

– اسكت ! اسكت ! بحق الاله !

دون روبرتو يريد أن يدعم نجاحه .

– وكل هذا كان فى مصعد !

المرأة تبكى ، اثناء قهقهات عالية ، وتستلقى إلى الخلف على مقعدها .

– اسكت ! اسكت !

دون روبرتو يضحك أيضا .

– النحيف كان له وجه عدوانى !

السنيور رامون ، بيدين متصلبتين فوق كرشه ، والسيجارة المحترقة بين شفتيه ، ينظر إلى دون روبرتو ، وإلى باولينا .

– دون روبرتو هذا ، له أشياء عندما يكون حسن المزاج . دون روبرتو لا يعرف التعب .

– وايضا لدى نكتة أخرى جاهزة .

– اسكت ! اسكت ! بحق الاله !

– طيب ، طيب ، سأنتظر حتى تهدأى ، لست متعجلا .

السيدة باولينا ، ضاربة عضلاتها المشدودة بكفى يديها ، ما زالت تتذكر بشاعة الرائحة التى كان ينفثها السيد «السمين» .

كان مريضا ، وبدون ريال واحد فى جيبه ، لكنه انتحر لانه كانت له رائحة «صنة» البصل .

– انى أشم رائحة «صنة» البصل المقرفة ، رائحة مرعبة

«صنة» البصل تلك .

– أسكت يا رجل ، أنا ليست لى أية رائحة. هل تحب ان نفتح النافذة .

– لا ، عندى يتساوى . الرائحة لن تذهب ، انها الجدران التى تنفث رائحة «صنة» البصل ، ويداى هما الحاملتان لرائحة البصل .

المرأة كانت أية فى الصبر .

– تحب ان تغسل يديك ؟

لا ، لا أحب ، فقلبى ايضا له رائحة البصل .

– اهدأ .

– لا أستطيع . انها رائحة البصل تأتى من كل مكان .

– دعكَ من هذا . حاول النوم قليلا .

– ما كنت استطيع . كل شىء ينفث الصنة البصلية .

– تحب كوبا من اللبن ؟

– لا أحب كوبا من اللبن . احب أن أموت ، لا شىء أقل من ان أموت ، أموت بأسرع ما يمكن . كل لحظة تزداد رائحة البصل .

– لا تقل ترهات .

– اقول ما أريد . تزداد رائحة البصل .

– طيب ، يا رجل ، طيب ، المكان له رائحة البصل .

– طبعا رائحة البصل تحيط بنا . أى وباء !

المرأة فتحت النافذة . الرجل بعيون مليئة بالدموع بدأ يصرخ .

– اقفلى النافذة ! لا أحب ان تخرج رائحة البصل .

– كما تحب .

المرأة اغلقت النافذة .

– اريد ماء فى فنجان ، فى كوب ، لا .

المرأة ذهبت إلى المطبخ ، كى تعد له «فنجان» ماء . بينما كانت المرأة تغسل الفنجان ، سمعت صراخا جحيميا ، كما لو كان رجل مزقوا له رئتيه فجأة .

ارتطام الرجل ببلاط البهو لم تسمعه المرأة . بدلا من ذلك احست بألم فى صدغيها ، ألم بارد وحاد مثل وخز بإبرة طويلة جدا .

صرخة المرأة خرجت من النافذة المفتوحة ، لم يجاوبها أحد ،

السرير كان خاليا .

بعض الجيران اطلوا من نوافذ البهو .

– ماذا يحدث ؟

المرأة لم تستطع الكلام . ولو كانت تستطيع لقالت :

– لا شيء غير انه هناك قليل من رائحة البصل .

* * *

سيواني ، قبل ان يذهب لعزف الفيولين فى مقهى دونيا روزا ، يدخل محل نظارات . الرجل يريد ان يعرف تكاليف النظارة القاتمة ، فنظر زوجته كل يوم فى تراجع .

– انظر حضرتك إلى هذا الكريستال «ذيس» ، انه خيالى ، بمائتين وخمسين بيزيتا .

سيوانى يبتسم فى ود .

– لا ، لا . أريد نظارة ارخص .

– حسن جدا ، يا سيدى . هذا «الموديل» ربما يعجبك ، مائة خمسة وسبعون بيزيتا .

سيوانى لا تغادره الابتسامة .

– لا ، فأنا لم أوضح نفسى جيدا ، أريد نظارة بحوالى ثلاثة أو

أربعة دورو .

البائع ينظر اليه فى احتقار عميق . يرتدى عباءة بيضاء وعدسات مثيرة للسخرية ، وفارق شعره ، وتتحرك أردافه عند السير .

- هذه النظارة تجدها فى محل بقالة . أسف لعدم قدرتى على خدمتك .

- طيب . وداعا ، واعذرنى .

بعضهن اكثر «ألمعية» يتغرغن لابراز الصور الفوتوغرافية بعد أخذها ، أيضا لديهن فى «الفترينات» نظارات ملونة .

- هل عندكن نظارات بثلاثة دورو ؟

البائعة فتاة حلوة ولذيذة .

- نعم يا سيدى لكننى لا انصحك بشرائها ، انها قابلة للكسر جدا . بدفع القليل اكثر ، يمكن ان نقدم لك »موديلا« ممتازا .

الفتاة تقلب فى أدراج «النصبة» وتستخرج بعض «الصوانى» .

انظر ! خمسة وعشرون بيزيتا ، اثنتان وعشرون ، ثلاثون ،

خمسون ، ثمانية عشرة (اما هذه فهى اسوأ قليلا !) ، سبعة وعشرون .

– تلك ذات الثمانية عشرة ، تقولين حضرتك انها سيئة .

سيوانى يعلم انه ليس فى جيبه اكثر من خمس عشرة ، ان كل نقوده هى ثلاثة دورو .

– نعم ، فهى لا تعوض ما ستوفره بشرائها . النظارة ذات الاثنين والعشرين هى شىء آخر .

سيوانى يبتسم للفتاة .

– حسنا يا آنسة شكرا كبيرا ، سأفكر وأعود إلى هنا . آسف لازعاجك .

– بحق الإله ايها الفارس ، من اجل هذا نحن هنا .

* * *

خوليتا ، فى اعماقها ، كان ضميرها يؤنبها بعض التأنيب . الامسيات فى منزل دونيا ثيليا صارت فى زمن قصير بالنسبة لها مثل وشى من كل أنواع المنكرات .

لكن ذلك يمر بها للحظة ، ولحظة أليمة ، ثم حالا تعود إلى كينونتها . والدموع التى تسقط منحدرة إلى أسفل الخد من

الممكن ايقافها .

الصبية تضع نفسها فى غرفتها ، وتسحب من احد الادراج دفترا مبطنا «بالمشمع» ، حيث توجد حكايات غريبة . تبحث عن قلم ، وتسجل بعض الارقام ، وتبتسم امام المرآة : الفم مقطب ، والعيون مسبلة ، واليدان حول الرقبة .

جميلة خوليتا ، جميلة جدا ، بينما كانت تغمز بعينها للمرآة .

– اليوم وصل بنتورا للتعادل .

خوليا تبتسم بينما ترتعد شفتها السفلى ، وحتى ذقنها كانت ترتعش ارتعاشه خفيفة .

– الحقيقة اننى اسير فى طريق . .

وعند ايلاجها المفتاح المزين بشريط معقود على هيئة وردة ، تفكر فى اشفاق :

– بنتورا هذا لا يشبع .

ومع ذلك ، عند خروجها من الغرفة – وتلك هى امور الحياة !
– رذاذ من التفاؤل يروى روحها .

– انه صاحب مزاج ذلك القطالونى المزعج !

* * *

مارتين يودع ناتى روبلس ، ويذهب نحو المقهى ، حيث طرد بالامس بسبب عدم دفع الحساب ،.

– بقى معى ثمانية دوروات وبعض البيزيتات (هكذا كان يفكر) ، ولا اعتقد انها سرقة ان اشترى بعض السجائر ، واذهب لاعطاء درس لتلك الخالة المقززة صاحبة المقهى . ويمكن ان اهدى لناتى لوحتين «حفر» فى حدود خمسة أو ستة دورو .

يركب الترام ١٧ ، ويقترب من ميدان بلباو . فى مرآة محل حلاقة يعدل من شعره ، ويقيم عقدة رباط العنق .

– اعتقد اننى وسيم جدا . . .

مارتين يدخل المقهى من نفس الباب الذى منه بالامس خرج ، ويود ان يخدمه نفس الجرسون وان يجلس على نفس المائدة لو امكن .

الجو فى المقهى كثيف الحرارة . . الموسيقيون يعزفون تانجو ، يمثل لمارتين ذكريات غامضة ، بعيدة حلوة . المالكة تصيح وسط لا مبالاة الآخرين ، تاركة ذراعيها يرتفعان ثم يسقطان بتثاقل وبأسلوب مدروس فوق كرشها . مارتين يجلس على مائدة مجاورة لمائدة مشهد طرده بالامس . الجرسون يقترب منه .

- اليوم مسعورة ، ولو رأتك ستبدأ فى الرفس .

- انها هناك . خذ دورو ، واحضر لى كوب قهوة . عشرون سنتا لحساب الامس ، وعشرون لليوم ، يصير المجموع اربعين وابق انت الباقى لك . لست ممن يموتون من الجوع .

امتلأ الجرسون بالخجل ، وبدا وجهه اقرب إلى البلاهة منه إلى صورته المعتادة . وقبل ان يبتعد كثيرا ناداه مارتين مرة اخرى .

- ليحضر الليمبيا .

- حاضر !

مارتين يلح فى اوامره .

- وبائع السجائر .

- حاضر !

كان على مارتين ان يبذل مجهودا عظيما ، فرأسه يؤلمه قليلا ، لكنه لا يجرؤ على طلب حبة اسبرين . .

دونيا روزا تتحدث مع بيبى ، ومع الجرسون ، فى حالة من الذهول . الحديث عن مارتين . مارتين يتصنع انه لا يرى شيئا .

يقدمون له القهوة . يحتسى رشفتين . ينهض نحو الحمام . بعد ذلك لا يعرف هل (عندما ذهب هناك) سحب المنديل من

جيبه التى بها النقود ام لا .

عند العودة صرف دورو كاملا لتنظيف حذائه ولشراء علبة سجائر تسعين .

– تلك النفاية التى تشربها المالكة ، (هل تدرى ؟) عبارة عن «مولت» شعير كريه .

قام غاضبا ، تقريبا فى وقار ، واخذ طريقه نحو الباب فى ايماءات بالغة الرصانة .

فى الشارع فقط أحس مارتين ان جسمه كله يرتعد . لقد نجحت خطته ، واخيرا ها هو ذا يتصرف كرجل .

* * *

بنتورا اقوادو سانس يقول لزميله فى البنسيون ، دون تسيفونتى الغنام النقيب البيطرى .

– للأسف ، يا نقيبى ، فأنت تخدع نفسك . فى مدريد الشىء الفائض عن الحاجة هو النساء . والآن ، بعد الحرب الاهلية ، التى هى افضل أو التى هى ادنى تبذل ما تستطيع من اجل رجل . المسألة هى ان يتفرغ لهن احد الفئران فى رابعة النهار . لا يمكن صيد «البلطى» دون ان تبتل الثياب .

– حسن . حسن . . ! سأبدأ فى العمل .

– طبيعى ، يا رجل ، طبيعى . كيف تتصور انك يمكن ان تلهو دون بذل جهد من جانبك ؟ النساء – ولا تقل لاحد – لن يأتين للبحث عنك . نحن هنا – وحتى الآن – لسنا مثل بلاد أخرى .

– نعم ، هذا . . نعم .

– اذن ؟ لابد من «البحلقة» يا نقيبى ، لابد من الهجوم ، والجرأة ، الجرأة الشديدة . وقبل كل شىء لا ينبغى الاحباط بسبب تكرر الفشل . وماذا يعنى الفشل ؟ طيب ، وماذا فى النهاية ؛ ستكون هناك امرأة فى الانتظار .

* * *

دون روكى يبعث باشعار إلى لولا ، خادمة المعانة اجتماعيا : دونيا ماتيلدى . مرى بشارع القديسة انقراسيا فى الثامنة ، عزيزك ر .

اخت لولا ، خوسيفا لوبث ، ظلت خادمة فى منزل دونيا وحيدة كاسترو دى روبلس لاعوام مديدة . من وقت لآخر ، كانت تقول انها ذاهبة لقريتها ، وكانت تضع نفسها فى مستشفى الامومة الخيرى لقضاء عدة ايام . بلغ بها الامر ان انجبت خمسة ابناء ، كانت الراهبات يقمن برعايتهم لها من باب

الصدقة . الراهبات كن أويات فى دير شمارتين الوردة ، والابناء : ثلاثة من دون روكى ، الثلاثة الكبار ، وواحد من الابن الاكبر لدون فرنسيسكو ، والاخير من دون فرنسيسكو نفسه ، الذى تأخر فى التعرف على ابنه . ابوة كل واحد منهم لم تكن تقبل أى شك .

– لأكن من أكون – تعودت خوسينا القول – ، لكن من يعجبنى لن اهديه قرونا . وعندما تضيق الواحدة تولى الفرار وفى سلام ، لكن مادامت هى فى علاقة ، فمثل الحمام : إلف لكل أليفة .

خوسيفا كانت امرأة حسناء ، وبعض الشىء عظيمة الهيكل . والآن عندها بنسيون للطلبة فى شارع اتوتشا ، وتعيش مع ابنائها الخمسة . ألسنة الجيران الخسيسة تقول ان لها علاقة بمحصل فواتير الغاز ، وانها اجبرت صبى البقال على ان يحمر وجهه خجلا . الصبى عمره اربعة عشر عاما . ووجه اليقين فى ذلك من المستحيل اثباته .

اختها لولا اكثر شبابا لكن أيضا ضخمة الهيكل ، عظيمة الصدر . دون روكى يشترى لها اساور مكللة بالجواهر التقليد ، ويدعوها لأكل بعض الحلويات ، وهى بذلك مسحورة . وهى اقل امانة من خوسيفا ، ومن الظاهر انها تنتقل بين ديك وديك آخر . فى احد الايام ضبطتها دونيا ماتيلدى نائمة مع بنتورا ،

لكنها فضلت ألا تقول شيئا .

- الصبية تسلمت وريقة دون روكى ، وتزينت ، وتوجهت إلى نزل دونيا ثيليا .

- ألم يحضر ؟

- حتى الآن ، لا . تعالى من هنا .

لولا تدخل الغرفة ، وتتعرى وتجلس على السرير . تود أن تقدم مفاجأة لدون روكى ، مفاجأة ان تفتح له الباب بفرو حى .

دونيا ثيليا تنظر من ثقب المفتاح ، فهى تهيم بمنظر الفتيات يتعرين . واحيانا عندما تحس بالتهاب الحرارة فى وجهها تستدعى «لولو» الذى تملكه .

- كليبى العزيز، كليب ! تعال وانظر إلى سيدتك ! بنتورا يفتح قليلا بابا للغرفة التى يشغلها .

- سيدتى !

- حاضر !

بنتورا يضع فى يد دونيا ثيليا ثلاثة دورو .

- من فضلك ، فلتخرج الآنسة اولا .

دونيا ثيليا خير من يقول آمين .

- حضرتك تأمر .

بنتورا يتوجه إلى غرفة ملابس لقتل الوقت ، ويشعل سيجارة اثناء ابتعاد الصبية . الخطيبة تخرج ناظرة نحو الارض ، هابطة السلم .

– مع السلامة يا ابنتى .

– مع السلامة .

دونيا ثيليا بأطراف اصابعها ترسم اشارة فى الغرفة التى تنتظر بها لولا .

– هل تحبين الانتقال إلى الغرفة الكبيرة ، فقد تم اخلاؤها .

– حسن . . .

خوليتا ، عند وصولها إلى «بسطة» سلم الدور الارضى تلتقى مع دون روكى .

– اهلا ، يا ابنتى ! من اين تأتين ؟

خوليتا متهالكة :

– من . . . معمل التصوير ، وانت أين تذهب ؟

– المسألة . . لرؤية صديق مريض . المسكين حالته خطيرة .

الابنة يكلفها غاليا التفكير فى ان اباها يتوجه لبيت دونيا ثيليا ، والاب كذلك ، فيفكر .

– لا ، أية بلاهة ! من يخطر بباله ذلك ؟

والصبية تفكر :

– هل صحيح حكاية الصديق ؟ ابى له حياته ، لكن سيكون فظيعا ان يتورط فى هذا .

عندما يريد بنتورا الانصراف ، توقفه دونيا ثيليا .

– يطرقون الباب ، انتظر لحظة .

دون روكى يصل شاحب اللون بعض الشىء .

– اهلا ، وصلت لولا ؟

– نعم ، انها منتظرة فى الغرفة امامك .

دون روكى يطرق طرقتين خفيفتين على الباب .

– من ؟

– أنا

– ادخل .

* * *

بنتورا اقوادو يواصل حديثه البليغ تقريبا مع النقيب .

– اسمع حضرتك ، انا الآن لى شجون مع صبية قد تم

ترتيبها جيدا ،واسمها لا يعنينا فى شئ ، المهم اننى عندما رأيتها لأول مرة فكرت : مع هذه لا شىء ممكن . اتجهت اليها من اجل ذلك الذى يقال من انه لا ينبغى ترك الامر معها . . يمر دون محاولة ، وقلت لها ثلاثة اشياء ، ودفعت لها ثمن اثنين فيرموت وطبق من الجمبرى ، والان املكها مثل نعجة صغيرة . تصنع ما أريد ، ولا تجرؤ على رفع صوتها . رأيتها فى أحد البارات فى أغسطس الماضى . وفى اقل من اسبوع عند عيد ميلادى ، حملتها إلى السرير ، ثاس ! ولو بقيت بليدا اشهد غيرى يغازلها ، او يغزوها ، لاصبحت فى تلك الساعة مثلك .

– نعم هذا جيد جدا ، لكن يخطر ببالى ان الامر ليس اكثر من مجرد حظ .

قفز بنتورا فى مقعده .

– حظ ؟ هنا مكمن الفرس ! الحظ غير موجود ايها الصديق ، فالحظ مثل النساء يستسلم لمن يطارده ، وليس لمن يراهن يعبرن الشارع دون ان يقول لهن كلمة . وبالطبع ، المستحيل هو البقاء هنا محزونا طوال اليوم ناظرا إلى مهد هذا الطفل المعلق على الحائط ، ودارسا امراض الابقار . والذى اقوله انك هكذا لن تصل إلى شىء .

سيوانى يضع الفيولين فوق البيانو . انتهى من عزف تانجو الكومبارس الصغيرة . يتحدث مع زميله الموسيقى مكاريو .

- سأذهب إلى الحمام لحظة .

سيوانى يسير بين الموائد . وفى رأسه ما زال يدور امر أسعار النظارات !

- حقيقى ، المسألة تستحق عناء الانتظار بعض الوقت . النظارات ذات الاثنين والعشرين ، ممتازة على ما يبدو لى .

يدفع برجله الباب حيث يقرأ : رجال - قصريتان . ملتصقتان بالحائط ، ومصباح ضعيف خمس عشرة شمعة ، محمى بشبكة من السلك ، يبدو فى قفصه مثل طائر الزيز ، ثم قرص مطهر يسيطر على المشهد .

سيوانى كان وحده فى الحمام ، يقترب من الحائط ، ينظر إلى الارض .

- ايه ؟

يتوقف اللعاب فى حنجرته ، وينبثق من قلبه صوت انفجار طويل الامد يصم اذنيه . سيوانى ينظر فى الارض فى تحديق اقصى ، الباب مغلق . سيوانى ينحنى متعجلا . نعم ، انها خمسة دورو . انها مبلولة قليلا ، لكن لا يهم . سيوانى يجفف ورقة

البنكنوت بمنديل .

فى اليوم التالى عاد إلى الدكان .

– النظارة ذات الثلاثين بيزيتا ، يا آنسة ، ذات الثلاثين .

* * *

جالسان على الكنبة ، دون روكى ولولا ، يثرثران . دون روكى يالمعطف والقبعة فوق ركبتيه . لولا عارية ورجلاها متصالبتان . فى الغرفة تتضرم مدفأة تعمل بغليان الماء ، حتى ان المكان دافىء اطيب الدفء ، وعلى مرآة الدولاب تنعكس صورة الاشياء ، وهناك ثنائى واضح الغرابة : دون روكى بتلفيعته ووجه المنشغل ، ولولا فى ثوبها الذى ولدتها به أمها ، وبمزاج متعكر .

دون روكى صامت .

– هل هذا كل شىء .

لولا تهرش بعض مواضع جسمها ، ثم تشم اصبعها .

– هل تعرف ما أقول لك ؟

– ماذا ؟

– ان ابنتك وأنا لا نفعل ما يجعل احدا يرجمنا بحجر أو يجعلنا نخجل . نحن الاثنين . كل منا مرآة للاخرى .

دون روكى يصيح :

– اسكتى ، اقول لك : اخرسى .

– اذا ، اخرس .

الاثنان يدخنان ، لولا ، سمينة ، عارية تنفخ الدخان مثل عجل بحر فى سيرك .

– أمر صورة ابنتك مثل قصة صديقك المريض ، لن يكشف احد عن الصورة بمحلول البرمنجات .

– هل تحبين ان تصمتى .

– هيا يا رجل ! هيا ، كفى صمتا وثقل دم . كما لو كنت بلا عيون فى الوجه !

وأنتم يا سادة يا قراء تعرفون ما قلنا فى موضع آخر : «يطل دون عبد الله من اطار مذهب بماء الذهب الصناعى ، وقد برز شاربه مفتولا ، ونظرته ذات حلاوة ، ليشبه شيطانا او الها صغيرا للحب ، والعمل الارهابى كى يحمى هذه الغرفة متيحا الفرصة لإلتهام أرملته» .

دون عبد الله ، كان على يمين الدولاب ، خلف رف للأصص . على اليسار صورة للمالكة معلقة ، شابة وحولها الكلاب اللولو .

– هيا ارتدى ملابسك ، فلا أصلح لشىء .

– طيب .

لولا تفكر .

– ابنته سوف تدفع لى . ما دام الله موجودا !

ما أروع لو تعوضنى البنية !

دون روكى يسألها :

– هل تخرجين انت اولا ؟

– لا ، اخرج انت اثناء قيامى بارتداء ملابسى .

دون روكى يذهب ، ولولا تقفل الباب بالمزلاج . وتفكر .

– فى مكانه هناك ، لن يلاحظ احد ما حدث .

تنزل صورة دون عبد الله من على الحائط ، وتحفظه فى حقيبتها . تهذب شعرها قليلا ، امام الحوض ، ثم تشعل سيجارة تريتون وتدق الجرس .

* * *

النقيب تيسيفونتى يبدو عليه رد فعل ايجابى .

– طيب . . . فلنجرب الحظ . . .

- لا . . . لا اصدق .

- نعم يا رجل . سوف ترى . فى أى يوم تخرج للصعلكة نادنى ، وسنذهب معا .

- نعم يا سيدى . فى اول يوم افعل سأعلمك .

* * *

بائع الخردوات المسمى سنيور خوسيه سانسى مدريد ، كان لديه محلان لبيع الملابس المستعملة وشرائها ، بجانب اشياء الفن ، حيث تؤجر البدل «سموكنج» للطلاب ، وثياب الفرح للعرسان الفقراء .

- ضعى نفسك هناك ، وجربى ما شئت ، وستجدين ما يوافق ذوقك ومقاسك .

بالفعل ، يوجد ما يوافق ذوق ومقاس كل من يختار : مئات من الملابس الحريمى وبدل الرجال ، فى انتظار الزبون الذى يخرجها لتتنسم الهواء .

المحلان ، أحدهما فى شارع الدراسات ، والآخر ، الاكثر اهمية فى شارع ماجدولين ، تقريبا فى منتصفه .

السنيور خوسيه ، بعد وجبة العصارى ، يحمل بوريتا إلى السينما ، فهى تفضل اخذ نصيبها من النزهة قبل الذهاب إلى

السرير . يذهبان إلى سينما ايديال المواجهة للكالديرون ، حيث يعرض فيلم «أخوه وهو» بطولة انتونيو بيكو ، بجانب فيلم «تعقيدات عائلة» بطولة مرسيدس الجار» [١] ، حيث إن العملين قد تم مرورهما على الرقابة . سينما ايديال لها ميزة انها تقدم العرض المستمر ، ومن ثم فالمكان متسع ، ودائما هناك مقعد .

عامل السينما ببطاريته يضيء لهما الطريق نحو مقعدين .

– أين .

– ليكن هنا . هنا يناسبنا جيدا .

بوريتا والسنيور خوسيه يجلسان فى آخر صف ، السنيور خوسيه يجعل يده تمر حول رقبة الفتاة .

– ماذا تقص عليّ ؟

– لا شيء . ها أنت ذى ترين !

بوريتا تنظر نحو الشاشة . السنيور خوسيه يمسك بيديها .

– انك بردانة .

---

(١) افلام سنمائية مشهورة فى الثلاثينات ، ونذكر ان عامة الناس (فى الفصل الثانى) ينسبون الافلام للممثل الاول بينما المثقفون ينسبونها للمخرج . وهذا يعنى ان دون خوسيه وبوريتا فى حى شعبى ، وانهما بلا ثقافة .

– نعم ، فالجو شديد البرودة .

يمضيان بعض اللحظات فى صمت . السنيور خوسيه لم ينته من الجلوس على راحته ، فيتحرك باستمرار فى كرسيه .

– اسمعى .

– ماذا؟

– فيم تفكرين .

– ابشه . . .

– لا تشغلى بالك بهذا ، فموضوع باكيتو سأحله لك ، عندى صديق صاحب امر ونهى فى المعونة الاجتماعية ، فهو ابن عم الحاكم المدنى لشىء لا أعرفه (١) .

– وهل تعتقد ان باكيتو يمكن ان يدخل ؟

– إمرأة ! انا اعتقد انه ممكن ، وبأقل جهد من صديقى سيدخل .

– وهل سيقبل صديقك بذل هذا الجهد .

– صديقى يفعل ما آمره ، فهو يدين لى بالكثير .

---

(١) أشارة ساخرة لكثرة الحكام من مدنيين وعسكريين لكل مدينة وقرية واقليم . الخ .

– ان شاء يارب ! ربنا يسمع منك !

– سوف ترين ان الله سيستجيب لك .

الصبية تفكر ، نظرتها حزينة ، وشاردة .

– لو دخل باكيتو دار الرعاية الاجتماعية سيكون للحياة طعم آخر .

باكيتو هو الاخ الاصغر للفتاة . انهم خمسة اخوة وهى سادستهم : رامون الاكبر وعنده اثنان وعشرون عاما يؤدى الخدمة العسكرية فى افريقيا ، ثم ماريانا . . ، المسكينة مريضة ، ولا تستطيع التحرك من مقعدها ، عندها ثمانية عشر عاما ، ثم خوليو ويعمل (صبيا) فى مطبعة ويقترب من الرابعة عشرة ، روزيتا عندها أحد عشر عاما ، اخيرا باكيتو اصغرهم ، تسع سنوات . بوريتا هى الثانية وعندها عشرون عاما ، وربما تمثل شيئا اكبر من ذلك .

الاخوة يعيشون وحدهم . الاب اعدموه رميا بالرصاص بسبب تلك الاشياء التى تجرى والام قضت نحبها مسلولة ، وميته من الجوع ، عند حلول عام ٤١ .

خوليو يعطونه اربعة بيزيتا يوميا فى المطبعة . وباقى الاحتياجات على بوريتا كسبها بالعرق والدموع ، متصعلكة فى

الشوارع نهارا ثم ترسو بعد العشاء فى بيت دونيا خيسوسا .

الصغار يعيشون على السطوح بشارع البقرة . بوريتا تعيش فى بنسيون هكذا تنال حرية اكبر ، وتستطيع ان تستقبل رسائل بالتليفون . بوريتا تذهب لزيارتهم كل صباح الثانية عشرة أو الواحدة . احيانا ، عندما تكون خالية من الارتباطات ، فانها تتناول الغداء معهم ايضا ، فى البنسيون يحتفظون لها بوجباتها للتتناولها عند عودتها لو شاءت .

– هل تحب ان نمشى ؟

– لو تحبين ؟

سنيور خوسيه يساعد بوريتا على ارتداء المعطف القطنى .

على باب الغرفة الثنائى يودع كل منهما الآخر .

– اسمع ما اسمك ؟

– اسمى خوسيه سانس مدريد ، وأنت ؟ هل حقيقى ان اسمك بوريتا ؟

– نعم ، ولماذا كان على ان اكذبك القول ؟

اسمى بورا بارتولومى الونسو .

يبقى كلاهما قليلا ينظر إلى السقف الزجاجى .

– طيب . أنا (ماشى) !

– مع السلامة ببى . الا تمنحنى قبلة ؟

– نعم يا امرأة .

– اسمع عندما تعرف شيئا عن باكيتو ، ستكلمنى .

– نعم لا تنشغلى ، سأكلمك بهذا التليفون .

* * *

دونيا ماتيلدى تذكر اسماء نزلائها بصوت عال .

– دون تيسى ! دون بنتورا ! العشاء !

وعندما تقابل دون تيسيفونتى تقول له :

– من اجل الغد ، امرت بكبد ، هيا عبر عن سعادتك !

النقيب ، لا يكلف نفسه مشقة النظر اليها ، ويمضى مفكرا فى أشياء أخرى .

– نعم ، من الممكن ان يكون هذا الفتى على حق . بقائى هنا مستبلها ، فغزوات قليلة تكون فى مكتبى ، هذا هو الحق .

* * *

سرقوا حقيبة دونيا مونت سرات فى المصلى . أية بربرية !

الآن يوجد لصوص حتى فى الكنيسة ! لم يكن بالحقيبة أكثر من ثلاثة بيزيتات وبعض السنتات ، لكن الحقيبة نفسها كانت حتى الآن بحالة جيدة وما زالت صالحة لاستعمال طويل .

عندما حدث ذلك ، كان قد بدأ منذ وقت الترتيل المدندن – الذى كان يقوم به ابن اخت دونيا مونت سرات ، شماس كنيسة خوسيه ماريا الخامل على موسيقى النشيد الوطنى الالمانى ، وفى المقاعد لم يكن هناك الا بعض السيدات المتفرغات لعباداتهن الشخصية ، مما جعلهن يؤجلن انصرافهن .

دونيا مونت سرات كانت تفكر متأملة فيما انتهت من قراءته فى كتاب الادعية المقدسة لمؤلفه الاب مانخون : هذا الاسبوع يرفع للقديس لويس جونثاغا ، الذى يهدى الروح عبق السوسن ، وايضا الطعم الحلو للدموع الناجمة عن التوبة الكاملة . فى البراءة . كان لويس ملاكا فى التوبة يفاخر بالزهد مثل كهنة طيبة مصر العليا . سانتا ماريا ماجدولينا دى بازريس (١) خلال غيبوبة التجلى التى أظهر فيها مجد جونثاغا فى الفردوس ، صاحت فى فزع :

دونيا مونت سرات اديرى رأسك قليلا ، وكانت الحقيبة قد

---

(١) يشير لتمثال هذه القديسة فى الكنيسة وكأنه تحرك وكلم دونيا مونت سرات .

تبخرت .

فى البداية لم تلتفت كثيرا للامر ، فكل ما كان فى خيالها ليس الى تحولات فى الصور وتجليات وانطفاءات .

* * *

فى بيتها خوليتا تحفظ الدفتر مرة اخرى ومثل نزيلى دونيا ماتيلدى تذهب ايضا للعشاء .

الام تربت على خدها فى ود .

– لقد كنت تبكين ، فعيونك محمرة .

خوليتا تجيب بإيماءة

– لا يا ماما ، كنت أفكر .

دونيا خوليتا تبتسم فى شىء من التصعلك .

– فيه ؟

– نعم .

الامرأتان يتعانق ذراعاهما .

– اسمعى ، ما اسمه ؟

– بنتورا .

– أه يا سحلية ، من اجل هذا اعطيت اسم بنتورا للصينى .

الفتاة تحول نظرتها .

– نعم .

– اذن تعرفينه منذ بعض الوقت ؟

– نعم منذ شهر ونصف أو شهرين حيث كنا نتقابل من وقت لآخر .

الام تأخذ هيئة جادة تقريبا .

– وكيف حدث ذلك دون أن تقولى لى شيئا ؟

– ولماذا كنت سأقول لك شيئا قبل ان يعلن لى انه يحبنى ؟

– ايضا هذا حق . كم أنا عبيطة ! هذا هو الصواب بعينه ، فلا يجب قول الاشياء حتى تتأكد . لابد من الفطنة .

يحدث تقلص فى رجلى خوليتا ، وتحس بشىء من السخونة فى صدرها .

– نعم يا ماما ، انا فطنة جدا .

دونيا بيسى تعود للابتسام والسؤال .

– اسمعى ، ماذا يعمل .

– يدرس محاسبة .

– آه لو يحصل على درجة محاسب !

– سوف نرى اخيرا عما اذا كان محظوظا ، ماما لقد نذرت شمعتين (للكنيسة) لو حصل على محاسب اول ، وشمعة واحدة لو حصل على محاسب ثان .

– احسن ما عملت يا بنيتى ، ونفس الشىء نذرى . اسمعى . وما هو لقبه ؟

– اقوادو .

– ليس سيئا ، بنتورا اقوادو .

دونيا بيسى تصيح ، فى زغردة .

– أى ، بنية ، أى حلم ! خوليتا موسى دى اقوادو [1] . هل اخذت بالك ؟ الفتاة تفقد مرمى البصر .

– نعم ، نعم !

---

(١) فى اسبانيا تحمل الزوجة لقب ابيها ولقب والد زوجها معا ، اما الابناء فيحملون لقب كل من الام والاب ايضا . وهذه الصيغة قد ظهرت فى اسبانيا لحماية الدم الاسبانى المسيحى من الاختلاط بدم العرب واليهود الذين بقوا فى اسبانيا وتنصروا وحملوا اسم المسيحيين الجدد ، فصلا لهم عن المسيحيين القدماء .

الام وبسرعة - خشية ان يكون كله حلما سوف يتمزق إلى الف شظية ، مثل زجاج مصباح كهربى ، تسرع إلى طرح حكاوى زائفة لمرضعة .

- وابنك الاول ، خوليتا ، سيكون «ذكرا» سيحمل اسم روكى اقوادو موسى ٤ أية سعادة ! أى ، ماذا سيحدث عندما يعلم ابوك ! بهجة .

خوليتا - هنا - كانت على الطرف الاخر من الخط ، وقد عبرت - خلاص - التيار وتتكلم - خلاص - عن نفسها كما لو كانت شخصا أخر لم يعد - خلاص - يهمها شئ غير الانجراف مع سلامة نية امها .

- ولو كانت انثى ، سأضع لها اسمك يا أماه . أيضا لها نفس الوقع الحسن :

بيستاثيون اقوادو موسى ٤ .

- شكرا يا ابنتى ، شكرا كثيرا ، لقد حركت عواطفى . لكن ندعو أن يكون ذكرا ، فدائما هناك الحاجة إلى الرجل .

الام تتحدث ويداها معقودتان فوق بطنها .

- انظرى انت ، فليجعل الله عندك الميل للذكر !

- من يعرف !

دونيا بيسى ترفع نظرها إلى أعلى . سقف الغرفة كان به بعض بقع الرطوبة .

- كل حلم حياتى ، ولد قسيس .

فى تلك اللحظات كانت دونيا بيسى أسعد امرأة فى مدريد . تخاصر الابنة - بطريقة شبيهة بالطريقة التى يلف بها بنتورا ذراعه حولها فى منزل دونيا ثيليا وتهزها فى «تهشيك» كما لو كانت وليدا صغيرا .

- من الممكن ، ان يكون الحفيد كما حلمت ، من الممكن . المرأتان تضحكان ذراعا فى ذراع وبكل الدلال .

- الآن ، آى ، كم احب الحياة !

خوليتا تريد ان تزين عملها .

- نعم ، يا اماه . الحياة لها سحرها المتعدد .

خوليتا تخفض صوتها ، الذى يبدو مطليا بقناع منغما .

- اعتقد ان معرفة بنتورا - اذن الصبية تصدر فرقعة خفيفة - كان حظا عظيما اصابنى .

- لسوف نرى - يا بنية - سوف نرى . وليجعله الله كما تقولين ! فنحن عندنا ايمان ! نعم ، ولم لا ؟ حفيد قسيس يشيدنا

جميعا بناء حق . امام كبير مقدس . انظرى ، نحن الآن نمزح ، وبعد ستكون النتيجة صدور اعلانات عن تمارين روحية بإمامة الاب المبجل روكى اقوادو موسى . حينئذ ، سأكون عجوزا ، يا ابنتى ، ولكن لن يتسع صدرى لقلبى من فرط الفخر .

– وانا ايضا يا اماه .

* * *

مارتين يستعيد توازنه سريعا ، ويمضى فخورا بنفسه .

– يا سلام انه درس . .

مارتين يفتح خطوته ، تقريبا يمشى جريا ، وأحيانا فى قفزات .

– الآن نرى ماذا يخطر على بال تلك الخنزيرة من قول .

الخنزيرة هى دونيا روزا .

وعند الوصول إلى ميدان سان برناردو ، يفكر مارتين فى هدية ناتى .

– من المحتمل ، ان رومولو موجود حتى الآن فى المحل .

رومولو صاحب مكتبة لبيع الكتب والعاديات القديمة ، والذى يكون لديه فى وسط «الروبابيكيا» بعض لوحات الحفر .

يقترب مارتين من محل رومولو ، هابطا الشارع من الناحية اليمنى ، بعد ان ترك الجامعة وراءه .

على الباب لافتـة صغيرة تقول : مغلق . الرسائل تحت الباب . فى الداخل يرى بعض الضوء ، ويفهم ان رومولو بالداخل ينظم بعض البطاقات او يعد بعض الطلبات .

مارتين يدق بظهر اصابعه فوق الباب الصغير المطل على البهو .

- مرحبا رومولو !

- مرحبا مارتين . ما أقر العين بمرآك !

مارتين يخرج سجائر ، والاثنان يدخنان حول الموقد الذى سحبه رومولو من تحت المائدة .

كنت اكتب لاختى التى تعيش فى جيان ، الآن ، انا اعيش هنـا ، لا اخرج لا من اجل الطعام ، احيانا أفقد الشهية ، فلا اتحرك من هنا طوال اليوم . يحضرون لى قهوة من المقهى المواجه .

مارتين ينظر إلى بعض الكتب فوق احد الكراسى المصنوعة من الغاب ، كان مسند الكرسى محطما إلى قطع ، فلا يصلح الا رفا للكتب .

– شيء بلا اهمية كبيرة .

– نعم ، ليس كثيرا . انه كتاب السيرة الذاتية لرومانونس لو تهتم به ، اعلم انه لا يوجد فى السوق .

مارتين يضع الكتب على الأرض .

– اريد لوحة حفر ، تكون جيدة .

– ماذا تحب ان تصرف فى ذلك ؟

– اربعة او خمسة دورو .

– بخمسة دورو ، يمكننى اعطاؤك لوحة ظريفة ، ليست كبيرة جدا ، هذا هو الحق ، لكنها اصلية . فضلا عن انها بإطار ، وكله ، هكذا اشتريتها . واذا كنت تريدها هدية ، فانها لا نظير لها .

– نعم لاعطائها لفتاة .

– لفتاة ؟ لقد وافق شن طبقة ! الآن سوف ترى . . . لندخن اولا سجائرنا فى هدوء . . . لا أحد يعجل علينا .

– وكيف هى ؟

– انها لفينوس وتحتها بعض الحروف ، التى تنظم ابياتا من الشعر بالايطالية او البروفنسالية ، لا أدرى . الآن سوف ترى .

روموليو يترك السيجارة فوق المائدة ، ويشعل نور المر . يعود فى الحال مع اطار يقوم بتنظيفة «بفوطة مسح الغبار» .

– انظر .

اللوحة جميلة و قد لمعت .

– الالوان عصرية .

– هذا ما يظهر .

– نعم ، نعم ، من هذا كن على يقين .

* * *

باللوحة فينوس (ما) شقراء ، عارية تماما ، متوجة بالازهار . انها تحت وشى مذهب . وشعرها ينساب خلفها حتى ركبتيها . وفوق البطن تظهر وردة الريح ، كل شىء رمزى ، فى اليد اليمنى زهرة ، واليسار كتاب . يطفو جسم الفينوس فوق سماء زرقاء ، ملىء بالنجوم . داخل الوشى نحو الاسفل ، توجد دائرتان صغيرتان ، واحدة تحت الكتاب عليها برج الثور ، والتى تحت الزهرة عليها برج الميزان .

قدم اللوحة عبارة عن مرج محاط بالاشجار ، عازفان احدهما يعزف العود والآخر الناى ، بينما ثلاث مجموعات من الاحبة (رجل ، امرأة) ، جالسون يتسامرون ، فى الزوايا العليا ، ملاكان

ينفخان المزمار بخدود منفوخة . اسفل ، اربعة ابيات من الشعر غير مفهومة .

– ماذا تقول هنا ؟

– قصدك من الخلف ؟ لقد احضرها لى هكذا رودويجوس انترينا ، الاستاذ فى كاردينال ثيسنيروس (١) .

خلف اللوحة مكتوب : «فينوس، ايتها العظمى فى تضرمها اضيئى القلوب اللطيفة حيث الغناء ديدنها وبرقصات ، واعياد سحرية فى معدنها هات النبوءة بالتحليق فى مكمنها» .

* * *

– هل تعجبك ؟

– نعم ، كل هذه الاشياء تعجبنى كثيرا .

السحر الاكبر فى تلك الابيات الشعرية المهومة . الا تعتقد ؟

– نعم ، هذا ما يبدو لى .

مارتين يستخرج مرة اخرى علبة السجائر .

– تسير بمخزون من السجائر !

---

(١) كاردينال ثيسنيروس اسم المدرسة الثانوية التى درس بها ثيلا ، مؤلف هذه الرواية . تقع المدرسة بمدريد ٤ ، شارع الملوك .

– اليوم ، لكن هناك أيام ولا قطرة منها ، فأسير محتفظا باعقاب سجائر زوج اختى ، انت تعرف ذلك .

رومولو لا يجيب فهذا عين الفطنة عنده ، فهو يعرف ان موضوع زوج اخته يستفز مارتين حتى النخاع .

– بكم تبيعينى هذه اللوحة ؟

– انظر ، عشرون ، لقد سبق أن قلت لك خمسة وعشرون ، لكن لو اعطيتنى عشرين سأتركها لك ، لقد كلفتنى خمسة عشر . وظلت فى الرف عندى حوالى العام . يوافقك عشرون ؟

– عظيم ، اعطنى الباقى : دورو واحد ، وهاك خمسة دورو . مارتين يضع يده فى جيبه . يبقى دقيقة واقفا . بحواجبه مقطبة ، كما لو كان يفكر . يخرج المنديل ويضعه على ركبتيه .

– أقسم انها كانت هنا .

مارتين يقف .

– لا أفهم .

يبحث فى جيوب البنطلون ، ثم يخرجها ألسنة تطل فارغة .

– اذن ، تصدقت بها . هذا ما كان ينقصنى .

– ماذ يجرى لك ؟

– لا شيء ، افضل ألا أفكر فى الامر .

مارتين يبحث فى جيوب الجاكتة الامريكية ، يخرج محفظته المشوهة القديمة ، المليئة ببطاقات الأصدقاء ، وقطع من الجرائد .

– لقد اضعتها .

– هل فقدت شيئا .

– الخمسة دورو .

* * *

خوليتا تحس باحساس عجيب . احيانا تحس بشىء من الكآبة ، واحيانا اخرى تبذل مجهودا حتى لا تبتسم . تفكر :

– الرأس الانسانية جهاز قليل الانضباط . لو استطيع ان اقرأ ما يجرى فى الرؤوس مثل كتاب ! لا ، لا ، فالافضل ان يستمر كل شىء هكذا وليفهم كل واحد الآخر حسبما يهوِى القول .

يحلو لخوليتا من حين لآخر ان تقول لنفسها منفردة بعض ألترهات .

* * *

يمضيان فى الشارع ، يدا فى يد ، مثل عم وابنة اخيه التى اخرجها فى نزهة معه .

الصبية عند مرورها على مقر البوابة تدير رأسها فى الاتجاه المضاد ، تمضى مفكرة ، فلا ترى السلمة الاولى .

– لنرى عما اذا كنت ستحولها إلى «غم» !

– لا .

تخرج دونيا ثيليا لتفتح لهما .

– مرحبا ، دون فرنسيسكو !

– مرحبا ، صديقتى ! لتمر الفتاة من هنا ، ولتبق انت أود التحدث معك .

– حسنا ، حسنا ! مرى من هنا ، يا ابنتى ، واجلسى اينما تشائين .

الفتاة تجلس على كنبة لها غطاء اخضر ، محتلة فقط حافتها ، عندها ثلاثة عشر عاما ، وصدرها لا يكاد يبرز مثل وردة صغيرة تكاد تتفتح . اسمها مرسيديتاس زيتون وادى أش ، وصديقاتها يسمينها مرشى . اختفت عائلتها مع اختفاء الحرب ، بعضهم مات والبعض الآخر هاجر . مرشى تعيش مع زوجة لاخى جدتها ، سيدة عجوز مليئة بالدمامل ، ومطلية مثل قردة تضع «باروكة» واسمها دونيا كارمن ، فى الحى حيث تعيش

يطلقون عليها اسما ساخرا «شعر الميتة» . صبيان الحى يفضلون تسميتها «نطاطة المرج» .

دونيا كارمن باعت مرسيديتاس بمائة دورو . اشتراها دون فرنسيسكو صاحب العيادة .

قالت للرجل :

– العذرية ، دون فرنسيسكو ، هى العذرية . انها القرنفل !

وللطفلة :

– كل ما يريد دون فرنسيسكو هو اللعب ، فضلا عن ذلك هذا كان لابد ان يحدث لك فى الايام المقبلة فى اية لحظة ! ألا تفهمين ؟

* * *

عشاء عائلة موسى كان بهيجا فى تلك الليلة . دونيا بيسى مليئة بالاشعاع ، وخوليتا بالابتسام ، وحمرة الخدود ، العملية تجرى كلها من الداخل .

دون روكى والاختان الاخريان قد اصابتهم ايضا العدوى .

وحتى الآن دون ان يعرفوا سببا للبهجة . دون روكى يفكر لبضع لحظات فى ذلك الامر الذى جرى على السلالم :

(نقصد . . .) موضوع الصورة . . . الشوكة ترتعش قليلا فى يده حتى تمر النوبة ، ولا يجرؤ ان ينظر إلى ابنته .

دونيا بيسى يتأخر بها الوقت دون ان تنام ، رأسها يدور حول نفسها .

– هل تعرف ان البنت قد طلع لها خطيب ؟

– خوليتا ؟

– نعم ، طالب محاسبة .

دون روكى يدور دورة كاملة فى الفراش بين الملاءات .

– طيب لا تطلقى اجنحة الاجراس فى الهواء ، فأنت تهوين ان تتحولى إلى ماشطة ودلالة فى الحال . دعينا ننتظر نهاية كل هذا .

– اى ، يا ابنى ، أنت تهوى دائما رش الماء البارد على حماسى .

دونيا بيسى تنام مفعمة بالاحلام السعيدة . وقد أيقظها فى النهاية جرس احد اديرة الراهبات الفقيرات معلنا الفجر .

كانت روح دونيابيسى عالية ، وجاهزة كى ترى هواجس سعيدة ، وذرى سارة واشارات يقين للرفاهة والسعادة .

الفصل السادس

وأدرك المدينة الصباح .

وبين نعاس ووسن ، يستمع مارتين إلى الحياة فى المدينة وهى تستيقظ وفى مزاج رائق ينصت إلى ضجيج المدينة . . إلى صرخاتها الخافقة . . إلى عربات بائعى «الروبابيكيا» تلك التى تنحدر من شارعى فوين كرال وتشامرتين ، وتلك التى تصعدنحو شارع المبيعات وشارع المعيبات (١) قادمة من الجو الحزين والملتاع للمقابر ، مارة بعد مسيرة ساعات متطاولة فى ظل البرد و مقطورة بجواد نحيف ، أو بحمار رمادى بادى الانشغال ، يجر العربة فى بطء محزون .. إلى اصوات الباعة المبكرين الذين يتجهون لنصب عششهم وبيع الفاكهة فى شارع الجنرال بورلاير .. إلى »الكلاكساتَ» الاولى النائية غير الواثقة .. إلى صيحات الاطفال المتجهين نحو المدارس بالحقائب معلقة على الكتف ، وبوجبة «العصارى» الطرية تنفذ رائحتها بقوة من جيوبهم .

أما الأكثر قربا من اذن مارتين فقد كانت الحركة التى تدب

---

(١) سمحت لنفسى ترجمة اسمى الشارعين إلى العربية لما لهما من دلالة يعمد اليها الكاتب .

فى البـيـت ، وتصــل إلى رأســه فى وجد وحب . ودونـيـا خيسوسا (١) ، المرأة السـاهرة حتى مطلع الفجر ، تبدأ فى نوم القيلولة بعد تناول افطارها ، وذلك من باب التعويض للياليها السـاهرة . وهكذا ، فمنذ لحظة السحر تبدأ فى استنهاض جهد مساعداتها ، أولئك الصعلوكات القديمات ، من ذلك النوع المحبب ، مفرط العذوبة ، والأكثر امومة فى رعاية السر من كل أم .

عند دونيا خيسوسا سبع مساعدات للصباح ، خادمتاها تنامان حتى ساعة الغداء ، الثانية ، فى أى سرير يتاح ، فى أى سرير ملىء بالاسرار يخلو ومن يعلم ؟ أنه كما لو كان قبرا ، يترك بحرا محيطا من التعاسة بين قضبان رأسه الحديدية ، ويحتفظ فى جوف «المرتبة» بعواء الزوج الشاب الذى خان زوجته للمرة الاولى دون وعى بما يصنع ، تلك الزوجة التى هى فتاة ساحرة مليئة بالحبوب والندوب فى بشاعة ؛ تلك الزوجة التى تنتظره على قدميها ، جاعلة من حجرها مهدا لطفلها ، قارئة رواية طويلة ليس لها نهاية لقصة حب ، مفكرة فى استراتيجيات عسيرة ومعقدة لاقتصاديات البيت ، الامر الذى يمكن ان يقودها

---

(١) دونيا خيسوسا صاحبة بنسيون تعيش به بنات الليل . وكانت صديقة لام مارتين ، وهى تعطف عليه ، وقد منحته السرير بعد ليلة بائسة قضاها متصعلكا فى الشوارع .

بشىء من الحظ إلى شراء زوج جوارب . وتموت بين يديها نيران الموقد من الفكر والانتظار .

دونيا خيسوسا – وهى النظام بعينه – توزع العمل على مساعداتها . فى بيت دونيا خيسوسا تغسل فراش الأسرّة كل يوم . وكل سرير له طاقمان كاملان . واذا احدث احد الزبائن قطعا فى احدى الملاءات – وفوق كل شىء عن عمد – والناس فيهم كل نوع – تتم خياطته ورفوه بعناية . الآن لا يوجد فراش ، حقا هناك فى سوق «الراسترو» (١) ملاءات وأقمشة لأكياس المخدات ، لكن بأسعار مستحيلة .

عند دونيا خيسوسا خمس غسالات . وامراتان لكى الملابس ، اعتبارا من الثامنة صباحا حتى الواحدة مساء . كل واحدة منهن تقبض ثلاث بيزيتات يوميا ، لكن العمل لا يقتل من التعب . إمرأتا المكوى ايديهما اكثر نعومة ويضعان الفازلين «بريانتين» (٢) على شعر الرأس لا يستسلمان للذبول والخشونة ، أنهما ضعيفتان صحيا ، وسريعتا الدخول

---

(١) سوق الراسترو ، سوق اسبوعى يعقد كل يوم احد فى مدريد ، تذهب اليه المدينة كلها حيث تباع وتشترى الاشياء القديمة والجديدة ويمتاز برخص اسعاره ، يوجد نظير له فى كل المدن الاسبانية وفى امريكا الجنوبية .

(٢) كان الفازلين فى زمن الرواية «مودة» العالم حينذاك .

فى الشيخوخة . القى بالاثنتين طفلتين إلى الحياة ولم يتح لهما ادخار شىء للمستقبل والآن ، جاء عليهما الدور لدفع النتائج ، انهما تـغـنـيـان مثل قيثارة اثناء العمل ، وتشربان اثناء الغناء دون حساب ، مثل عريفين فى سلاح المدرعات .

واحدة منهما اسمها مارجريتا . انها ابنة لرجل كان فى حياته حمال فى محطة المسرات . وفى سن الخامسة عشرة تعرفت على خطيب كان اسمه خوسيه ، ولم تعرف عنه اكثر من ذلك ، كان راقصا فى مطاعم «وجبة العصارى» المنتشرة فى لابومبيلا . لقد حملها إلى جبل البارود ، وبعد ذلك هجرها ، فبدأت مارجريتا تتصعلك ، وانتهت بالشحاذة فى بارات شارع آمون مارتين .والذى حدث لها بعد ذلك أدهى وأكثر فحشا ، حتى ان الخدود تحمر لسماعه .

والأخرى اسمها دوريتا ، ولقد اضاع مستقبلها طالب فى المدرسة الاكليريكية ، وذلك فى بعض اجازاته . الطالب الكهنوتى – والآن هو ميت – كان اسمه البيضانى ألبا . واسمه كان مزحة ثقيلة الظل من أبيه ، الذى كان حيوانا بريا شديد البهيمية . تراهن مع اصدقائه نظير دفع حساب العشاء على ان يسميه «البيضانى» . وقد سمى ابنه بالفعل بهذا الاسم ، وكسب الرهان . وفى يوم تعميد الطفل ، اقام والده دون استانسلاو البا مع

اصدقائه حفل سكر وعربدة . . الأم المسكينة ، دونيا محارة ايبانيث ، والتى كانت فى طيبة القديسين ، ظلت تبكى دون ان تفعل شيئا آخر أكثر من قولها :

– أى ، أية تعاسة ! زوجى سكران فى يوم سعيد كهذا ؟

وفى كل الاعوام ، عند الاحتفال بالذكرى السنوية لتعميد الطفل كانت تندب حظها :

– أى ، أية تعاسة ! زوجى كان سكران فى مثل هذا اليوم !

الطالب الاكليريكى وصل إلى درجة أسقف الكاتدرائية فى ليون . ولقد حمل دوريتا حيث كان يعرض عليها بعض الصور ذات الالوان الفاقعة ، والتى تمثل معجزات القديس خوسيه دى كلسانس إلى شواطىء نهر كورينو ، طالب الدين ودوريتا كانا من نفس القرية ، بالديتيخا فى محافظة ليون . .

الفتاة ، عندما صحبها ذلك الطالب كانت تراودها الهواجس فى انها لا تسير بأية حال فى طريق الصواب ، ولكنها تركته يحملها إلى حيث شاء ، لقد كانت نصف بلهاء . . وانجبت دوريتا ولدا ، وعندما عاد طالب الدين إلى القرية فى أحدى اجازاته ، لم يحب ولا حتى رؤيتها . كان يقول عنها :

– انها امرأة شريرة ، وهى مسكن عدونا الشيطان ، القادر

بحيله الماكرة على الايقاع بأكثر الرجال تقوى . فلنجنب عيوننا النظر اليها !

وقد طردت الاسرة دوريتا من البيت ، فقضت فترة من الزمن تتجول بين القرى بالطفل معلقا فى صدرها . كادت تموت فى احدى الليالى فى أحد الكهوف التى تعلو نهر بوريخو فى محافظة بالنسيا . لقد ربطت المخلوق الصغير بالحجارة إلى عنقه ، والقت به فى النهر ، حيث أكلته الأسماك ، لم تقل شيئا لأحد ، لكنها – وكان لا ينفع الندم وقد سبق السيف العذل – راحت تبكى وبقيت خمسة أيام فى الكهف ، دون ان ترى أحدا . ودون طعام .

كان عند دوريتا حينذاك ستة عشر عاما ، وهيئة حزينة وحالمة لكلب ضال بلا أصحاب ، لدابة جوالة . . .

أمضت بعض الوقت ملقاة – مثل قطعة اثاث مهشمة – فى مواخير بلد الوليد وسلامانكا ، حتى ادخرت مصاريف السفر ، واتجهت إلى العاصمة ومن ثم بقيت فى أحد البيوت بشارع الخشب ، وكان البيت يطلق عليه : جمعية الأمم حيث يوجد به عدد كبير من الاجنبيات فرنسيات ، بولنديات ، ايطاليات ، وواحدة روسية ، وأخرى برتغالية سمراء كثة الشوارب ، ولكن الاغلبية كانت من الفرنسيات ، فرنسيات كثيرات العدد قويات البنية ، فيهن حرارة ولهن هيئة راعيات البقر ، نورمنديات

شريفات ، القى بهن إلى الحياة لادخار ثمن ثوب الزفاف ، رهيفات الصحة - بعضهن له ماض مجيد - حتى انهن يحتقرن فى عمق «الشوفير» والتاجر ، حين يستخرج ايهما من جيوبهن بيزيتاتهن السبع الطيبات . . من هذا البيت اخذها دون نيكولاس دى بابلوس ، ثرى من بلد البلوط ، وتزوجها زواجا مدنيا .

كان نيكولاس يقول لابن اخيه بدريتو ، وكان ينظم أشعارا بالغة الرقة ويدرس الآداب والفلسفة :

- إنها فتاة جذابة هل تفهمنى ؟ اما الاخريات فانهن ثقيلات الظل ، ودمى مصنوعة من الازهار .

انجبت دوريتا ثلاثة ابناء لزوجها لكن الثلاثة ولدوا امواتا ، لقد كانت تحملهم فى وضع معكوس ، فتتم الولادة معكوسة . لقد كانت تلقى بالوليد من اقدامه ، فيختنق ويموت .

دون نيكولاس غادر أسبانيا عام ١٩٣٩ ، لأنهم قالوا عنه انه ماسونى ، ولم تعرف عنه شيئا بعد ذلك . ولعدم تجرؤ دوريتا للذهاب إلى أسرة زوجها . فإنها عند انتهاء بعض المال الذى كان متبقيا بالبيت ، خرجت مرة اخرى للصيد ، لكنها لم تحرز نجاحا يذكر . ورغم الجهد الاقصى الذى بذلته ومحاولتها المستمرة لكى تكون ودودة ، لم تحصل على أى زبون دائم . كان ذلك فى بداية

الاربعينات . لم تعد طفلة بأية حال ، وواجهتها منافسة شديدة ، فالفتيات الشابات ذوات العطاء والجمال كن وافرات العدد . بل ان كثيرا منهن كن يفعلن ذلك مجانا من باب التسلية وبهذا كن ينتزعن لقمة العيش من فم الفتيات الاخريات . . وظلت دوريتا تتقلب فى اخطار مدريد حتى التقت بدونيا خيسوسا .

– ابحث عن فتاة اخرى موثوق بها لكى الملابس ، تعالى معى . ليس أكثر من تجفيف الملاءات والضغط على «كرمشتها» قليلا ، سأعطيك ثلاث بيزيتات لكن على مدار الايام ، فوق ذلك فكل الامسيات انت حرة طليقة ، بل والليالى أيضا . .

دوريتا فى الأمسيات ترافق سيدة معوقة للتنزه أو الذهاب لسماع الموسيقى الكنسية . السيدة كانت تعطيها زوجا من البزيتات ، وتدعوها لكوب من اللبن بينما هى تتناول مشروب الشيكولاته . السيدة كانت تسمى دونيا «نجاة» وكانت تعمل مولدة ، البراغيث الشريرة كانت ترعى فى جسمها ، ولا تفتأ تشكو مهمهمة مدمدمة . تظل تطلق اللعنات القائلة : ان العالم يجب حرقه ، فهو لا يصلح لشىء طيب . دوريتا كانت تتحملها . وتعلق على اقوالها بقولها : آمين ، فقد كان عليها ان تدافع عن زوج البيزيتات الذى تقبضه منها ، وعن تلك القهيوة التى تسقيها لها كل مساء .

وفى الليل ، كانت المرأة المسكينة – فى بعض الاحايين – تقدم بعض الخدمات للجنود وطلاب الجامعة خلف ظلام اسوار حديقة الرتيرو . وكانت تقوم بذلك واصابعها قد جمدها البرد ، وعقلها قد سافر بعيدا ، ورقتها اللانهائية تستيقظ فى قلبها نظير تحصيل ثلاث أو أربع بيزيتات . ثم تتوجه إلى البيت للنوم بعد ذلك ، محاولة التنزه فى طريقها اليه على الرصيف الآخر لشارع الحلبة المواجه لاسوار الرتيرو أو مستعملة المترو حتى محطة مانويل بيثرو اذا كان البرد شديدا .

الصبيتان العاملتان فى كى الملابس ، تتخذ كل منهما مائدة تدق عليها بالمكوى مطلقة عقيرتها بالغناء ، اثناء كى الملاءات وفى بعض الاحيان تتوقفان عن الغناء لتبادل الحديث .

– بالامس بعت مقررات التموين ، فأنا لا أريدها . لقد بعت ربع السكر بأربع سنتات ونصف ، وربع الزيت بثلاثة سنتات ، والمائتى حبة من الفاصوليا البيضاء نظير اثنين من السنتات فقد كانت مليئة بالدود ، اما القهوة فقد ابقيتها لاستعمالى الشخصى .

– . . أما أنا فقدأعطيت تموينى لابنتى ، فهى تدعونى لوجبة طعام مرة كل اسبوع .

ومن فوق سريره ، كان مارتين يستمع اليهما تعملان . لم يميز ما كانا يتبادلان من حديث ، يستمع إلى غنائهما المنغم ، وإلى ضربات المكوى فوق المائدة ، لقد امضى برهة طويلة منذ أستيقاظه دون ان يفتح عينيه . يفضل ان يحس بوجود بورا .

هكذا يمضى برهة اخرى طويلة . فتلك كانت ليلته السعيدة الوحيدة منذ شهور عديدة ، انه يجد نفسه مثل كائن يولد من جديد ، وقدعاد إلى الوراء عشر سنوات صبيا فتيا ، يبتسم ويفتح عينه شيئا فشيئا .

بورا مستندة على مرفقها فوق « المخدة» تحدق فى وجهه . تبتسم هى أيضا عندما تراه يستيقظ .

– كيف كان نومك ؟

– رائع بوريتا . وأنت ؟

– وأنا أيضا .

– اسكتى تحدثى عن شىء أخر .

– كما تحب .

بقيا بعض اللحظات فى صمت .

– أنت رومانسى

مارتين يبتسم تقريبا فى حزن : – لا فقط أنا عاطفى .

مارتين يداعب وجهها – انك شاحبة وكأنك عروس .

– لا تكن عبيطا .

– نعم ، مثل امرأة حديثة الزواج .

بورا تأخذ ملامح الجدية : الحقيقة ، اننى لست كذلك .

مارتين يقبل عينيها كما يفعل شاعر فى السادسة عشرة من عمره .

– بالنسبة لى بورا نعم انت عروس ، هذا ما يملأ يقينى .

الصبية – مليئة بالعرفان بالجميل – تبتسم فى اشواق ترتسم على وجهها المستسلم .

– ليكن ، مادام هذا يقينك .

مارتين يجلس مغيرا وضعه على السرير .

– هل تعرفين «طقطوقة» لخوان رامون ، تبدأ بالكلمات «أيتها الصورة السامية والحنونة للعزاء» ؟

– لا من هو خوان رامون ؟

– شاعر .

– ينظم اشعارا ؟

– طبعا .

مارتين ينظر إلى بورا ، تقريبا بغيظ ، فقط للحظة عابرة .

– سوف ترين .

أيتها الصورة السامية والحنونة للعزاء

يا فجر بحارى من الاحزان

يا نعومة السلام بأريج النقاء

يا ثمنا سماويا لطويل آلامى .

– أى حزن ! أى جمال !

– هل أعجبتك ؟

– أعتقد أنها تعجبنى .

– فى يوم آخر ، سأتلو عليك بقيتها .

* * *

السنيور رامون ، بالبدن عار ، قوى ومشدود . يأكل أطايب الطعام ، ولا يصاب بالزكام ، ويشرب كؤوس المدام ، ويلعب الدومينو بانسجام ، ويقرص ارداف الخادمات بانتظام ، ويستيقظ

كل يوم عند مطلع الفجر ، ويشتغل منذ بدء حياته كل الأيام باجتهاد .

السنيور رامون ، لم يعد بعد صبيا ، الآن هو رجل غنى لا يطل على «الفرن» برائحته الذكية ، وحرارته غير الصحية ، حيث يتم صنع الخبز ، فمنذ أيام الحرب لم يخرج قط من مكتبه ، الذى يرعاه فى تفوق ، محاولا ارضاءكل المشترين مجددا فى استقرار ورديات عمل بديعة ومنضبطة طبقا للأعمار ، وأحوال العاملين وظروفهم ، بل طبقا لمظهرهم . .

لقد تحولت غابة الشعر بصدر سنيور رامون إلى أرض مغطاة بالجليد .

– انهضى يا فتاة ، ما هذا البقاء فى السرير حتى هذه الساعة كما لو كنت «بنت ناس» ؟

الفتاة تنهض دون ان تنبس بأدنى كلمة ، ثم تغتسل قليلا فى المطبخ .

الفتاة تصاب كل صباح بسعال خفيف ، تقريبا لا يمكن الاحساس به . احيانا تصاب بالبرد فيزداد تحشرج السعال وجفافه : متى تتركين (تقول لها أمها من صباح لآخر) هذا المسلول ؟

الفتـاة ، الحـلوة مثل زهـرة تستسلم للتفتح دون ادنى صرخة . تعتريها فى تلك اللحظات رغبة فى اغتيال امها .

– هكذا تبدأين الشر ، ايتها الافعى الشريرة (تحدث نفسها) . . فيكتوريا ، بمعطفها القطنى ، تقطع الطريق نحو مطبعة المستقبل ، فى شارع الخشب ، حيث تعمل فى لف وتعبئة الكتب واقفة على قدميها من أول النهار حتى اخره .

فى بعض الاحيان تحس فيكتوريا بالبرد اكثر من المعتاد وتساورها الرغبة العارمة فى البكاء .

* * *

دونيا روزا تبكر أكثر من اللازم . تذهب إلى صلاة الساعة السابعة كل الايام .

دونيا روزا تنام خلال الصلاة مغطاة بقميص من الصوف الرقيق ، اخترعته لنفسها بنفسها .

دونيا روزا ، خلال عودتها من الكنيسة تشترى بعض اصابع البقلاوة ، وتضع نفسها فى مقهاها – ذلك المقهى الذى يشبه فى تلك اللحظة مقبرة خالية من الزوار بكراسيها وقد توجهت ارجلها إلى أعلى فى وضعها المقلوب فوق الموائد – وتعد لنفسها كأسا من الأوخين وتشرع فى الافطار .

دونيا روزا - اثناء افطارها - تفكر فى ذلك الزمان غير المستقر عديم الامان ، فى الحرب التى - لا قدر الله ! - تسير نحو هزيمة الالمان ، فى موظفى القهوة و «جرسوناتها» بل حتى فى ماسح الاحذية وبائع السجائر ، وفى العازفين ، كلهم كل يوم لهم مطالب جديدة وادعاءات .

دونيا روزا بين كل رشفة ورشفة من الأوخين تحدث نفسها بصوت منخفض كلاما يكاد يخلو من النغمة والرنين ، ويوشك ان يفقد المعنى ، كلاما يخرج دون ضابط : لكن من يأمر هنا ؟ انه أنا ، وكم يثقلكم ذلك ! إذا احببت استطيع اعداد كأس آخر ، ولست ملزمة ان أقدم حسابا لأحد ، واذا جاءنى المزاج ، ألقى الزجاجة بعنف فى اتجاه المرآة فتحطمها . لا أفعل ذلك ، لأننى فقط ليس لى مزاج ان افعله . واذا شئت اغلق هذا الباب إلى الأبد ، ولن يذوق القهوة هنا أحد . كل هذا ملكى ، نتيجة عرقى ، وقد كلفنى غاليا النهوض به .

دونيا روزا - فى الصباح الباكر - تحس ان المقهى اكثر ملكية لها من أى وقت آخر .

- المقهى مثل القط ، فقط اكبر من القط قليلا اذا شئت القيت اليه بقطعة سجق ، واذا شئت قتلته بضربات بالعصا .

دون روبرتو . عليه ان يحسب المسافة بين بيته وبين مبنى البلدية ، انها اكثر من نصف ساعة مشيا . دون روبرتو يذهب إلى كل مكان ماشيا الا اذا كان متعبا فبقليل من النزهة وفتح الارجل ، يوفر يوميا عشرين سنتا أو ما يعادل ستا وثلاثين بيزيتا شهريا تقريبا تسعين دورو على مدار السنة .

دون روبرتو يفطر «فنجان» مولت باللبن الساخن جيدا ، ونصف رغيف . النصف الآخر من الرغيف يأخذه معه مع قليل من الجبن الجاف حتى يتناوله عند الضحى .

دون روبرتو جونثالث لا يشكو ، فالامور كان من الممكن ان تكون أسوأ ، فقبل كل شيء صحته جيدة وهذا هو الأساس .

* * *

الطفل الذى يغنى الفلامنكو ينام تحت أحد الجسور ، فى طريق المقابر . الطفل الذى يغنى الفلامنكو يعيش مع اسرة كما لو كانت من الغجر ، تتكون من كل فرد فيها . كل فرد فيها يبذل ما فى وسعه ، دون ان يتخلى عن حريته الطليقة ، واستقلاله المطلق .

الطفل ، الذى يغنى الفلامنكو يبتل عندما تمطر ، ويثلج عندما ينتثر الجليد ، ويحترق فى شمس اغسطس ، بتلك الحماية

الرديئة لندرة الظل تحت الكوبرى ، انه القانون القديم «لاله سيناء» .

الطفل الذى يغنى الفلامنكو ، فى قدمه بعض الالتواء سقط فى حفرة فالمته كثيرا ، ومضى يعرج زمنا .

بوريتا داعبت جبهة مارتين .

- لدى دورو ، وعدد من البيزيتات هل تحب ان أرسل لاحضار بعض الافطار ؟

مارتين من فرط السعادة ينسى الخجل ، وهذا ما جرت عليه العادة عند كل الناس .

- حسنا .

- هل تحب القهوة وبعض اصابع البقلاوة ؟

مارتين ضحك قليلا . كان شديد العصبية .

- لا ، قهوة وزوج من الكعك السويسرى . ما رأيك ؟

- رأيى ان نحضر ما تحب .

مارتين بكل الجرأة والانعدام المطلق للحياء ، اخرج مظروف اعقاب السجائر وفرغ بعضها ، ولف سيجارة . بوريتا لم تواتها

الشجاعة على التعليق ولو بكلمة واحدة .

كان فى نظرة مارتين – تقريبا – بريق المنتصر .

– هيا اطلبى الافطار .

*   *   *

دونيا ماروقت ، بالعينين مفتوحتين تنام نوم الابد فى تابوتها المستقر فوق برودة الرخام لاحدى موائد المقبرة . موتى التوابيت لا يظهر انهم موتى ، يبدون مثل دمى من القماش المحشو بالقطن وقد تم اغتيالها . . . اقنعة لمن انقطع لهم حبل الوجود .

إن «أراجوازا» مخنوقا أكثر إثارة للحزن من انسان ميت .

*   *   *

الآنسة البيرا تستيقظ مبكرا ، لكن ليس عند مطلع الفجر .

الآنسة البيرا ، يعجبها البقاء فى السرير مغطاة تماما تفكر فى أشياء حياتها ، أو تقرأ رواية أسرار باريس ، ساحبة يدها فقط من تحت الغطاء لتمسك بالمجلد الضخم ، القذر ، المفكك الاوصال .

الصباح يرتفع شيئا فشيئا زاحفا مثل دودة فى قلوب رجال

المدينة ونسائها .

الصباح ذاك الصباح ، المكرور على مدى الأبد يلعب قليلا ومع ذلك ، عند تغييره لوجه المدينة ، ذلك المدفن ، تلك الجائزة المعلقة على رأس عمود مدهون بالصابون (١) ، تلك الخلية للنحل ، خلية النحل . .

فليأخذنا الله نحن المعترفين ! (٢) .

---

(١) يشير إلى لعبة موجودة بكثرة فى الاندلس وامريكا الجنوبية يمارسون هذه اللعبة المثيرة فى المهرجانات والاعياد حيث توضع جائزة ثمينة على رأس عمود مرتفع وأملس (من المعدن أو الخشب) ويتنافس الشبان فى تسلقه .

(٢) يشير بشكل غير مباشر لشعيرة الاعتراف بالذنوب والأخطاء (على كرسى الاعتراف فى الكنيسة امام احد القساوسة) ، والذى يريد قوله هنا ، أننا نرتكب الاخطاء الفادحة ثم نعترف بها ونندم عليها ، لكننا نعود - المرة بعد المرة - لارتكابها من جديد .

خـاتـمــــــة

لقد مضت ثلاثة أو أربعة أيام . الجو يأخذ هيئة خاصة لأعياد الميلاد المجيد . بمدريد ، تلك النبتة العجوز ذات الاغصان الخضراء . تسمع – فى وسط غليان الشارع – الدوران الحلو ، الدوران الودود لأجراس مصلى . الناس يعبرون بسرعة لا أحد يفكر فيمن هو إلى جانبه .

* * *

دون روبرتو يقرأ الجريدة أثناء الافطار ، ثم يودع زوجته ، يودع فيلو ، التى رقدت فى السرير نصف مريضة .

– لقد رأيته ، والامر شديد الوضوح . يجب صنع شىء من اجل هذا الفتى ، فكرى انت . من جهة الاستحقاق هو لا يستحق ، لكن ، فى النهاية !

فيلو تبكى ، بينما اثنان من أبنائها حول السرير لا يفهمان ما يجرى . العينان مليئتان بالدموع ، تعبير الوجه حزين فى غموض ، تقريبا شارد ، مثل تعبير وجه البقرة التى لا زالت – بعد – تتنفس ، والدم ببخاره الفائر فوق بلاط الارض ، بينما تلعق بلسانها المتعثر فى اخر لحظات الرمق قذارة قميص الجزار

الذى يؤذيها ، فى لا مبالاة القاضى ، الذيل عند الشفاه والتفكير يدور حول أية وصيغة أثناء الصوت المتعكر لاغنية فردية فى اوبريت ثارثويلا .

لا أحد يفكر فى الموتى الذين قضوا عاما تحت الارض يسمع عند بعض العائلات احداهن تقول :

- لا تنسوا ، فالغد الذكرى السنوية لأمى المسكينة ! إنها دائما الاخت ، الاكثر احزانا ، هى التى تدفع الحساب .

* * *

دونيا روزا تذهب كل يوم للدلالة للتسوق ، وخلفها خادمة .
دونيا روزا تذهب إلى متنزه «ميدان اسبانيا» بعد احضار مشترياتها للمقهى . . دونيا روزا تفضل احتلال موقعها عندما يسترخى الناس ، وقد ولى الصباح .

فى الميدان ، تلتقى احيانا بأختها ، دونيا روزا تسأل دائما عن بنات أختها .

حتى هذه اللحظة ، لا زال الترام موجودا حيث يجلس الناس وجها لوجه فى صفين طويلين يتأمل بعضهم البعض فى تدقيق وحتى أيضا فى حب أستطلاع .

- هذا وجه رجل مسكين بالتأكيد هربت منه زوجته مع

احد ، وعلى الأرجح مع متسابق دراجات ، فهى تعرف من عنده ما يكفيها .

واذا كان خط الترام طويلا ، يصل الناس إلى التواصل الودود ، يبدو ان الامر ليس كذلك ، لكن دائما تحس قليلا ان تلك المرأة التى تنزل فى أى شارع ، وكانت تبدو تعيسة ، لن نراها ابدا بعد ذلك .

– لابد ان تهمل نفسها ، فربما لها زوج عاطل ، ومن المرجح انهما يغصان بالاطفال .

دائما توجد سيدة شابة . بدينة فى أعلى زينة ، ترتدى ثيابها فى سفور ، ومعها حقيبة كبيرة من جلد أخضر ، وحذاؤها من جلد الكوبرا وخال مصبوغ على الخد .

– لها هيئة زوجة تاجر ملابس غنى ، أيضا لها هيئة عشيقة طبيب . الاطباء دائما يختارون عشيقات ملفتات للنظر ، ويبدو أنهم يريدون أن يقولوا للجميع : عليكم بالنظر ؟ هل نظرتم جيدا ؟

مارتين يأتى من اتوتشا وعند الوصول إلى محطة المبيعات ، ينزل ويرسل قدميه فى الطريق الزراعى المتجه نحو الشرق . يذهب للمقابر لرؤية أمه ، دونيا فيلو مينا لوبث دى ماركو ، التى ماتت منذ زمان قبل ليلة المسيح بيوم واحد .

* * *

بابلو ألونسو يقفل الجريدة ، ويدق جرس الباب . . لوريتا تغطى نفسها ، فالصبية حتى الآن تخجل ان يراها فى السرير ، فقبل كل شىء يجب التفكير فى أنها لم تقم فى البيت أكثر من يومين . كان البيت فى شارع المحترمين حيث ألقت رحالها بعد مغادرة «البوابة» فى شارع لاقاستا . كم كان سيئا !

– هل يمكن الدخول ؟

– تفضل . هل السنيور ماركو موجود ؟

– لا ، يا سيدى لقد رحل منذ قليل بعد ان طلب منى رباط عنق قديم أسود من بين أربطة عنقك .

– حسنا ، اعدى لى الحمام .

الخادمة تترك الغرفة .

– يجب ان اخرج لوريتا . مسكين ذلك التعيس !

هذا ما كان ينقصه !

– مسكين ذلك الشاب ! هل تظن انك ستجده ؟

– لا ادرى سأبحث عنه فى التليفونات أو فى بنك اسبانيا ، فقد تعود الذهاب هناك لقضاء فترة الصباح الباردة .

* * *

من طريق الشمال الزراعى تشاهد اكواخا بائسة مقامة من صفيح قديم وشظايا ألواح من الخشب ، بعض الاطفال يلعبون بالقاء احجار فى المستنقعات التى خلفتها وراءها الامطار . وحتى فى الصيف لا يتم نهائيا جفاف نهر الابرونييقال فيصطادون ضفادع موحلة اقدامها فى المياه القذرة وغير الصحية للمسقى ، بعض النساء ينقبن فى أكوام الزبالة ، رجل عجوز وربما مشلول يجلس على باب احد الاكواخ فوق دلو مقلوب ، ويفرش تحت شمس الصباح الفاترة جريدة قد ملأت صفحتها اعقاب السجائر

– انهم لا يدرون ، انهم لا يدرون . .

مارتين مضى باحثا عن قافية تماثل «الريحان» من اجل قصيدة توجه لأمه ، كان بالفعل قد بدأها . اثناء ذلك فكر فيما يقال من ان المشكلة ليست مشكلة انتاج وانما هى مشكلة توزيع .

– حقيقى هؤلاء أسوأ منى ، أية بربرية ! وأية أشياء تجرى !

باكو يصل مختنقا ، ولسانه يتدلى من فمه إلى البار . صاحب البار ثلستينو أورتث يصب كأسا من النبيذ للحارس جارثيا .

– كثرة الكحول تمثل خطرا على خلايا الجسم الانسانى ،

والتى هى كما سبق أن قلت لك ثلاثة انواع ، خلايا دموية ، وخلايا عضلية ، وخلايا عصبية ، وذلك لأن الكحول يحرقها ويدمرها ، ومع ذلك ، فكأس بين الحين والحين يدفىء المعدة .

– وأنا أقول نفس الشىء

– .. ولكى يضىء المناطق الغامضة فى العقل الانسانى ..

الحارس جارثيا بهت واخذ ملامح البلهاء [1] .

– ويحكون ان الفلاسفة القدماء فى بلاد الاغريق والرومان وقرطاجنة ، عندما كانوا يرغبون فى الحصول على قوة خارقة ....

الباب يفتح فى عنف ، ويدخل تيار من الهواء المثلج ويجرى فوق «النصبة» .

– هذا الباب !

– مرحبا سنيور ثلستينو .

صاحب البار يقاطعه ، أورتث يهتم كثيرا بأسلوب التعامل

---

(١) الحارس جارثيا ، قروى جليقى جاهل يعمل بالشرطة وهو خطيب بيتريتا خادمة فيلو اخت مارتين . يتردد على بار ثلستينو ، الذى هو مجرد ببغاء تردد اقوال نيتشه دون فهم ، ومع ذلك فالحارس يظن انه علامة قد قرأ مئات الكتب .

كما لو كان رئيس بروتوكول بالقوة .

– صديقى بابلو .

– حسنا ، دعك من هذا الآن ، هل حضر مارتين إلى هنا ؟

– لا ، لم يعد منذ ذلك اليوم ، فمن المعروف انه غضب . .

ادار باكو ظهره للحارس .

– انظر ، أقرأ هنا .

أعطاه باكو جريدة مطبقة .

– هناك بالاسفل .

ثلستينو يقرأ ببطء مقطب الوجه .

– أمر سيئ .

– هذا ما اعتقده .

– ماذا تفكر ؟

– لا أدرى . . هل يدور ببالك شئ عما ينبغى عمله ؟ أنا أظن انه ينبغى الحديث مع اخته . أه ، لو نستطيع ارساله إلى برشلونة غدا !

فى شارع توريخون ، كلب يحتضر فى الحوض المحيط

باحدى الاشجار ، لقد صدمه تاكسى فى منتصف بطنه ، عيناه مليئتان بالتوسل ولسانه خارج فمه ، بعض الاطفال يعبثون بقدمه . يشهد العرض بضع عشرات من الاشخاص .

دونيا خيسوسا تمر ومعها بوريتا بارتلوميه .

– ماذا يحدث هناك .

– لا شىء ، كلب مصاب فى حادث .

دونيا خيسوسا تأخذ بوريتا من ذراعها .

– هل تعرفين حكاية مارتين ؟

– لا ، ماذا حدث له ؟

– انصتى .

دونيا خيسوسا تقرأ لبوريتا بعض سطور الجريدة .

والآن !

– لا أدرى ، يا ابنتى ، لكن اخشى ان لا شىء طيب فى الطريق. هل رأيته ؟

– لا ، لا ، لم اعد لرؤيته .

بعض الزبالين يقتربون من الكلب المحتضر ثم يحملونه من ارجله الخلفية ويطيحون به فى عربة الزبالة . الكلب يطلق عواء

عميقا يائسا من الالم ، عندما يمضى فى الهواء فى طريقه للعربة . المجموعة تنظر قليلا للزبالين ، ثم تنفض بعد ذلك حيث يمضى كل واحد منهم إلى وجهته . بين الناس كان طفل شاحب يستمتع برؤية نهاية الكلب ، وقد ارتسمت على وجه ذلك الطفل ابتسامة مشؤومة ، تقريبا غير محسوسة .

* * *

بنتورا اقوادو يتحدث مع خطيبته بالتليفون .

– لكن ، فى نفس هذه اللحظة ؟

– نعم ، يا ابنتى ، فى نفس هذه اللحظة خلال نصف ساعة سأكون فى مترو بلباو لا تتأخرى لحظة .

– لا ، لا تهتم ، إلى اللقاء .

بعد نصف ساعة ، لحظة الوصول إلى فتحة مترو بلباو ، يظهر بنتورا مع خوليتا ، التى كانت قد وصلت من قبل فى انتظاره – الفتاة كانت تموت من فرط حب الاستطلاع بل من شىء من الانشغال . ماذا يجرى ؟

– وصلت من زمن طويل ؟

– لا ، لا يمكن الوصول فى خمس دقائق . ماذا حدث ؟

– الان ، سأقول لك ، هيا نجلس هناك .

الخطيبان يدخلان فى حانة لبيع الجعة ويجلسان فى مؤخرتها على مائدة تكاد تغرق فى الظلام .

– اقرئى .

– بالفعل ، لقد غمس صديقك نفسه فى مصيبة !

– هذا هو كل شىء ومن أجل ذلك ناديتك .

خوليتا تبدو متفكرة : وماذا سوف تفعل ؟

– لا ادرى ، فلم أره.

الفتاة تتناول يد خطيبها وتشد نفسا من سيجارته .

– لا حول إلا بالله !

– نعم ، الكلب النحيف لا يعرف الا البراغيث . . . (١) ، لقد فكرت فى ان تذهبى لرؤية اخته ، انها تعيش فى شارع ابيثا .

– ولكننى لا أعرفها .

– لا يهم ، قولى لها انك من طرفى والافضل ان تذهبى الآن

---

(١) مثل شعبى يكاد يشبه المثل العربى «المتعوس متعوس ، ولو ركبوا فى رأسه فانوس» وينبغى ان نربط هذا المثل بحكاية الكلب الذى اصطدم به «تاكسى» فى منتصف بطنه . انه يشير إلى مارتين وكل امثاله من الجوعى دون مبرر سوى ان يكون الوجود ليس أكثر من مجرد حادثة سيارة .

هل معك نقود ؟

- لا .

- خذى اثنين دورو ، واذهبى بتاكسى فكلما كان اسرع كان أفضل ، يجب ان نخبئه ، فليس امامنا من سبيل آخر .

- نعم لكن . . آلن نضع أنفسنا فى ورطة ؟

- لا أدرى ، لكن ليس هناك خيار آخر ، فإن مارتين لو وقع وحيدا بين ايديهم فمن المحتمل أن يرتكب أية حماقة .

- حسنا ، حسنا ، أنت تأمر .

- هيا . اذهبى .

- ما رقم البيت ؟

- لا أدرى ، إنه على الناصية فى آخر الشارع ، صاعدة عبر ناربايث ، لا أدرى ما أسمها لكن زوجها اسمه جونتالث ، روبرتو جونتالث .

- وأنت هل تنتظرنى هنا ؟

- نعم سأذهب لرؤية صديق ، وهو رجل له نفوذ كبير ، وسأكون هنا خلال نصف ساعة مرة أخرى .

* * *

السنيور رامون يتحدث إلى دون رربرتو الذى لم يذهب إلى

عمله فى البلدية حيث قدم اعتذارا بالتليفون .

- انه امر . عاجل جدا ، يا دون خوسيه ، أكيد انه عاجل جدا انت تعرف اننى لا أغادر دون أن يكون السبب لا مناص منه . انه امر عائلى .

- طيب ، طيب . لا تحضر للعمل وسأقول لديات ان يلقى نظرة على عملك بدلا منك .

- شكرا جزيلا ، دون خوسيه .

- نحن هنا جميعا كى نساعد بعضنا بعضا كأصدقاء مخلصين والمهم أن تحل مشكلتك .

- شكرا جزيلا دون خوسيه . وسأرى عما اذا . . .

السنيور رامون يأخذ هيئة المنشغل .

- انظر ، جونثالث ، اذا كنت تطلب منى ان أخبئه هنا لعدة ايام ، فلا بأس ، بشرط ان تبحث له عن مكان آخر ، بعد ذلك . ولن يكون هذا بشىء فأنا الآمر هنا ، لكن باولينا لو عرفت فستكون كارثة .

مارتين يتجول فى الطرق الطويلة للمقابر . وجالسا على باب المصلى ، كان القسيس يقرأ رواية لرعاة بقر الغرب الأمريكى . . وتحت شمس ديسمبر الفاترة كانت العصافير تزقزق وتقفز

من صليب إلى صليب [١] متأرجحة على الأغصان العارية للأشجار . طفلة تمر بدراجة فى الطريق ، تمر مغنية بصوتها النضير ، اغنية خفيفة من أغانى الموسم . وما عدا ذلك ، فالصمت الناعم ، صمت حلو ، مارتين يشعر بانبساط وانشراح لا يمكن تجنبه.

بيتريتا تتحدث مع سيدتها ، فيلو : ماذا يحدث لك ، يا ، سيدتى ؟

– لا شيء ، الولد مريض ، وأنت تعرفين .

بيتريتا تبتسم فى حب : لا ، الولد ليس عنده شيء . سيدتى تمر بشيء أسوأ .

فيلو تضع المنديل على عينيها : – هذه الحياة لا تجلب شيئا غير الاحزان ، يا ابنتى وأنت – حتى الآن – لا زلت صغيرة على الفهم .

* * *

---

(١) كما نعرف فان المقابر الكاثوليكية ، عبارة عن غابة من الشواهد التى يعلو كل منها صليب ، والكاتب يعبر عن تلك المفارقة بين الحياة التى لا تتوقف حتى امام مشهد الموت فى المقابر .

رومولو [1] فى مكتبته لبيع «الانتيكات» والكتب القديمة ، يقرأ الجريدة .

لندن ، راديو موسكو يعلن ان المؤتمر بين تشرشل وروزفلت وستالين قد عقد فى طهران منذ عدة ايام .

تشرشل هذا شيطان ففى هذه السن ، يجرى من ناحية إلى أخرى كما لو كان ديكا شابا .

المعسكر العام للفوهرر هتلر . فى منطقة جوميل ، من القطاع المركزى للجبهة قد جلت قواتنا عن النقاط .

- أوه ، أوه ! هذا مثل شوكة فى جنبى .

لندن ، الرئيس روزفلت وصل إلى جزيرة مالطا على متن طائرته الضخمة دوجلاس .

- أى عم روزفلت هذا ! اضع اصبعى فى النار ، اذا لم يكن هذا المطار يحتوى على كل شىء حتى على مرحاض .

---

(١) رومولو ، أحد أصدقاء مارتين الذين جمعتهم الحرب الاهلية فى صف الجمهوريين وبعد انتهاء الحرب حاولوا - ونجحوا فى ذلك - أخفاء علاقتهم بالجمهوريين بل تجاوزوا ذلك إلى خدمة نظام فرانكو والانتماء اليه وكلهم الآن مذعورون بسبب خبر فى الجريدة حول الانتماء الجمهورى لمارتين مما يهدد بكشفهم جميعا .

رومولو يقلب الصفحة ويجرى مع الاعمدة بنظرة متعبة تقريبا .

يتوقف عند اعمدة قصيرة ، ذات سطور مضغوطة تجف حنجرته ، ويسمع صفيرا فى أذنيه .

- هذا ما كان ينقص ايام الشدة . . انه استلاب .

* * *

مارتين يصل إلى الحنية التى بها تابوت الام . الكلمات لا زالت سليمة الحروف : ر . ى . ب . دونيا فيلومينا لوبث مورينو ، أرملة د . سباستيان ماركو فرناندس ماتت بمدريد ٢٠ ديسمبر ١٩٣٤ .

مارتين لا يذهب كل الاعوام لزيارة رفات الام ، فى سنويتها يذهب فقط عندما يتذكر .

مارتين يكتشف نفسه . احساس خفيف من الهدوء ، ويشعر ان ذلك الاحساس يهبه لذة تجتاح جسمه . فوق أسوار المقابر ، هناك على البعد يرى اللون الفسيح البنى الذى تتوقف عنده الشمس كما لو كانت نائمة . الهواء بارد لكنه لا يجمد الاطراف . مارتين بالقبعة فى يده ، يلاحظ مداعبة حانية لجبهته ، كان تقريبا قد نسيها ، مداعبة قديمة فى زمن الطفولة . .

– كل شىء طيب هنا (يفكر) سأحضر على مرات متقاربة .

يرفع رأسه من جديد ، وتشغله الذاكرة بذكريات الام . لا يفكر بها فى ازمانها الاخيرة يراها فى الخامسة والثلاثين .

– أبانا الذى فى السماء ، ليكن اسمك مقدسا ، لتأت الينا بملكوتك هكذا كما تعفو عن ظالمينا . . لا ، هذه الآيات ليست بهذا الشكل على ما يبدو لى .

مارتين يبدأ فى ترديدها مرة أخرى ، ويعود للخطأ ، فى تلك اللحظة كان على استعداد للتخلى عن عشرة اعوام من عمره لتذكر آيات «أبانا . . .» .

يغلق العينين ويضغطهما بشدة . فجأة ينفجر فى كلام بنصف صوت .

– أمى ، أكثر من وجودك فى القبر ، فأنا احملك فى قلبى ، واضرع إلى الله أن يقربك من امجاده السماوية كما تستحقين . آمين .

مارتين يبتسم . انه مفتون بالصلاة التى لم يكد يفرغ من اختراعها .

– أمى ، أكثر من وجودك فى القبر ، أضرع إلى الله . . لا لم تكن هكذا .

مارتين يقطب ما بين حاجبيه : كيف كانت ؟

* * *

فيلو تواصل البكاء .

– أنا لا أدرى ماذا افعل . لقد خرج زوجى لرؤية صديق ، واخى لم يفعل شيئا ، انا اضمن لك ان فى الامر خطأ ، لا أحد معصوم من الخطأ . لكن كل شىء فى حياته سليم . .

خوليتا لا تعرف ماذا تقول : هذا ما أعتقده أنا ، لقد أخطأوا فى جميع الاحوال ، أنا اعتقد انه يجب عمل شىء ، مقابلة احدهم . . هذا ما اقوله أنا .

– نعم ، ولنر ماذا يقول روبرتو عندما يعود .

فيلو – وعلى حين فجأة – تبكى أكثر حرارة . الطفل الذى يوجد بين ذراعيها يبكى أيضا .

– بالنسبة لى ، لا أملك الا الدعاء إلى العذراء ، ذات النجدةالابدية ، والتى انقذتنى من أزمات عديدة .

* * *

روبرتو والسنيور رامون وصلا إلى اتفاق ، فكما ان أمر مارتين فى كل الاحوال ، لا يمكن ان يكون ذا خطر كبير ، والمرجح ان يكون لا شىء ، فلماذا الاختباء والهرب ما دام ليس هناك ما يخفيه ؟ سينتظران يومين - فيهما يستطيع مارتين البقاء فى بيت سنيور رامون - وبعد ، ولم لا ؟ يقدم نفسه بصحبة النقيب الغنام ، تيسيفونتى ، والذى لن يتخلف عن تقديم هذا الجميل ، وهو ضمان جيد .

- يبدو لى ان هذا رائع ، سنيور رامون ، وشكرا كبيرا ، أنت رجل عظيم .

- لا يا رجل لا . المسألة فقط ان هذا هو أفضل ما يبدو لناظرى .

- نعم ، هذا ما اعتقده . وصدقنى ، فقد حملت ثقلا عن كاهلى .

- ثلستينو كتب ثلاث رسائل ويفكر فى كتابة ثلاث رسائل اخرى . قضية مارتين تهمه جدا .

- نعم لم يدفع لى ، لا جعله الله يدفع ! لكن لا استطيع ان اتركه هكذا .

مارتين يهبط منحدر المقابر ، ويداه فى جيوبه .

– نعم ، سأنظم اموری . ان اعمل كل الايام قليلا ، أفضل طريقة . اذا قبلونى فى أى مكتب سأوافق ، فى البداية لا ، لكن ، بعد ذلك ، يمكن الكتابة ، فى فترات الراحة ، حول كل شىء ، اذا كان بالمكتب تدفئة جيدة سأتحدث مع بابلو ، فهو يقينا يعرف تدبير الامر فى النقابات ، سيكون الامر ممتازا فهم يدفعون رواتب غير اعتيادية .

لقد مسحت ام مارتين من رأسه .

– أيضا من الممكن ان يصبح الوضع ممتازا فى المعهد القومى للتأمينات ، هناك لابد ان يكون من الصعب جدا الالتحاق بالعمل . فى مثل هذه الاماكن العمل افضل من العمل فى البنوك . فى البنوك يستغلون الناس ، فالذى يتأخر عن العمل يتم الخصم منه عند القبض .

فى بعض المكاتب الخاصة ، يمكن أيضا الازدهار ، دون صعوبة كبيرة . أمّا ما يناسبنى أنا فهو تكليفى بالقيام بحملات صحفية ، ألست تمشى وانت نائم ؟ انت هناك ! انت مجرد تعيس لأنه يحب ! الحبوب إكس (يا ماركو، على سبيل المثال) ستجعلك سعيدا دون ان تؤثر على قلبك فى شىء .

يزداد مارتين تحمسا للفكرة وعند مروره بالبوابة يتوجه

إلى أحد العاملين .

- هل مع حضرتك جريدة ؟ اذا كنت قد قرأتها حضرتك فانى ادفع ثمنها لك ، أود رؤية شيء يهمنى . .

- نعم ، لقد قرأتها يمكنك أخذها .

- شكرا جزيلا .

خرج مارتين مندفعا ، جلس على أحد مقاعد الحديقة وفتح جريدته .

- أحيانا توجد تعلميات هامة فى الصحافة لمن يبحثون عن وظائف .

مارتين يدرك انه يتحرك بسرعة كبيرة ، وانه يجب ان يفرمل قليلا .

- سأقرأ الأخبار ، وليكن ما يكون ، لكن من المعروف انه للتبكير كثيرا يجب الاستيقاظ عند الفجر . . .

مارتين مفتون بنفسه .

- اليوم ، أنا منتعش وطليق . ربما كان جو الريف . .

مارتين يلف سيجارة ، ويبدأ فى قراءة الجريدة .

- أمر الحرب هذا بربرى ، الكل يخسر ، ولا أحد يعمل على

تقدم الثقافة .

من الداخل يبتسم فهو يمضى من نجاح إلى نجاح . . . من وقت لآخر ، يفكر فيما يقرأ ناظرا إلى الأفق .

– وفى النهاية ، فلنواصل .

مارتين يقرأ كل شىء ، كل شىء يعنيه ، التقارير الدولية ، المقال الرئيسى ، ملخص بعض الخطب ، أخبار المسرح ، الأفلام الجديدة ، الجامعة .

مارتين يلاحظ ان الحياة مع الخروج قليلا إلى الهواء الطلق للتنفس – تأخذ اصباغا اكثر نضارة ، اكثر رهافة من العيش غرقا فى المدينة .

مارتين يطبق الجريدة ، ويحفظها فى جيب الجاكتة الامريكية ، ويشرع فى السير ، اليوم يعرف أشياء أكثر من أى يوم مضى . اليوم يستطيع أن يتابع أى حوار حول أى امر من الامور المعاصرة لقد قرأ الجريدة من أعلى إلى أسفل ، اما قسم الاعلانات فقد تركه لرؤيته فى عناية اكثر فى احد المقاهى ، فلعله يؤشر على بعض العناوين أو يضطر لاستعمال التليفون . قسم

الاعلانات ، الاستدعاءات القضائية [١] ، وردود افعال دول المحور ، هى الاجزاء التى لم يقرأها مارتين فى الجريدة .

عند وصوله إلى ميدان حلبة مصارعة الثيران ، يرى مجموعة من الفتيات ينظرن اليه .

– مع السلامة ، أيتها الجميلات .

– مع السلامة ، أيها السائح .

يقفز قلب مارتين ، انه سعيد ، يصعد نحو شارع القلعة بخطوات تنقض على الأرض انقضاضا ، مصفرا نشيد الوسام [٢] .

مارتين الذى قضى وقتا طويلا ماشيا على قدميه ، يقف إمام «فترينة» محل مجوهرات .

---

(١) طبقا للأحكام العسكرية من حق القضاة العسكريين محاكمة الناس على افعالهم قبل ١٩٣٩ ، أى قبل تولى فرانكو السلطة ، وهذا يتعلق بما سمى بجرائم الاشتراك مع الجمهوريين ضد جانب فرانكو . وتعلن فى الجرائد أسماء المشتبه فيهم ، ويطلب منهم تسليم انفسهم ، ويبدو ان أسم مارتين قد ظهر فى هذه القوائم مما أثار ذعر اسرته واصدقائه . ونحن نعرف اشتراكه مع اصدقائه فى تأييد الجمهوريين من قراءتنا للفصول السابقة .

(٢) نشيد ظهر خلال الحرب العالمية الثانية وصار شعبيا فى كل اوروبا .

– عندما اكون قد تسلمت العمل ، وكسبت شيئا من المال فاننى سأشترى بعض الحلى لفيلو ، والبعض الآخر لبوريتا .

يضرب بيده فى الجريدة ويبتسم .

– هنا يمكن اين يبدأ الطريق .

مارتين بسبب هاجس غامض ، لا يريد ان يسبق الحوادث . ففى جيبه يحمل الجريدة ، والتى لم يقرأ فيها بعد الاستدعاءات القضائية ، والاعلانات ، وردود افعال دول المحور .

– هـا ، هـا ! شعوب المحور ، أى نكتة ! شعوب المحور !

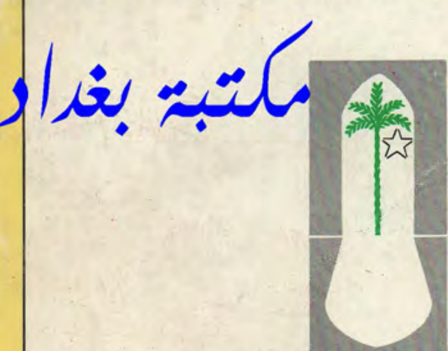
مدريد ، ١٩٤٥ ، فبراير ١٩٥٠ (١) .

---

(١) الرواية صدر الفصلان الاول والثانى منها عام ١٩٤٥ ، ثم صدرت مكتملة عام ١٩٥٠ .

طرق ضالة خلية النحل

«خلية النحل» رواية «عمدة» وأساسية فى تطور الرواية المعاصرة المكتوبة بالاسبانية داخل إسبانيا وامريكا الجنوبية . وبالتالى فهى تحتل مكانة متميزة فى تطور الفن الروائى العالمى ، وكان من المنطقى أن تحمل مؤلفها «كاميلو خوسيه ثيلا» إلى جائزة نوبل . ومن الصدف ذات المغزى أن يحصل «ثيلا» على هذه الجائزة عام ٨٩ أى فى العام التالى مباشرة لنيل «نجيب محفوظ» على هذه الجائزة . وإذا كان هم «نجيب محفوظ» البارز فى رواياته يدور حول الحياة فى مدينة القاهرة فإن خلية النحل قد احتفلت بالحياة فى مدريد مع فارق واضح هو أن أعمال «محفوظ» تتحرك فى فضاء الزمان التاريخى للقاهرة مع تثبيت المكان بينما ثيلا يتحرك فى الفضاء المكانى لمدريد مع تثبيت الزمان ، وهى حركة ترى المكان داخل الإنسان فى اللحظة الراهنة «الحاضر» الذى لايحمل من الماضى إلا مازال يعيش ومن المستقبل إلا ما هو فى رحم ذلك الحاضر .



دار سعاد الصباح